الجمهورية التركية
جامعة سلجوق
معهد العلوم الاجتماعية
قسم العلوم الإسلامية الأساسية
فرع اللغة العربية و بلاغتها

القِيَمُ الرُّوحيّة في المرحلة الأولى للشِعِر العِرَاقي الحَديث

رسالة الدكتوراه

إعداد
سركوت مصطفى عزيز

إشراف
الأستاذ الدكتور
تاج الدين اوزون

قونية 2007

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مــقَــدّمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

الأدب في جميع الأمم، أهم أسس نهضتها وأقوى دعامة فكرية تسند مسيرتها نحو الحضارة والرقي، وبوساطته يمكن التمهيد للحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية تخدم الشعب وتطور حياته. وإن شعر كل أمة من الأمم صورة منتزعة من واقعها تستلهمه من تجاربها وصراعها مع ذلك الواقع وتلك الأحداث تعبر عن مأساتها وسرورها.

يعتبر الشعر فضيلة تتغنّى بالقيم الروحية والإنسانية المطلقة، والشعر الذي لا يحرّك الشعور الإلهي في الإنسانية، ولا يدفع بالفكر إلى أعماق الخبايا النفسية، يعتبر شعراً مهيض الجانحين. وأنا اعتبر الشعر فكراً وتجربة إنسانية حميمة. من خلال هذه الاعتبارات ولّد فيّ الرغبة الملحة في البحث عن تلك القيم الروحية والإنسانية في تراث الشعر العراقي الضخم، وقد أتيحت لي الفرصة ان يكون موضوع بحثي عن القيم الروحية والإنسانية في الشعر العراقي. ولذلك دفعتني الموضوع إلى دراسة الشعر العراقي الحديث في هذا المجال. لكونه يشغل مساحة ذات قيمة مهمة في الشعر العربي..

وقد بدأت بدراستي هذه بالبحث عن القيم الروحية والإنسانية في المرحلة الأولى للشعر العراقي الحديث، إنما حدا بي الشوق إلى البحث عن تلك القيم في الشعر

العربي القديم، لكي يتضح لنا تطور فهم العرب للقيم عامة والإنسانية خاصة و حظهم منها منذ كان شعرهم.

وقد بدأت الدراسة في منهجها على تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وحاولت الالتزام بالمنهج الدراسة الموضوعية والرصانة العلمية.

ففي التمهيد تناولت حياة المجتمع العراقي وكذلك بداية الشعر العربي القديم والجاهلي والشعر العراقي الحديث من جوانب السياسية والاجتماعية والفكرية وحركة الشعر الحديث في العراق والعالم العربي بالقدر الذي يغنى عن البحث ويضيء جوانبها.

في الفصل الأول تحدثت عن ماهية القيم الروحية وكذلك القيم الروحية في الشعر والقيم الروحية في الشعر العربي القديم.

أما في الفصل الثاني فقد تناولت عن القيم الدينية، والإنسانية، والأخلاقية في الشعرالعربي الحديث، وتحدثت أيضاً في هذا الفصل العوامل التي أضعفت القيم الروحية والإنسانية ومعالجته وكذلك العوامل التي تقوى القيم الروحية والإنسانية .

وفي الفصل الثالث والأخير من الرسالة فهو الدراسة شاملة لقيم الروحية والإنسانية في المرحلة الأولى للشعر العراقي الحديث، وتحدثت فيها عن القيم الدينية، والإنسانية والأخلاقية في الشعر العراقي الحديث.

وواضح أن دراسة الأدب العراقي الحديث على هذا الأساس تتطلب الإحاطة الشاملة بجوانب الحياة المختلفة في هذا العصر. هذا ولما كان الكثير من جوانب الحياة لها جذور وأصول قديمة كان علينا الرجوع إلى التاريخ القديم لمعرفة نشأتها ومراحل تطورها من المسائل الضرورية للقيم الروحية والإنسانية وهذا ما نهجته.

ولأجل أن تكون الإحاطة بالموضوع شاملة أطلعت على أكبر عدد متيسر من المصادر والمراجع، وبذلت جهداً كبيراً في توثيق النصوص المقتبسة وتحقيقها.

وإذا كان عليَّ أن أتحدث عن العقبات التي واجهتني في بحثي فأنني أقول أن ندرة المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع على كثرة المصادر التي تناولت فيها عن القيم الروحية والإنسانية، هي من أكثر المشكلات التي واجهتها صعوبة حيث أكثر هذه المصادر يكاد يكرر المعلومات نفسها.

وبقي أن أوجه عميق شكري وتقديري إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور تاج الدين أوزون المشرف على بحثي، لبيان ملامحها التفصيلية وتوجيهاته ونصائحه القيمة ونقده البناء.

وكذلك أوجه شكري وتقديري للأستاذين الجليلين الدكتور سيد باغجوان والدكتور فكرت أرسلان المشرفان في لجنة البحث. ويفرض عليَّ الوفاء أن أذكر الفضل الكبير للأستاذ الدكتور أسماعيل حقي سيزر، وكذلك أشكر الأستاذ الدكتور علاء الدين محمد الأستاذ في كلية الآداب بجامعة صلاح الدين في أربيل الذي ساعدني في إختيار عنوان الرسالة وإعداد خطة الرسالة وله مني جزيل الشكر والتقدير. وكذلك أشكر جميع الموظفين في مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية للجامعة صلاح الدين على تعاونهم معي.

أرجو من الله التوفيق والسداد. وله الشكر أولاً وآخراً

سركوت مصطفى عزيز
قونية / 2007

تـــمهـــيـــد

اجتاز العراق في القرن التاسع عشر مراحل شاقة من مراحل حياته، فقد هيمنت على حياة المجتمع العراقي خلال القرن أزمات متنوعة من إقتصادية إلى سياسية وعلمية، وقد كانت هذه الأزمات تؤثر أبعد الأثر في حياة الفرد العراقي، إذ كان من جراء هذا الوضع المضطرب في الحياة الاجتماعية أثر في نفسية الفرد فاختلت موازين الحياة الإنسانية وتغيرت المثل العليا وتردت كما تردت الحياة الاجتماعية التي كان يعيش عليها المرء، لذلك كان الشعب فريسة سهلة تعاورتها العناصر المتنافرة المضطربة؛ فوزعت القوى العامة وعينت للناس سلوكاً خاصاً وطريقة للتفكير والعيش في العراق. وقد شلت الإدارة الحكومية المهمة الإنسانية في الحياة عندما شلت الفرد عن ممارسة حقوقه وأعماله اليومية بالقسوة والسطوة والامتلاك. وبذلك أصيب الإنتاج المثمر بالشلل العام؛ فأصبح العراقي فردياً في تفكيره وأسلوب حياته وأمانيه وأحلامه، لأنه كان يخشى أن يختلط بالناس خوف الجواسيس فاضطر للحذر من أخلص الأصدقاء.

وكذلك الأدباء والشعراء من أفراد هذا الشعب الذي أصيبت معاييره بالعطل؛ فجاء أدب هذا العصر مختلاً موازينه، وأصبح الأديب الذي يعد موهوباً من يمدح الحكام الذين يحكمون العراق، الأديب هو الذي يحس صنعة الذلة وتقبيل الأيدي ولثم أطراف الثياب، أو الشاعر الذي يبلغ ويلحق في المبالغة المرذولة[1] .

وبذلك ضاعت معايير الشاعر الخلقية التي كنا نجدها في زهو الشعراء ومباهاتهم وشروطهم في مدح الملوك والرؤساء. وبعد أن فقد تلك المكانة السامية التي كانت تحفها روح الجلال والهيبة؛ فغدا الشاعر أداة التسلية وجلب السرور والمرح له[2].

---

[1] عبده بدوي، دراسات في الشعر الحديث، كويت 1987، ص 32.

[2] أنيس المقدسي، الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. بغداد 1929، ص52.

وظهر فريق من الشعراء آثر الانطواء على نفسه حانقاً متألماً، وفي نفسه صراع نفسي مرير بين واقع للحياة كالح مشوب بالذلة والهوان، وبين مثل سماوية وجد فيها الراحة والأمان، فالتجأ الشعراء للدين لكي يرضوا ضمائرهم بمدح الرسول وآله؛ ينشدون السلوى في المثل العليا والأخلاق الروحية السامية[3].

فكان الشعر الديني مشحوناً بالآلام فياضاً بالحسرة والأشجان في نفسية الشاعر وعن حياته التي أرهقته وواقعه الذي آلمه.

ولم يخل الشعر العراقي من فورات قومية كانت نتيجة لاضطهاد الحكومة لعلماء العرب وذوي المكانة منهم خاصة؛ فهاج الألم والواقعية شعراً جميلاً رائعاً في القومية، وأخذ الشعراء يذمون الدهر ويلعنون الأيام الغادرة[4] .

وفريق آخر آثر السلامة على هذا النضال، وأبعدته ظروف حياته عن الخوض في تيار الحياة، فراح يشغل وقته بنظم الألغاز وبتسميط القصائد ويصف الغليون والدخينة "السيكارة" والنرجيلة، وينتهز الفرص ليقدم التهاني ببناء غرفة في دار صديق، أو يؤرخ ختان أولاده. تلك جماعة من الشعراء تفلسفوا في الحياة حسبما تراءت لهم دون أن يحلفوا بماض أو بآت، ولم يفكر الشاعر منهم في تبديل أو تغيير، وإنما اتخذ من ملكة الشعر طريقة يتسلى بها بين أصدقائه. وبذلك يقضي وقته مرتاحاً ناعم البال في نظم توافيه الأمور[5] .

إن الثقافة العربية التي كانت ممتدة الجذور باسقة الأغصان فترة طويلة من الزمن، لم تنقرض بانقراض الدولة العباسية ولم تزل بزوالها. فلقد ظلت هذه الثقافة، بخاصة الشعر، لأنه أبرز صور هذه الثقافة ولأن نهضة العراق الأدبية امتازت بأنها نهضة شعرية أكثر مما هي نثرية تاجاً يزين هامات الشعراء[6]. بيد أن هذا الشعر العربي الذي ظل مزدهراً هذه القرون العديدة قد انطوى على نفسه، وأصابه الركود والفتور، وانحدرت من النظر إلى السماء بدل النظر إلى الأرض. ودخل في فترة حاسمة من فترات حياته وصراعه من أجل البقاء وإثبات الذات، مثل هذا دخلت الأمة العربية كلها في هذه الفترة الحاسمة من تاريخها المجيد، على أثر احتلال الاعاجم

---

[3] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، بيروت 1978، ص 62.

[4] يوسف عز الدين، الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، بغداد 1958، ص 42.

[5] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور، بيروت 1987م. ص 62.

[6] نفس المصدر، ص75.

لعاصمة الخلافة العربية، وتلاعبهم لمقدرات هذه الأمة، بعد القضاء على هيبة هذه الخلافة قضاء مبرماً[7]. إذ ظلت العراق، بعد هذا التاريخ، كما ظلت الثقافة العربية فيها، سماء سوداء لوّنتها بألوان معتمة قاتمة، استطاعت أن تكون عاملاً من عوامل الجذب في حياته المتدفقة الخلافة. غير أن هذه الثقافة، وبخاصة الشعر قد بقيت متقيد الجذور عميق الغور، وظل الشعر سائراً في طريقه يصارع الزمن حتى استطاعت أن يثبت وجوده وبقاءه. وقد بدأت الحياة تتغير ببطء في العراق أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث ظهر فريق من الشعراء بلغت قدراتهم الشعرية أقصاها ما بين الحربين العالميتين ومنهم الزهاوي والرصافي والكاظمي وحمل هؤلاء الشعراء العبء[8] ويمكن القول أن أهم انجاز حققوه في نقل الموضوعات الفردية الشخصية السائدة في القرن التاسع عشر إلى الناس والشارع والاجتماعيات التي لا تخلو أبداً من شعراء وقصائد وحماسة وتصفيق. وثاروا على قيم اجتماعية وسياسية وفنية، وطالبوا بالتجديد من الشعراء ولم يصدر عنهم جديد فيه[9]، واهتم هؤلاء الشعراء في العراق بقضايا مجتمعهم والمشكلات التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

إن الشعراء ما بين الحربين (حرب العالمية الأولى والثانية) عالميتين لم يشتهروا بقابليتهم ومواهبهم وقدراتهم الشعرية وحدها بل كان لهم دور المرشد والمعلم والمصلح والموطئ لعوالم التأخير والدهشة التي أصابت الإنسان الخارج من عصور القهر إلى عالم غريب، فنظموا لها قصائد تتناول العلم والفلك والفلسفة والطب والمقترعات الحديثة[10]. وبدأ هؤلاء الشعراء وكأنهم استيقظوا مجتمعاتهم تواً من نوم طويل وأرادوا أن يمد اليقظة الفردية العامة بطاقة شعرية وتعجلوا في أن يغيروا بسرعة معالم الشعر والإنسان.

والشاعر العراقي ظل في الأشكال التقليدية والأفكار الجاهزة والخطابية الصاخبة ولم تنظم طموحهم في أبعاد أو في إطار محدود. ولم يهتموا باللغة كثيراً وحضي المضمون بعنايتهم الأول لأنهم أرادوا لشعرهم أن يبشر برسالة إصلاحية

---

[7] يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، القاهرة 1973م. ص 22.

[8] سالم أحمد الحمداني، الأدب العربي الحديث، بغداد 1987م. ص 46.

[9] نفس المصدر، ص 48.

[10] علي عباس علون، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، بغداد 1975، ص 49.

تفهمها الجماهير فمالوا إلى الوضوح التام وانطلقوا من موقع الموجهين وقاموا بدور الملقنين يخاطبون أناس يعرفون أن ثقافتهم محدودة، فتظهر في شعرهم وسائل ايضاح تبصر المتلقين بما يريدون أن يقطعوا به إليهم[11].

إن أصالة الشعب العراقي في عروبته، كانت من أهم العوامل التي حافظت على حياة الشعر العراقي، وصانته من الضياع. كما أن هناك من يرى أن من عوامل صيانة هذا الشعر العربي من الضياع، والمحافظة عليه مصادر التراث والشقاق بين المذاهب الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين ونتيجة ظروف الاحتلال واصطدام قواته بالشعب كان الخيار واضحاً أمام الوطنيين وأبناء الشعب وهو الثورة ذات المضامين القومية بما تحمله من معاني التغيير السياسي والاجتماعي والفكري، ومن دلائل النهضة الشاملة، وجدنا الشاعر يحترف فؤاده في لهيبها، وتنفجرعبقريته الكامنة على أزيز رصاصها وعلى ضفاف أنهر دماء شهدائها[12]. تلك الكواكب التي أنارت الطريق للجيل العربي الجديد.

وتعبير الشاعر العراقي عن الثورة يشكلها خطاً متصلاً بضمير الإنسان في العراق المرتبط بتاريخ الأمة العربية. كان الشاعر ثائراً بين الثائرين وخطيباً في صفوفهم ومحفزاً للجماهير ضد الأشكال المزيفة صنيعة الاستعمار في الوطن.

لقد وقف الشاعر العراقي إلى جانب الجماهير في اختياراتها الثورية الأصيلة ومبادئها القومية الوحدوية؛ فلم يتوقف أمام محاولات التيئيس والتحذير التي استخدمتها الحكومة العراقية منذ تأسيس أول وزارة عام 1921[13].

وظلت المضامين القومية والاجتماعية تتفاعل فيما بينها وتظهر على السطح في كل انتفاضة أو ثورة شعبية شهدها العراق منذ أوائل القرن العشرين.

كما عبر الشعراء العراقيون عن معارضتهم للسياسة الاستعمارية الجديدة التي أخذت تكبل العراق بالمعاهدات الجائرة، لشل قدراته وأمكانياته عن بناء نفسه ومنعه من المساهمة القومية لتحرير الأرض العربية من الاحتلال الأجنبي، وقد حفلت الفترة

---

[11] علي عباس علون، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، ص 49.

[12] ماجد أحمد السامرائي، التيارات القومي في الشعر العراقي الحديث، بغداد 1983، ص 40.

[13] نفس المصدر، ص 41.

الزمنية الممتدة من عام 1922 حتى عام 1958 بعشرات، بل مئات القصائد التي نددت بتلك المعاهدات، وإنما نجد شاعراً وقف إلى جانبها[14].

إن مرحلة التحول الجديد في الشعر العراقي الحديث قد نمت وتطورت بفعل عناصر ثقافية وسياسية عديدة، ومن بين العناصر المهمة انفتاح الشعراء الشباب على النماذج العالمية بسبب توسع دائرة ثقافتهم واكتسابهم اللغات الأجنبية أو عن طريق الترجمة، فرمت النماذج الثقافية الأجنبية بثقلها في الواقع الأدبي، فعرف الشعراء الشاب الجدد، أرثور رامبو (Arthur Rimbaud)، وشارل بودلير(Charle Baudelaire)، وت–س اليوت (T.S.Eliot)، وستيفين سبندر (Stephen Spender)، وأريرث ستيول (Eareth Stiol) وديلان توماس (Dylan Thomas)، كما عرفوا أيلوار(Eliwar) ولويس أراكون (Louis Aragon). ولقد كانت هذه النماذج لمجموعة باهرة وجديدة على الأدب العراقي بشكل خاص[15] .

وبدأ الشعراء يعالجون مشاكل الفقر والفقراء، والبؤس والشقاء، ويدعون في الوقت ذاته إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس والقضاء على الفوارق الطبقية المصطنعة بينهم. ومن الشعراء معروف عبدالغني الرصافي (ت1945م)، وجميل صدقي الزهاوي (ت1936م)، وعبد المحسن الكاظمي (ت1935م)، ومحمد رضا الشبيبي (ت1965م)، وعلي الشرق (ت1964م)، ومحمد باقر الشبيبي (ت1960م)، وأحمد الصافي النجفي (ت1977م)، ومحمد الجواهر (1900م)، وغيرهم، كان شعرهم جميعاً يعبر تعبيراً صادقاً عن كل ما يتعلق بالمجتمع العراقي في جميع شؤونه ومشاكله وأمانيه[16].

وكما اهتم الشعراء بدراسة قضايا المرأة ومعالجتها معالجة صريحة جريئة على اعتبار أنها تكون نصف المجتمع الذي تعيش فيه. وبالجملة فإن الشعراء العراقيين قد عبروا أحسن تعبير عن هذا المجتمع الذي يعيشون فيه، وشاركوا مشاركة وجدانية في آماله وآلامه، وبينوا له أنجح السبل في إنهاضه، والبلوغ به إلى مراتب سامية من

---

[14] وقف الجواهري وعبد الرحمن وعبد المجيد الملا إلى جانب معاهدة سنة 1922 وقد ندد بها الزهاوي وجواد السوداني ومحمد حبيب العبيدي وعبد الحسين الملا وباقر الشبيبي والصافي النجفي (ينظر إلى الشعر العراقي الحديث، ليوسف عز الدين، ص 210.

[15] يوسف الصائغ، الشعر الحر في العراق، ص 34.

[16] عبده بدوي، دراسات في الشعر الحديث، ص 42.

العزة والكرامة. هذا من الناحية الاجتماعية أما ما يتعلق بالناحية السياسية، فقد شارك الشعر العربي في العراق مشاركة فعالة حازمة في جميع الأحداث السياسية التي جرت على مسرح السياسة سواء في داخل العراق أو في خارج البلاد العربية. وكذلك وقف الشعر العربي الحديث في العراق موقفاً حازماً من الإنكليز الذين استعمروا العراق بعد مغادرة الأتراك، فقاوم المعاهدات التي كانت تعقد بينهم وبين العراق، بين حين وآخر وندد بالحكومات القائمة كل التنديد، وسخروا من وزرائها أشد السخرية[17].

ولقد كان لهم كذلك موقفهم المشرق في مناصرة ثورة رشيد علي الكيلاني ضد الأنكليز، وضد العائلة المالكة في ذلك الوقت. ولقد حاول كثير من الأدباء أن يحددوا بداية هذه النهضة الأدبية الشعرية الحديثة، فذهب بعضهم إلى أن بداية الشعر العراقي الحديث هو عام 1908، أي في بداية عهد إعلان الدستور العثماني[18]. وذهب البعض الآخر إلى أنها لم تبدأ إلا بعد قيام الحكم الوطني في العراق أي في عام 1921.[19]

فإن الشعر العراقي الحديث، لم يكن ذا نزعة إقليمية، وإنما كان يتخطى هذه الحدود المصطنعة، ويذهب إلى أن سبيل التحرر يجب أن يكون للأمة العربية كلها في جميع بلدانها وأقطارها. إذا فإن الشعر العراقي كان شعراً عربياً بكل ما فيه الكلمة من المعنى، وإن الشعراء كلهم كانوا يتنزعون نزعة عربية بحتة.

وبعد، فلقد كانت النظرة الإجمالية عن الشعر العربي الحديث في العراق، في هذه الفترة، وهي الفترة التي ازدهر فيها الشعر التي تجاوب موقفاً مع أحاسيس الشعب، تنحصر في النظرة الموضوعية إليه والأعراض التي حرص على أن يطرقها أكثرمن غيرها.

أما من حيث شكل القصيدة، ومبناها، فقد بقي على ما هو عليه يعنى بالأساليب القديمة الموروثة، محافظ على القافية والوزن. كما أن اللغة التي استعملت فيه، هي

---

[17] يوسف عز الدين، الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، ص 52.

[18] عبد الكريم الدجيلي، محاضرات عن الشعر العراقي الحديث، القاهرة 1959، ص 11.

[19] جميل سعيد، نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق، القاهرة 1954، ص4.

اللغة المألوفة، والعبارات المسموعة، وودع بصورة عامة، كل ما له علاقة بشعر عهد الانحطاط، من محسنات لفظية وبديعية وغيرها مما هو شائع ومعروف[20].

بيد أن هذا الشعر ما لبث أن اتخذ طوراً جديداً خاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية. إذ أن كثيراً من الشعراء بدأوا يتصلون بالآداب الغربية، إما عن طريق الإطلاع المباشر، بعد أن كثر عدد الملمين باللغات الأجنبية، فظهر اهتمامهم واضحاً بمحاكاة الأدب الغربي، والتأثر بالتيارات التي كانت سائدة فيه. ولذلك فقد تمايز هؤلاء الشعراء فيما بينهم، واختلفوا اختلافاً كبيراً. فهؤلاء جماعة فتنوا بالشعر الرمزي، فبدأوا ينظمون على منواله وجماعة ثانية فتنت بالشعر الرومانتيكي، فحاولت تقليده ومجاراته وجماعة ثالثة نزعت نزعة وجودية في نظمها. وجماعة رابعة كلفت بالشعر الواقعي على اعتبار أن الشاعر يجب أن يلتزم بالمحيط الذي يعيش فيه ويحياه[21].

(وقد تجتمع في شعر نفر منهم عدة مذاهب تتداخل بعضها مع البعض الآخر تداخلاً يصعب معه استخلاص مذهب واحد مستقل عن غير كل الاستقلال)[22] .

وقد تأثر الأدب العراقي الحديث بالمدرسة الرومانسيي الفرنسية، والإنكليزية، وأصبح الشاعر العراقي الحديث ينظر إلى الطبيعة، ليس كما ينظر إليها الشاعر القديم نظرة حسية مادية، بل نظرة روحية حية، فيتحدث إليها، ويرى فيها مصدراً غنياً بالمعاني الخالدة.

وقد خرج الأدب العراقي الحديث أيضاً عن الطريقة التقليدية، وتحرر من التكلف، فظهر في أدبنا تنوع تفنن في القصة والمقالات الأدبية وفي الشعر الغنائي، وأعراضه فأصبح الشاعر يتأمل عميقاً في النفس البشرية وفي الحياة، باحثاً عن جوهرهما بشوق عظيم[23]. وأخذ يعالج مشاكل الإنسانية جمعاء، وقد أصبح مسخراً لرغبات نفسه، لا لرغبات قبيلته أو حكامه كما كان قديماً، فآمن بنفسه، وآمن بالقيم الروحية الصادرة من القلوب البشرية، ونظم قصائد فيها وحدة في الموضوع، وحرية

---

[20] يوسف عز الدين، شعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية، القاهرة 1977، ص 28.

[21] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور، ص 95.

[22] أحمد أبو السعد، الشعر والشعراء في العراق 1900 1958 م. لبنان 1959 م، ص 3.

[23] يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 52.

في الإخراج، وعالج فيها المواضيع الروحية، يشعر بها كل إنسان في كل مكان فأدب اليوم أدب يؤمن بالحياة وقيمتها الروحية. وقد اتجه الأدب العراقي الحديث اتجاهات جديدة لم تكن معروفة في الأدب القديم بمفهومها هذا، متأثراً بالأحداث الإقليمية والعالمية[24]. وتفلَّت من قيود لازمته أجيالاً، واهتمة في شؤون شعبه، وشغف بالطبيعة وإحياء روح القومية، وجدد في أساليبه متخطياً الحواس متأملاً في المواضيع المعنوية المجردة.

واستحضار الشعراء للتاريخ العربي، وماضي الأمة جعلها يتحدثون عن القيم الروحية كجزء منهم في تاريخ الأمة. ويعتبر الدين من أهم عوامل الشعور القومي. لأن الله سبحانه وتعالى قد كرم هذه الأمة وجعلها مهبطاً للوحي ومولداً للأديان السماوية التي تتفق في أصولها وجوهر عقائدها، وهي جميعاً تأخذ بمبدأ التسامح ونبذ التعصب[25].

إن القيم الروحية الإسلامية لا يمكن فصلها عن الشعور القومي العربي، لأن قدرة الإسلام وتأثيرها في النفس العربية، كانت الدافع الرئيسي للفتوحات العربية، وبناء الدولة العربية وحضارتها الكبيرة.

وبسبب سيطرة النزعة الإسلامية على الفكر القومي العربي أوائل القرن العشرين وخاصة خلال نشوء الفكر القومي في مصر، جعل البعض يخلط بين الدين والقومية، ويلغى في بعض الأحيان الحس القومي باسم الدين[26].

ولهذا نلاحظ الشاعر القومي في أوائل العشرينات كان يتحدث عن القيم الدينية ويريد بها القيم القومية والروحية أيضاً. وهكذا نجد الرصافي يقول:

قُــلــن لــمن رام صَــدعنَا بِشقَــاق   أَنْتَ كَالــوَعْــل نَــاطِح الصَفْوَان

وبــك إنَّ الإِسْـــلاَمَ أَوجَــــد فــينَا   وَحْــدَةً مــثْل وَحْــدَةِ الرَّحْـــمن[27]

وهكذا استخدم الشعراء منابع الدين الإسلامي وقيمها الروحية وتراثه النضالي في التصدي للجاهلية والانتصار عليها والانطلاق بالفتوحات العربية الإسلامية

---

[24] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق من 1920 – 1958 م. بغداد 1978م. ص 20.

[25] ماجد أحمد السامرائي، التيارات القومي في الشعر العراقي الحديث، ص 22.

[26] نفس المصدر، ص 29.

[27] معروف الرصافي، الديوان ، بغداد 1947م، ص 325.

كرصيد أساسي في تعزيز الالتزام القومي بالأرض، والدفاع عنها بوجه الاحتلال الأجنبي. ومن هنا لا نجد تعارضاً بين القومية والدين الإسلامي، بل أنه يعزز قيمها وأصالتها الروحية.

ومن ناحية اللغة فقد ترك الشعر العربي القديم أثراً كبيراً في اللغة العربية حيث كان للشاعر دوره الرئيسي من خلال فعله الإبداعي في عالمها.

وإن كانت مراحل تفاعل الشعر باللغة تختلف مستوياتها باختلاف الظروف الطويلة والمعقدة التي مر بها شعرنا العربي بصورة عامة، والشعر العراقي بصورة خاصة فإن لغة الشعر العراقي التقليدي المعاصر لم تنهض نهضة شاملة على طول خط الشعر التقليدي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وبداية خط تجديد الشعر كان على يد الشعراء بدر شاكر السياب (ت 1964م)، ونازك الملائكة (ت1923م)، وشاذل طاقه (ت1974م) وعبد الوهاب البياتي (1926م) وغيرهم[28]. حيث تخلصت المفردة الشعرية من الجمود الذي كبلها فترة من الزمن.

لقد اهتم الشاعر التقليدي بالألفاظ الفصحى واعتنى بصنعتها على طريقة أسلافه الشعراء القدماء، واتكأ غالبية الشعراء المقلدين على الثروة اللغوية الهائلة التي يحتويها ديوان الشعر العربي القديم. وأبرز من يمثل هذه الظاهرة، الرصافي والجواهري على الرغم مما حملوه من محاولات التجديد اللغوي في الشعر[29]، فإن الرصافي دعا إلى التجديد في لغة الشعر ومعاصرتها لروح الحياة الجديدة[30].

وعناية الجواهري باللغة ميزة يتميز بها في بين معاصريه وهي سمة غالبة في شعره، ويملك منها ثروة هائلة في المفردات والتراكيب بسبب قراءاته الطويلة في الموروث الشعري وحفظه غالبية دواوين البحتري وأبي نواس وابن الرومي والمعري وأبي تمام والمتنبي[31].

لقد تطورت المفردات اللغوية في الشعر العراقي عبر التاريخ وعلى يد الشعراء البارزين الذين تمكنوا من لغتهم، وامتلكوا ثراءها. كما كان للحدث السياسي الوطني

---

[28] ماجد أحمد السامرائي، التيارات القومي في الشعر العراقي الحديث، ص 173.

[29] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، ص 29.

[30] على عباس علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، ص 310.

[31] نفس المصدر، ص 310.

والقومي والديني تأثيره الواضح في هذه اللغة وخصوصيتها ذلك أن قصيدة من حيث هي عمل فني ليست إلا تشكيلاً خاصاً لمجموعة من ألفاظ اللغة. وهو تشكيل "خاص" لأن كل عبارة لغوية سواء أكانت شعرية أم غير شعرية تعد تشكيلاً لمجموعة من الألفاظ[32].

لكن خصوصية التشكيل هي التي تجعل للتعبير الشعري طابعه، ولهذا فإن لدلالة الألفاظ خصوصيتها النفسية والشعورية، مع دلالة الحدث الخارجي الذي يتعامل معه الشاعر. وهو ما أطلق عليه النقاد القدماء "موافقة الحال"[33].

كما أن لكل كلمة في القصيدة موضعها يحسن استعماله فيه كما يقول ابن الأثير "فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فيستعمل في وصف الأشواق والجمال وذكر أيام العيد. وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك"[34].

ونتيجة عناية الشاعر الجديد بالموروث الشعبي القومي واستخدامه للأسطورة السياسية، فقد برزت المفردات الجديدة ذات الدلالات الأسطورية في قصائد الشعراء العراقيين من منابع الموروث الديني والإنساني. فنجد الألفاظ القرآنية تتكرر كثيراً في قصائد الشعراء لا بنصوصها المباشرة، إنما بصداها المؤثر في نفس وروح الشاعر العراقي، فتتفجر في تلك النصوص الطاقات الكامنة حيث يحدد كل شاعر موقفه الشعري من خلال تأثيرها في أعماق[35].

وتكررت كثيراً المفردات ذات المعاني الأسطورية الدينية والشعبية، كما استفاد الشعراء المجددون من الحكاية الشعبية العراقية باعتبارها مصدراً مهماً من مصادر الإبداع الفني ولأنها تمثل صورة للصراع بين الخير والشر والحياة والموت، وهي إضافة لتأثيراتها المباشرة على الطفولة فإنها تؤثر. وهكذا نلاحظ أن المفردات في الشعر العراقي الحديث قد انطلقت بآفاق عصرية واستطاع الشاعر تطويعها للعملية

---

[32] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، بيروت 1974، ص 145.

[33] جابر عصفوري، مفهوم الشعر، القاهرة 1978 م، ص 62.

[34] رؤوف الواعظ، الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، بيروت 1974 م، ص 375.

[35] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 145.

الشعورية، ذلك أن الأساليب الشعرية الجديدة قد وفرت أمامه فرص وإمكانات الإبداع في بناء القصيدة الجديدة.

إن الشاعر العراقي الحديث لا يرضى سوى التأمل العميق في كل ما يقول، فيعنى بالفكر والشعور معاً، وينظر إلى الحياة نظرة سامية، عمادها السعي والكفاح، ويؤمن بالفضائل ويحسها في كل ذرة منه ويؤمن بالعقل، ويمجده في جميع أعماله، ويؤمن بالروح وخلودها.

لقد أشرق في الأدب العراقي الحديث الروحية التي تدعو إلى السلام والإخاء والمحبة، والتي تؤمن بالإنسانية، كما أصبحت القصيدة الحديثة تدور حول موضوع واحد لا يخلو من الفكر والشعور، ولا يخلو من التجريد والارتفاع عن حدود المادة، إذ يقف الشاعر متأملاً في ما وراء الآفاق، بعد أن كانت القصيدة الوحدة القديمة عامة تعالج مواضيع مختلفة، ولا ترتفع عن نطاق المرئيات، تعنى بالصور المادية والموسيقى اللفظية والمحسنات اللغوية. نقول هذا ونحن لا ننكر روائع الشعر العربي القديم وما حمل لنا من أفكار نبيلة سامية في حدود اختبارات الإنسان القديم. على أن الأدب العربي الحديث في طريقه إلى العالمية، فينبغي على أدباء العراق المحدثين أن يجاهدوا في سبيل ذلك.

وقد استطاع بعض الأفراد على حد قول خالد محمد خالد "أن يتغلبوا على مشاق بيئتهم وظروفهم، ويكتسبوا لأنفسهم رغم متاعبهم وآلامهم حياة روحية وضيئة"[36]. يعبرون عنها في قصائدهم.

وقد نجد في ديوان واحد على قصيدة أو قصيدتين أو أكثر، تعالج فيها مشاكل إنسانية، تمجد الحرية والعدل والمساواة وتدعو إليها، وقد نقلب مئات الصفحات من المجلات العديدة لنعثر على قصيدة واحدة تعنى بالروحية وتبشر بها، على أن أشهر الشعراء العرب الذين عنوا في مشاكل الروح والنفس في مصر هم عبد الرحمن شكري، وأحمد زكي، وأبو شادي، وعلى محمود، وطه حسين، وفي العراق جميل الزهاوي ومعروف الرصافي ومهدي الجواهري. أما في سوريا ولبنان فنجد أن الشعراء المهجريين قد ساهموا جملة مساهمة فعالة في هذا الاتجاه الروحي الجديد،

[36] خالد محمد خالد، من هنا نبدأ، القاهرة 1950 م، ص 67.

يجيئ في طليعتهم جبران ومخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي، ونسيب عريضة[37]. ساعدهم على ذلك عوامل كثيرة أهمها الحرية الفكرية التي عاشوا في ظلالها، والاحتكاك مباشرة بالحضارة الغربية، واستعدادهم لهضم الثقافة الأوروبية والإيمان بها، والتحرر مما علق بهم من تقاليد شرقية بالية، ومن تقاليد جاهلية قاسية.

ولا بد من القول أن الأدب العربي الحديث عامة ما زال يلتمس طريق التحرر تلمُساً، وما زال أربابه وحملة المشاعل فيه يعانون آلام الكبت والعنت للوصول به إلى الهدف، فأكثرهم لا يعيشون في أجواء حرة طليقة. أما أبناء الطليعة فهم أولئك الذين استطاعوا أن يتحرروا، ويطرحوا التقاليد والعادات، جانباً فحاربوا الاستسلام، وكافحوا في سبيل حياة أفضل من حياة أجدادهم، وعبروا عن تأملاتهم الحرة فبحثوا عن الله جل جلال، وعالجوا في شعرهم مشاكل الروح والنفس والحياة والوجود والجمال والكمال والفن والحقيقة والحب والسعادة والإنسانية والوطنية والحرية، والدين والموت والخلود ، وجعلوا هذه القيم الروحية مواضيع لقصائدهم، مؤمنين بها منادينا بإله جديد هو الحب والمعرفة، ورسول جديد هو الإنسانية[38].

إن الشعراء المفكرين يبحثون عن الداء المتأصل في جذور البشرية، ويتساءلون عن الدواء لإحياء الإنسانية في كل قلب وفي العالم بأسره حتى تصبح ديناً عالمياً، ويقرؤون بأن العالم اليوم مضطرب، حائر يحتاج إلى نبي جديد، والنبي الجديد في رأيهم، هو الإنسانية التي تشيع في الدنيا العدل والمساواة والإخاء، والتي تنشر السلام، والاطمئنان ليعيش كل فرد سعيداً، مطمئناً، فلا يخاف العوز ولا المرض[39].

فاليد الإنسانية هي يد الله المقدسة الأزلية، المطلقة، التي تساوي بين جميع الأجناس والألوان والأمم، وهي التي تسعى دوماً في سبيل حياة أفضل، ومثل عليا، يتمتع بها كل بشر على سواء.

ولعل خير طريقة لبث روح الإنسانية بين الناس جميعاً تكون عن طريق المربين الذين يعنون بتربية الروح والفكر والقلب، وهم يهتمون بإثارة حسب الإخاء والمساواة والعدل، ليس بين أفراد الأمة الواحدة أو الطائفة الواحدة وحسب، بل بين أفراد الناس

---

[37] سالم أحمد الحمداني، الأدب العربي الحديث، ص 45.

[38] ماجد أحمد السامرائي، التيار القومي في الشعر العراقي، ص 44.

[39] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، ص 32.

جميعاً وأفراد العالم بأسره، وهم مدعوون لدعم الشعراء والفنانين الذين يحرقون نفوسهم لينيروا السبل المظلمة دون إعطاء الحلول والنتائج والوعظ والإرشاد[40].

غير أن الشعراء يتشائمون عندما يتأملون في الحياة الواقعية اليومية، فيروا الظلم والفقر والتخاذل سارياً في نفوس قومه، ويرى الاضطراب سائداً في بلاده فيتألم، إنما هذه الحقيقة الواقعية لا توقفه عن إيمانه بالإنسانية إيماناً كلياً، والمناداة بها ولو كلفه غالياً، لأن الشاعر من طبيعته أن يبحث عن عالم كامل حيث العدل والسلام، والشاعر يهوى الإنسانية، ويهوى السلام الذي تعيشه بين السلام. أما التأمل في المواضيع المعنوية والقيم الروحية فموضوع بحثنا هذا. وقد ذكرنا سابقا أن فهم أدباء العرب المحدثين للأدب، يتفق وفهم أدباء الغرب، واتضح لنا أن أدباء العرب قد تأثروا بأدباء الغرب، لا سيما بمذاهبهم الأدبية ومقاييسهم النقدية، فاتفق جميعهم على أن الأدب الحقيقي هو الأدب الخالد العالمي الذي يعالج مواضيع روحية وإنسانية يشعر بها كل إنسان في كل زمن ومكان. وما سواه فهو أدب متغير أو ثابت يتطور بتطور البيئة، وانتقال العصر. فالأدب الذي يحملنا على أجنحته ويرفعنا إلى ما وراء المادة هو الأدب الخالد الصحيح الذي يتغنى دوماً بقلب الإنسانية، فيشارك كل إنسان ذلك الغناء الأزلي. فهل في شعر القرن العشرين أدب خالد أزلي؟ هل للشعراء المحدثين نصيب منه؟ وما هي القيم الروحية والإنسانية في الشعر؟ ومن هم الشعراء العراقيون الذين عاشوا في فترة التطور وانبثاق الشعر الحديث، والقيم الروحية في الشعر العراقي الحديث؟ في الصفحات التالية عرض شامل للقيم الروحية والإنسانية كما تظهر في الشعر العربي الحديث والشعر العراقي الحديث...

[40] يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 51.

الفصل الاول

1. ماهية القيم الروحية
2. القيم الروحية في الشعر
3. القيم الروحية في الشعر العربي القديم

1. ماهية القيم الروحية :

فتح الإنسان عينه فرأى نفسه في حضن الطبيعة، تكتنفه الجبال والبحار، وتعصف به الأمطار والرياح، فيمد يديه يلمس ما حوله حتى إذا كان الليل غفا، وإذا كان النهار قام يسعى، يأكل ما تخرجه الأرض، ويشرب ما تكبسه السماء. وكانت فصول السنة تنتقل به من صيف إلى خريف، ومن خريف إلى الشتاء، من شتاء إلى ربيع، وكان هذا التحول تارة يرضيه، وتارة يغضبه، تارة يملأ قلبه غبطة وسروراً، وأخرى رعباً وخوفاً، فأخذ يشعر أن الطبيعة مسكونة بشيء غير المادة التي يحسها ويلمسها وتأكد له أن وراء الطبيعة شيئاً غير منظور، يحرك الأكوان ويسبب ظواهرها المرعبة. "ولكن ماذا عساه أن يقول عن ظواهر الكون لكي يرضي خياله الساذج الغرير سوى أساطير ينسجها له الخيال فيرويها لتكون له عقيدة وأدباً وعلماً"[41]. كرت عليه السنون وهو يبحث بعينه ويديه عن قوى الطبيعة ليرمي على كلها مسؤولية الحاكم الأكبر، فأوحت إليه المادة أن يبحث ويبحث، حتى إذا كد وتعب، رجع إلى المادة معتصماً بها. وكان اليوناني أول من شعر بحريته الإنسانية[42]، وقوته وعقله فراح يتأمل في الفضاء ، ملقياً على الكون وظواهره الغامضة قبساً من نوره، فطوراً كان يبحث وجود المادة، وينفي وجود الروح، وطوراً آخر كان يتحرر من المادة ليتمسك بالروح[43]. حتى إذا فشل رجع مرة أخرى إلى المادة يستمد منها أملاً آخر.

لذلك نرى في جميع أطوار الفكر اليوناني أن المادة التي منها الوجود هي الموحية ويرتفع عن المادة في ماهيته. وقد مر الفكر اليوناني في أدوار ثلاثة، واحد قبل سقراط، وثان في عهده، وثالث بعد أرسطو[44]. وفي جميع هذه الأدوار كان الصراع مستمراً بين المادة والروح.

---

[41] أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، القاهرة 1935م.، ص 13.

[42] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، القاهرة 1936م.، ص 20.

[43] نفس المصدر، ص22.

[44] إسماعيل مظهر، فلسفة اللذة والألم، القاهرة 1937 م. ص 34.

وقد قام مفكرون اليونان في الدور الأول يتأملون في الطبيعة، باحثين عن أصلها وكنه وجودها، فرأوا في المادة الكون ووجوده، وفي الماء والحرارة والهواء أصل وجود الكائنات كلها[45]. ولكن الفكر اليوناني لم يقف عند هذه الفلسفة المادية بل تخطاها قليلاً إلى عالم الروح، فكانت المدرسة الفيثاغورية وهي ذات نزعة صوفية روحية، تمجد الروح، وتحيا حياة الزهد والتقشف[46]. تلتها المدرسة الأيلية التي قامت تبحث عن الروح واحدة أو إله واحد "لأن الكمال لا يتعدد وهو لا يشبه البشر في الصورة أو في نوع التفكير، كله عين، وكله أذن، وكله عقل[47]. ولم يلبث الفكر اليوناني في هذا الدور بين مد وجزر حتى رجع إلى المادة يمجدها فكان المذهب الذري الذي يرى الوجود مكوناً عن ذرات تتصل وتنفصل[48]. ثم طغت على اليونان المدرسة السوقسطائية التي تستطيع أن تجيب على كل سؤال، وعن كل ما يسأل، فأصبح الإنسان هو المقياس الأول لكل شيئ، وحاز بذلك على التفاتة المفكرين. حتى إذا جاء الدور الثاني انحصر الاهتمام في الإنسان، لا في ما حوله من مواد، لأن الإنسان لغز، ويجب أن يحل هذا اللغز، ولأن للإنسان قيمة في الحياة، ولعقله المكان الأول، فهو يفكر تفكيراً حراً، ويبحث عما يشاء[49].

حاول سقراط (ت469 ق.م) أن يبحث في حقيقة النفس البشرية، ويسعى يعرف نفسه بنفسه، واشتهرت عنه هذه العبارة: "اعرفِ نفسك بنفسك"، التي رفعت قيمة الإنسان، وعززت مكانته، فقام يبحث في أعماقه، ويتأمل في وجوده، وطرح الطبيعة وما فيها لأنه شعر أن الإنسان أرقى الكائنات، يستطيع بعقله أن يتوصل إلى المعرفة التي هي فضيلة بحد ذاتها. وهكذا "رد سقراط الفلسفة إلى مجرد تأمل أو بالأحرى مجرد نظر في حياة الإنسان الباطنية، أو النفس الإنسانية[50]. وبعد زمن تمخض الفكر اليوناني في سيره هذا عن شاعر فيلسوف هو أفلاطون (ت426 ق.م) الحكيم، جاء يبحث عن الحقيقة بواسطة المثل، ويحاول أن يدرس مجدها في عصره، وقد قال

---

[45] أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، ص 15.

[46] نفس المصدر، ص26.

[47] نفس المصدر، ص 41.

[48] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 9.

[49] نفس المصدر، ص 12.

[50] إسماعيل مظهر، فلسفة اللذة، والألم، ص 44.

أفلاطون أن المعرفة "تصعد من المحسوس إلى المعقول وتخضع الأول للثاني[51]. وقد جاء بعده أرسطو، وقرب المادة إلى الروح. فامتزجت الناحية الطبيعية بالناحية الذاتية.

وفي الدور الثالث، سادت "على الفلسفة النزعة الذاتية، دون الموضوعية، فإن الرواقيين –stoics– والأبقيوريين –Epicureans– قد شغلوا بالإنسان ومصيره."[52] ولم يقروا وجود حقيقة إلا عن طريق حواسه، "فأصبحت الحياة العملية وحدها هي المقياس، فلا يأبهون كثيراً في القيمة العلمية لذاتها إن لم تكن وسيلة إلى الحياة العملية[53]. فامتاز هذا الدور أيضاً "بانتشار الثقافة اليونانية في بلدان البحر المتوسط، فتعارف فيه العالم اليوناني والعالم الشرقي، وتأثر كل منها بالآخر، أو شارك الشرقيون، لا سيما الساميون منهم، في العلم والفلسفة، وقامت في الشرق حواضر علمية جديدة في مقدمتها الإسكندرية[54]. وبعد أحد عشر قرناً ثكلت الفلسفة اليونانية رجالها، وأقفرت اثينا من العلماء، كما أن الإسكندرية فقدت مكانتها، وقد تناول الشرق الفلسفة اليونانية ونقلها إلى العربية، ثم ترجمت الكتب العربية إلى اللاتينية، وذاعت في الغرب في القرون الوسطى[55].

وبدأ الفكر الإنساني يحيا "حياة جديدة أسسها إجلال العقل والحكم بعصمته[56]. وأصبح الإنسان هو الكائن الأعلى الذي يستطيع أن يعرف كل شيء بالتجارب والاختبارات. وبهذا امتزجت المادة بالروح، وعلى هذا الأساس قامت الفلسفة الأوروبية الحديثة وعلى رأسها رينيه ديكارت(ت 1650) (Rene Descartes) وفرانسيس بيكون(ت 1626) (Francis Bacon) وهب ديكارت يبحث عن علاقة الجسم والعقل أو المادة والروح، ليوفق بينها. أما باروخ سبنوازا (ت 1677) (Baruch Spinoza) فكان معموراً بروحانية الكون، مؤمناً بوجود روح كبيرة تلف

---

[51] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 8.

[52] إسماعيل مظهر، فلسفة اللذة، والألم، ص 34–35.

[53] أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، ص 327.

[54] محمد غلاب، المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، القاهرة 1948م. ص 44.

[55] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 275.

[56] محمد غلاب، المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، ص 50.

الكائنات كلها، ويؤمن أن الله حال في كل شيء، والله هو المحرك لكل شيء في الكون[57] .

وفي القرن العشرين انتصر الإنسان بآلاته واختراعاته، وقوى نفوذه، وسيطرته على الطبيعة، فأخذ يستخدم الآلة وسيلة لغرضه وراحته. وكانت الحرب العالمية الأولى دافعاً قوياً للإنسان لكي يبحث جاداً عن مواد جديدة، لتعزيز قوته الآلية، فساد في العالم القلق والاضطراب، والفساد الخلقي، وراح الإنسان يتمرد على النظم، والقوانين منادياً بحريته المنطلقة في أن يفعل ما يشاء ومتى يشاء[58].

نرى مما تقدم كيف تطور الفكر الإنساني من العصور القديمة منذ كان الإنسان إلى الفكر اليوناني ومن الفكر اليوناني إلى الفكر الأوروبي ثم إلى المدنية الحديثة، وخلال هذا التطور نجد الإنسان طوراً يمجد المادة وطوراً يمجد الروح، وأحياناً يمجدهما معاً. فكان الفكر يتقلب في تيارات جارفة وفي كل طور نجد أن رجال الفكر هم الذين يريدون دفة الحكم في العالم، فمن ثورات فكرية إلى ثورات اجتماعية وسياسية وإنسانية، إلى اتجاهات فنية وأدبية جديدة. من هذه الاتجاهات الجديدة في الأدب هي القيم الأدبية منها القيم الجمالية والوطنية والقيم الأخلاقية والقيم الروحية والإنسانية ومقاييس العاطفة، وتلك القيم تفتح عيوننا على مدى عمق الجانب الروحي عند الإنسان، وتكشف لنا عن عمق العوامل الفعالة في سيادة هذا الجانب من حياة الإنسان، لما هو مركوز في كيان البشر من تأصل الفطرة الدينية.

وعلى هذا الأساس فإن القيمة الروحية هي الإنسان بروحه ترجمان عن الذات الإلهية، وهي خليقة بالتوحيد والعبادة، والسجود والتمجيد، والإنسان المفكر، أو الإنسان الواعي برسالته في الحياة المؤمن بكينونته لا يحتاج إلى أحد كي يأخذ بناصيته إلى القيم الروحية، ويفتح عيونه على ملكوت الله، لأن في سفر الطبيعة إخباراً، وفي قلب كل إنسان صومعة له[59]. وإلى جانب القيم الروحية لا بد من القيم الإنسانية وقد تكون قيمة إنسانية في أبعادها واتجاهاتها، وهذه القيمة الإنسانية ولا شك ثمرة من ثمرات الأديان السماوية، وما تولد عنها فلسفات لا تعرف حدوداً، ولا تقف

---

[57] أحمد لطفي السيد، تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ص 78.

[58] نفس المصدر، ص 78.

[59] محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، القاهرة 1978 م. ص 20.

الأجناس ولا الألوان ولا الأوطان حائلاً دون إشراقها وتوهجها، فهي في أعمق أبعادها شجرة (المبادئ أو الحقوق الإنسانية) والتجرد من الأثرة والأنانية، تلك الشجرة تسقي بماء العدل والمساواة والحرية والإخاء والتعاون، فتجدد معالم الحياة وأوضاعها، وتقوي أواصر الخير والمحبة، من غير اعتبار لطبقة ولا لون ولا حسب ولا نسب ولا غنى ولا جهل ولا ثقافة، فالإنسانية لا تعرف الحدود، ولكن تعترف بالناس جميعاً. الجامعة الإنسانية هي أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان وأعلقها بفؤاده، وألصقها بنفسه.

وهناك ارتباط قوي بين القيم الروحية والقيم الأخلاقية فإن قيمة أخلاقية من ناحية الفضائل، والمثل العليا، قد كان للعرب القدامى مقاييس في أنماط الفضيلة والمثل العليا، فهي الخير، والعدل، والتواضع، والصدق، والتقوى، والشرف، والعطاء، والشجاعة، والمشاركة في المنشط والمكره[60].

والعاطفة أيضاً لها صلة بالقيم الروحية وتتراوح مقاييس العاطفة صدقاً، واستمراراً، وقوة، وسمواً، فكلما كان الباعث مغلقاً بالسمو، ومبطناً بالإخلاص كان الصدق العاطفي في أوج قدراته، فلا كذب ولا رياء ولا تكلف، حتى أثر عن القدامى هذه الكلمة الخالدة: "وما خرج من ينبوع القلب، استقر في القلب"[61]. فهناك في رأيهم طرفان: منتج ومستقبل، والمنتج هو الأديب، والمستقبل هو القارئ. حقيقة قد تستمر العاطفة الحزن أو الفرح، فتسري في أوصال القصيدة أو المقالة أو القصة روح الحزن أو الفرح مثلاً، أما أن تظل ثابتة في درجة قوتها من الكلمة الأولى إلى الكلمة الأخيرة، فذلك يستحيل من ناحية السيكولوجية والتطبيقية، لأن العاطفة دفقات، أشبه ما تكون بموجات البحر. أما المواضيع الروحية التي يعالجها الأدب ليست إلا مواضع إنسانية، يشترك بها كل إنسان، ، كالمَحَبَة والعَدل، والإخاء، والمَساواة، والسَعَادة، والحَقِيقَة، والكَمَال، والجَمَال، والرُوح، والنَفس، والحُب، والمَوُت، والحَيَاة، وغيرها. وبهذه القيم الروحية فقط، يكسب الأدب عالمية وخلوداً. فالقيم الروحية تقرب أرواح البشر بعضها إلى بعض بالرغم من الحدود الطبيعية والاجتماعية

---

[60] أيليا الحاوي، في النقد الأدبي، بيروت 1979 م. ص 78.

[61] محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 22.

والسياسية.[62] لولاها لكان الأدب محدوداً، يتيماً، يعيش لعصر من العصور ولفئة من الناس، يفنى ويطويه العدم.

وقد اتفق أدباء العرب والغرب على أن في الأديب إحساساً مرهفاً، وإدراكاً عميقاً، يرتفع عن الإنسان العادي، يقترب من الخالق البارئ، وأن الشعراء يحملون رسالة المثل العليا إلى البشر، ليهديهم، ويرفع نفوسهم إلى الملأ الأعلى[63].

إن الأدب الخالد هو الأدب الذي يغوص في أعماق النفس البشرية، وفي أعماق الطبيعة، ليحل غوامضها وأسرارها، باحثاً دائماً عن الحقيقة الكبرى، وعن الكمال والجمال والخير، ليقرب الناس بعضهم إلى بعض تحت لواء المحبة الإنسانية الشاملة، ويقدم للبشرية سعادة روحية، وأدباً روحياً، يتصل "بالعواطف السامية عن الإنسان، فيهذبها ويرقيها ويغذيها، فأدب الروح ينبعث عن النفس، كما ينبعث صوت البلبل عن نفسه، ويدل على صاحبة كدلالة ضحكة البريئ"[64].

فالأديب لا يعرف الغش ولا الخداع، كما أنه يجرد المادة ليخلدها في عالم السَمَاوات، ويجسد المجردات ليقدمها قرابين لاطمئنان الإنسان الروحي، فبذلك يكون رسولاً للقيم الروحية وتعزيزها، يبحث دائماً عن الله جل جلاله ليرقى إليه، ويقود البشرية إلى الأخلاق السامية، والمبادئ القويمة. إذاً فإن الأدب الحقيقي هو الأدب الإنساني العالمي، الذي يهز كل قلب ويرفع كل نفس إلى الملأ الأعلى لتشترك بالنشيد الأزلي[65]. وكما قلنا فإن مِثْل هذا الأدب يهتم بالبحث عن غوامض النفس البشرية، وعن أسرار الكون، فينقلها إلى رفاقه، لترتاح نفوسهم وتطمئن قلوبهم. ومثل هذا الأدب لا يعالج إلا مواضيع روحية، وهذه المواضيع لا تكون إلا بعد تأمل روحي عميق، وتجارب نفسية تبحث عن الله، والروح والنفس، والسعادة والخلود، والموت والحياة وغيرها...

فأين تظهر هذه القيم في الشعر العربي؟ هذا ما نحاول أن نجيب عنه فيما يلي.

---

[62] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، بغداد 1975 م. 32.

[63] سالم أحمد الحمداني وفائق مصطفى أحمد، الأدب العربي الحديث، بغداد 1987 م. ص 23.

[64] أحمد أمين، فيض الخاطر، القاهرة 1938 م. ص 83.

[65] أيليا الحاوي، في النقد والأدب، ص 31.

2. القيم الروحية في الشعر:

يعكس لنا الشعر عقلية الأمة التي يظهر فيها، ويبنى النقاد فهمهم على النتاج الشعري نفسه، فيسير شعراء ذلك العصر على طريق واحد، محافظين على المقاييس الشعرية المعهودة. وقد كان الشاعر الجاهلي يتوخى لأغراض الشعر ومذاهبه، حتى إذا سئل أحدهم أن يحكم في الشعر، لم يتجاوز النظر إلى تلك الأغراض والمواضيع، فيصدر حكمه الشامل الذي يقوم على التأثر والانفعال الفطري. والشعر الجاهلي قائم على الإحساس المادي، يصور الشاعر فيه ما يرى كما يراه ويلمسه، فلم يتجاوز هذا الشعر حدود المادة، كما أن فهم الشعر لم يتجاوز هذا الحد الذي يقوم على خطوات، وأراء أكثرها لغوية[66]. هكذا ظل الشعر العربي حتى امتد سلطان الإسلام بالفتوحات، واحتك العرب بغيرهم من الشعوب المتمدنة، فأخذوا عنهم، وتأثروا بهم. وعندما اتسعت آفاقهم، خطا النقد نحو الطور تأليف خطوة بارزة، وأصبح للنقاد مؤلفات في الشعر والشعراء، وكان ذلك في العصر العباسي حين دخلت عليه عناصر جديدة، أثرت في الشعر العربي وفي مجراه، بذلك تقدم الشعر العربي وتقدم فهم الشعر، غير أن فهم الشعر لم يخط خطوة بعيدة عن المرئيات والمحسوسات، ولم يهدف إلى مرتبة علية مجردة، بل ظل محصوراً في اللفظ والصور البيانية الحسية. وقد انفلت قليل من الشعر حيناً من فهم النقاد، محلقاً مع الفلاسفة وشطح مع الصوفيين وغاص في أصقاع النفس القائمة[67].

لقد انتشرت العلوم والفلسفة في العصور العباسية، وأصبح الشاعر مطلعاً على علوم عصره، بعد أن كان مكتفياً بخبراته الفردية.

وقد جاء في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة: "إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد لفن من العلم، وإذا أردت أن تكون أديباً، فخذ من كل شيء أحسنه"[68]. وهكذا كان معظم الأدب القديم جامعاً شاملاً شتات العلوم والمعارف. وأما الشعر –كما قال ابن سلام– فله "صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما

---

[66] إبراهيم السامرائي، لغة الشعر بين جيلين، بيروت 1980 م. ص 5–6.

[67] يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 9.

[68] ابن قتيبة، عيون الأخبار، القاهرة 1928 م. ج2، ص 129.

تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان"[69]. وبذلك تشترك الحواس كلها في صناعة الشعر، فترى العين ما لا يرى، وتسمع الأذن ما لا يسمع، وتجيد اليد في حبك الحروف والكلمات، ويغرد اللسان بالسحر والبيان. والشعر عند العرب ضروري للرجل الكامل: أما الكامل فهو كما قيل: "الرجل الذي يكتب ويحسن الرمي ويحسن العلوم ويقول الشعر"[70].

وقد اعتبر الشعر عموماً كما أشار إليه قدامة بن جعفر أنه: "قول موزون مقفى، يدل على معنى"[71]. فالشعر عند العرب صناعة، يجب أن يتوخى فيها الصانع التجويد والكمال، مهما كان المعنى من الرفعة والصنعة. وفي الشعر مادة، وفيه معنى. وقد شبه قدامة بن جعفر الشعر بالصناعة التي تحتوي على مادة ثم على صورة لتلك المادة.[72] ونحن إذا قرأنا الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، لا نجد فهماً جديداً للشعر، لأنه يقيسه بمقياس الوزن، والقافية، ثم يأخذ المعنى الذي يقوم على التشابه والاستعارات الحسية، ويقارن هذه الصور بين الشاعرين المذكورين. وما الشعر المبرز عن الجرجاني (ت473) فهو الذي "يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان"[73].

إن الشعر يروي لنا إنسان العرب، وتاريخهم، وأيامهم، ووقائعهم. والشعر هو محمدة الأدب، وعلم العرب اختصت به دون سائر الأمم[74]. وقال العسكري عن الشعر أنه: "ديوان العرب وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها"[75]. وله مراتب عالية في موسيقى الألفاظ وجمالها ومن مراتبه العالية التي ذكرها، "النظم الذي به زنة الألفاظ، وتمام حسنها، وليس شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر"[76] .

---

[69] محمد ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، القاهرة بدون تاريخ، ص6.

[70] ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص 4.

[71] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، القاهرة 1948 م. ص 3.

[72] نفس المصدر، ص 3.

[73] أبو الحسن الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، لبنان 1331 هـ. ص19

[74] الثعالبي ،يتيمة الدهر، دمشق 1303 هـ. ج. 1 ص 2..

[75] ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، الآستانة ، 1320 هـ، ج1 ، ص73

[76] نفس المصدر، ص 1-2.

وأما بنية الشعر عند أَبن رَشيق القَيرَواني (ت456هـ) فهو "اللفظ والوزن والمعنى والقافية"[77] معاً، ويجب أن تكون صنعة الشعر جيدة، وبنية مكينة. فاللفظ عند أبن رشيق كالجسم، والمعنى كالروح فاذا اختل احدهم كانت بنية الشعر ناقصة ،وكما ان الجسم والروح معاً ضروريان للحياة، كذلك اللفظ والمعنى معاً ضروريان للشعر ولا يحيا أحدهما دون الآخر. وفي ذلك قال : "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه، كارتباط الروح بالجسم، ويضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ، كان نقصاً للشعر"[78]. والشاعر ذو خيال مبدع، يعّبر عن أحاسيسه وشعوره، لا يحتاج إلى التأمل الفكري العميق لأن العلم –على قول الجرجاني– "المستفاد من طريق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع، وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام"[79] .

رأينا مما تقدم أن العرب القدامى فهموا الشعر على ضوء الألفاظ والمعاني البيانية والصور الحسية، حتى أننا لا نسمع عند ابن خلدون تعريفاً جديداً للشعر، فالشعر عنده هو "الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية"[80]. وينبغي على الشاعر أن يجيد علم العروض، وغريب اللغة، وأن يبدع التشابيه والاستعارات الحسية، وأن ينتقي ألفاظاً تؤدي إلى المعنى المطلوب، وأن ينقح ما ينظم حتى يكون قوي المبنى والمعنى، فإن شل أحدهما ساءت الصنعة، وكان يقال إن "خير الشعر ما رواك نفسه، ويقال أيضاً خير الشعر الحولي المنقح المحكك"[81].

وقد اعترف الجرجاني بطريقة غير مباشرة أن خير الأدب ما حرك الأخلاق، ونشط العقل، وأبرز العواطف الإنسانية[82]. لذلك اعتبرنا عبد القاهر الجرجاني أول من اهتم بالأدب من الناحية الروحية والإنسانية.

---

[77] ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر 1955، ص 73.

[78] نفس المصدر، ص 80.

[79] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، مصر 1320 هـ. ص 220.

[80] ابن خلدون، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، لا ت. ص 566.

[81] ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج: 2، ص 129.

[82] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان ، ص 9.

من طبيعة الشعر أن يكون حراً طليقاً فهو كالفنون التي لا تزهو ولا تترعرع إلا على الحرية الطليقة المبدعة. والشعر يهدف دائماً إلى المثالية، وإلى الحكم، وفي ذلك يقول نيومن (Newman) كما قال قبله أرسطوا، إن الشعر يمدنا بالمثالية[83]. فالشاعر يرى الكون كلاً ويشعر بما فيه، ينقي الروح ويخلدها، فلا غريب لديه، لذلك يكون أدبه أدباً عالمياً خالداً، ويقول جيرارد (Guerard) أن جوتيه (Goethe) (1749-1832) هكذا كان. وجوتيه هو الذي اَعتَبر كنز الإنسانية تراثاً عالمياً، فأطربته القطع اليونانية القديمة، كما أطربته الفرنسية الحديثة، والإيطالية والإسبانية والإنكليزية كلها على السواء، والأدب هذا إنساني، عالمي، وهو جسر في الخليج العريض الذي يقوم بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية[84]. فيقرّب الشقة بينها.

والشعر يحمل بين ثناياه الحق والجمال والخير، وعلى ضوء هذه العناصر يجب أن يدرس الشعر، وإن قصر في أدائها[85]. لأن الأدب في الواقع، على قول بيورل (Burril) مفتاح القيم الروحية، وقيمة الأدب في إنسانيته ووحيه وإلهامه[86]، والشاعر يبحث دوماً عن الحقيقة، فيحتضن الطبيعة، ويبحث فيها عن الجمال ليصيده، وعن القبيح ليجمله، ثم يرفع النفس البشرية فوق المادة لتحيا، فينبض له كل قلب، ويهتز له كل وتر. وينبغي على الشاعر أن يتم عمله الروحي هذا بكل قلبه وعقله وروحه فالشاعر ذو قلب مؤمن، وعقل راجح، وروح خلاقة مبدعة، يحرك شعور الإنسان ويدفعه إلى النشاط المستمر.

وفي شعر مراتب عالية، كلها ترتكز على الاختبار الروحي، والاختبار الروحي هو الذي يكتشف معالم جديدة في عالم الفكر والخيال. ومن مراتبه العالية أيضاً أن ينشد الشعراء روح الفضيلة والخلود، والحقيقة والجمال وأن يرتقوا "عن المادة الباردة إلى الملأ الأعلى، فيرتوون من منابع الوحي الخفية، ويقودون البشرية إلى ما هو أسمى من المادة، وأعمق من الظواهر الطبيعية"[87]. وأهم عنصر في القيم الروحية في الشعر أن يكون الشعر "الذي يتناول أسمى ما تقدمه الطبيعة للبشر، فينشئ منه هياكل

---

[83] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 9.

[84] نفس المصدر، ص 20.

[85] نسيب عازار، نقد الشعر في الأدب العربي، بيروت 1939م. ص 32.

[86] رؤوف خوري، الفكر العربي الحديث، بيروت 1943 م. ص 45.

[87] روفائيل بطي، سحر الشعر، القاهرة 1922 م. ج 1، ص 211.

مقدسة لعبادة الفضيلة، والجمال، والحق، والعدل، والخير، والشر، والروح، والنفس والحب، والموت، والحياة"[88]. فهل يستطيع الإنسان أن يقول الشعر وفي فمه التراب؟ وفي ذلك يقول جبران: "أيستطيع الإنشاد من يملأ فمه تراباً؟"[89]. فالشعر يتمطى دائماً ليلامس الذات الكبرى، وهو في طبيعته على قول ميخائيل نعيمة، ذات الروحية "تتمدد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالمية. وبالإجمال فالشعر في القيم الروحية هو الحياة باكية وضاحكة، وناطقة وصامتة، ومولولة ومهللة، وشاكية ومسبحة، ومقبلة ومدبرة"[90]. والشعر الحقيقي هو "نظرة ثاقبة إلى ما وراء الحياة الدنيا – إلى الملأ الأعلى– عالم المبادئ السامية والنظامات الروحية والإنسانية"[91]. وهو "الجزء الروحي من كل الإنسان، والقبس الإلهي في كل قلب، والخصيصة الإنسانية التي تميز بها آدم من كل حي"[92]. والشعر أيضاً هو "التعبير عن الحياة وغرضه إدخال السرور إلى القلب، ومساعدة الإنسان على فهم نفسه وحقيقتها"[93]. وعلى هذا الأساس نرى أن للشاعر روحاً تختلف عن روح الإنسان العادي بمعناها المجازي، وله رسالة في حياة، ورسالته "تعلمنا كيف نفهم كل شيئ، ونستفيد من كل شيئ، باحثين عن الصواب والجمال والكمال خلال كل نقص وكل زلل، نازعين إلى الجمال الحسي والأدبي حيال كل دمامة خُلقية وخَلقية، مساجلين النفوس والعناصر، مناجين المنظور وغير المنظور، لنجعل من حياة متناثرة متداعية، حياة متناسقة، متماسكة"[94]. فنتعالى من حياتنا العادية ونتحرر من قيودنا المادية ونسمو إلى عالم روحي كله طمأنينة وغبطة. والشاعر يدرك الكون ويحسه، فينقل إلينا إدراكه وإحساسه، وهو على قول جبران (ت1931) (الوسيط بين قوة الابتكار وبين البشر وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم الحب وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين)[95]. فيثير النفوس، ويجعلها تشترك معه وفي الشاعر نفس قوية

---

[88] روفائيل بطي، سحر الشعر، ج:1، ص 213.

[89] جبران خليل جبران، الكلمات، القاهرة بدون تاريخ، ص 213.

[90] ميخائيل نعيمة، الغربال، القاهرة، 1946م. ص 66.

[91] أنيس المقدسي، الذكر لتتسون، بيروت 1925 م. ص 16.

[92] أحمد حسن الزيات، في أصول الأدب، القاهرة، 1946 م. ص 3.

[93] جميل سعيد، اتجاهات الأدب الإنكليزي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، القاهرة 1949 م. ص 7.

[94] مي زيادة، رسالة الأديب إلى الحياة العربية، بيروت 1938 م. ص 15.

[95] جبران خليل جبران، الكلمات، ص 80.

كبيرة، تبرق من حين إلى حين، لتضيئ الزوايا المظلمة في الكون، وتهدي البشرية المعذبة.وهذه النفس لا تدركها إلا النفوس أمثالها، كما أن الشعر "روح لا تدري من أين تطالعك، روح لا تدركها إلا الأرواح"[96].

وهناك من الشعراء من يقر بالمنطق، ويقدس العقل، غير أنه ييأس من الحياة، فلا يجد نفعاً من العلم والحكمة، لأن الموت أقوى القوى، وهل يستطيع إنسان أن يقف أمامه صامداً؟ ولعل أبا العلاء المعري (ت449هـ) هو الشاعر العربي الوحيد الذي أكب على الفلسفة باحثاً فيها، متعمقاً، متأملاً في الكون وفي الوجود، وقد أودع أبو العَلاء المَعَرّي في لزومياته آراءه التأميلة في الحياة، وهو الشاعر الذي دوَّن لنا اختباراته النفسية بعد أن اطلع على الدين والفلسفة والعلوم، وعرف أخلاق الورى ودياناتهم، ومذاهبهم، فنقد المجتمع نقداً ساخراً، لاذعاً، بعيداً عن عُبُودِيَّة القصور وعن حياة الملق الصاخبة[97].

وقد آمن أَبو العَلاء المَعَرّي بوحدانية الله جل جلاله، وبأن الله جل جلاله قد انفرد بالسلطان، فلا مثيل له. وهو عليم بكل شيئ، والله أزلي قديم، مهيمن لا يتغير فقال في وحدانية الله جل جلاله:

توَحِــد فـــإِنَّ اللهَ رَبكَ وَاحِد وَلا تَرغَبنَّ فـــي عشرة الرُؤَسَاء

***

اِنْفَــرَدَ الله بِسُـــلْـــطَـــانـــه فَما له في كُل حَـــال كَــــــفـــاء[98]

ان الله جل جلاله خلق كل شيء، وقد خلق الله الإنسان، وصاغ له روحاً، وخلق الجمال، وجعل الوجود جمالاً رائعاً ولغزاً عميقاً. كل إنسان شاعر يدرك ذلك الجَمَال والحُسن البَديع، ويدرك أن صانعه إله جميل، وأملاه على الشعراء، والله جل جلاله مرشدهم، فأشار الشعراء في أشعارهم أن الله جل جلاله موجود في كل كائن، وحال وفي شيء، هذه نظرية الحلول التي ترى الله جل جلاله في كل شيء، فهو في الإنسان كما هو في النَبات والحِيوان والصَخرة والغَدير، وهو يشيع الإيمان والمحبة

[96] محمد مندور، في الميزان الجديد، القاهرة 1944 م.، ص 68.

[97] سامي كيالي، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، القاهرة 1943م. ص 46.

[98] نفس المصدر، ص 59.

في القلوب، والمعرفة في العقول، فتسكن الروح ويعتريها ورع وخشوع. فلا عجب إذا أحب الإنسان الطبيعة، وشملها بمهجته وعطفه، ولا عجب إذا فهم الإنسان الطبيعة، وحل ألغازها، وتكلم بلغتها، وترجم حركاتها، وبين الإنسان والطبيعة شبه واضح، فكلاهما مستمد روحها من الروح الإلهية، وكلاهما مقدس، أما الإنسان فإن أقرب كائنات الله جل جلاله، لأن الله جل جلاله قد منحه إدراكاً، وفهماً، فكان بينهما شبه عظيم. كلاهما يجيدان الإبداع فيشملان الطبيعة جمعاء بالحب والمعرفة، حتى يصبح الإنسان محباً للمعرفة من أجل هذا القبس الذي وضعه الله فيه. ويقول أحمد الصافي النجفي :

احبُ التَغَلْغُل في كُــل أَمر كأَني كونتُ مِنْ كل شَيْء
كــأَني بِرُوحي رُوح الإله تُحب جَماداً ومَيتاً وحَي[99]

ونَجِد إلى جانب هذه القيم الروحية مواضيع روحية أخرى وهذه المواضيع لا تكون إلا بعد تأمل روحي عميق، وتجارب نفسية تبحث عن الروح والنفس، والسعادة والحب والإنسانية وما فيها من عدل ومساواة وإخاء، والجمال والكمال والحقيقة والحرية والخلود، والموت والحياة وغيرها... وهذه القيم الروحية في شعر تختلف من عصر إلى عصر وفي صفحات لاحقة سوف نشير إلى هذه الاختلاف بتفصيل.

إن الشعر كما بدا لنا سابقاً بمعناه العام هو الشعر الذي يهتم بإِنْسَانِيات الإِنسان. وقد رأينا أن التأمل العميق في ما وراء المادة، أو تجريد المادة والارتفاع بها فوق ماديتها إن معالجة القيم الروحية والإنسانية بلغة الشعر. هو ما نعني به في بحثنا هذا. وقد يكون في الأدب كما في الفلسفة، حرية في البحث والتحليل، غير أن هدف الأدب دوماً هو الإبداع والتطور، لإثارة المفكرين من فلاسفة وعلماء، وحثهم على الحرية المطلقة في البحث العميق والتحليل الدقيق.

فالشاعر الحقيقي يتأمل في الحياة، وما في الحياة من إِنسان وحيوان ونبات وجماد. ويتأمل في أغوار الإنسان، وما في الإنسان من نفس وروح وعقل وفضائل. ويتأمل في النفس وما فيها من سعادة وألم وحرية وجمال وكمال وحب وفضيلة

[99] أحمد الصافي النجفي، ديوان الأغوار، ص 7.

وإنسانيات أخرى. ويتأمل في الأكوان وفي بديع تناسقها، وجميل مناظرها، وفي ما وراء الأكوان باحثاً عن قوة عظيمة خالقة مبدعة. كل هذا يدور في خاطر الشاعر الحقيقي الخالد، فيرفع الإنسان بلغته الموسيقية، من عالم المادة إلى عالم الروح ويحرره من أوهاق التراب ليصعد به إلى السماء، ويخلصه من شقاء الأرض وعنائها، وينقله إلى عالم اللامرئيات حيث تطمئن روحه وتسعده.

فالشعر الروحي لا ينشأ إلا عن الحرية الذاتية، ولا يتغنى إلا بالقيم الإنسانية الخالدة التي ترفع الإنسان عن واقعه الراهن ليعيش خالداً بإنسانيته، ناشداً أبداً المثل العليا التي تكشف قيمة الإنسان.

فالقيم الروحية والإنسانية في الشعر، كما رأينا، ليس من الْكَمَالِيات، بل من ضَرُوريات الحياة، دونه على حد تعبير لوكس (Lucass) تكون الحياة بعين واحدة... وليس الشعر خزاناً للمثقفين وحسب، بل للإنسانية عامة. وأعظم الشعراء من سوفوكليس (Sophocles) (ت497) إلى شكسبير(1564)، ومن هومر إلى هارد (Hardy)، كانوا جميعاً معيناً، زاخراً للإنسانية[100]. وفي الحقيقة الإنسان نصفان – على حد قول أمرسون (Emerson)– نصف شخصه، ونصف تعبيره[101].

إن الشعر شعور الشاعرعن القيم الروحية والإنسانية والأخلاقية، فإن لم يكن شاعراً معبراً عن شعوره، فهو إنسان ناقص. فالشعر هو المعبر عن تلك الإنسانية عن الحب والموت، وعن الشوق والطموح. وقد وهب الشاعر روحاً تدرك وتفهم، وإن الشاعر قد وهب الله جل جلاله له ميزة لا إدراكها وفهمها.

---

[100] جورج ديهاميل، دفاع عن الأدب، ترجمة محمد مندور، القاهرة 1942 م. ص 46.

[101] نفس المصدر، ص 49.

3. القيم الروحية في الشعر العربي القديم :

كانت مناظر الطَبيعة تفزع الإنسان وتدهشه، وتملأ نفسه جمالاً وجلالاً، حتى يفيض لسانه بالصلوات والأناشيد، ومن ذلك "الشعر الديني، هو مبدأ كل شعر في كل أمة، ومن أقدمه أناشيد "رع" عند المصريين، وأناشيد "فيدا" عند الهند البرهميين وأناشيد "جالا" عند الايرانيين، وأناشيد "ارفيه" عند اليونانيين، وسفر أيوب عند العرب"[102].

وقد عرف عصر الجاهلية عند العرب، بعصر الشعر وعصر المعلقات. وكان للشاعر الجاهلي في قومه منزلة رفيعة، وقدر جليل. فهو لسان حال قبيلته، ينتصر لها، ويدافع عنها، ويموت في سبيلها، فإذا نبغ شاعر في قبيلة، أقامت له الولائم والأفراح، وتهافتت عليه الوفود من القبائل المجاورة مهنئة، مهللة.

وكانت وحدة الشعر الجاهلي، وهي قاعدة كلاسيكية يسير عليها، فمن وقوف على أطلال، إلى بكاء الأحبة، ومن وصف الديار الخاوية إلى وصف الناقة أو الفرس أو الحبيبة، أو منظر طبيعي يستهويه ويستوقفه إلى غير ما ترى عينه وتلمس يده. فالشاعر الجاهلي لا يصف إلا ما يرى، لذلك لم ترتفع قصائده عن المحسوس والمرئيات ولم تحلق فوقها إلا بعد تجربة عميقة عبر عنها في أبيات منتشرة هنا وهناك، وقد ظلت أجنحتها مشدودة بحبال قوية إلى الأرض، وبحبال أقوى إلى البيت فالبحر فالقافية.

وقد كان الشعر الجاهلي شعراً غنائياً، لا تتجاوز مواضيعه المديح، والهجاء والغزل، والرثاء، تتخللها الحكم التي تصف حالة الفرد في حادثة من الحوادث، لو لم تكن لما أَبِهَ لها وذكرها. وكانت المعلقات بمثابة مذكرات يعتز بها الجاهلي فيحفظها الأفراد في صدورهم، وهي أشهر قصائد العصر الجاهلي على الإطلاق، تعبر عن خشونة ألفاظ الشاعر تارة وعن نعومته تارة أخرى، أو تعبر عن فظاظة طباعه وانفعالاته الفطرية الثائرة أو عن لطيف معشره وأدبه[103]. وتُحدثنا عن أنساب العرب ووقائعهم وأيامهم، وحياتهم الاجتماعية والسياسية، وسذاجتهم العلمية.

---

[102] أحمد حسن الزيات، في أصول الأدب، ص 20.

[103] مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، بغداد 1977 م. ص 49.

ولَمْ يكن للشعراء الجاهليين حظ من الثقافة. ولمَّا جاءَ الإسلام، انشغل المسلمون عن الشعر بالخطب الحماسية، لحاجة الخلفاء إليها في بادئ الأمر، لكي يستتب السلام، وينتشر الإسلام، ولم يتعد أغراض الشعر الجاهلي ومواضيعه، لاقتراب العصرين بعضهما من بعض.

ولما امتد سلطان الإسلام، وآل الحكم إلى بني أمية، انتقلت معهم العاصمة من مكة إلى دمشق[104]، فاتسعت آفاقهم، ورقت طبيعتهم، وأحرزوا نصراً تلو نصر لكنهم رغم هذا لم يتأثروا كثيراً بغيرهم من الشعوب المغلوبة، ولم يأخذوا عنهم، لأنه العصبية العربية دفعتهم إلى التباهي والافتخار، فبلغت القومية العربية أوجها في ذالك العصر، واشتد احتقارهم بكل ما هو أعجمي. ولم يبتعد نظم الشعر عما سبقه، غير أن الهجاء استبد في هذا العصر، واتخذ صبغة خاصة، ظهر أثرها في النقائض والخصومات السياسية وقد كثر المجون والغزل والترف لتطور الحياة العربية في الحجاز أولاً ثم في الشام. ولم يكن للشعراء الأمويين حظ من العلم والثقافة إلا ما كانوا يعرفون عن قبيلتهم وآدابها، فكان الشعر قريباً إلى الطبع كما كان في الجاهلية وصدر الإسلام.

وعندما قامت دولة العباسيين، كان سلطان الإسلام يمتد بالفتوحات، وعاصمة الخلافة تنتقل من دمشق إلى بغداد، ويشتد اختلاط العرب بغيرهم من الامم، ويساهم الأعاجم في إدارة الدولة، ويقبلون على اللغة العربية، يدرسونها ويتعمقون فيها، وعلى الدين يعتنقونه، فعرف الأدب العربي عندئذ عناصر جديدة، لا عهد له بها من قبل[105].

ونبغ كثيرون من العلماء الأعاجم والشعراء والفقهاء، والمحدثين، فضعفت القومية العربية التي بلغت أشدها في العصر الأموي، واندفع العرب بدورهم يطلبون العلم، ويترجمون الكتب عن غيرهم من الأمم. وكانت هذه اليقظة الفكرية "إلى حد بعيد وليدة المؤثرات الأجنبية سواء أكانت هندية فارسية، أو سريانية هلينية، وهي

---

[104] مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص 52.

[105] جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد 1955 م. ص 68.

يقظة تميزت فيها حركة النقل من الفارسية والسنكريتية والسريانية واليونانية إلى العربية"[106].

وكان القرن الثاني الهجري مضطرباً غير مستقر، لأنه أول عهد العرب بالنقل والترجمة، والاطلاع الواسع على ثقافات غيرهم من الشعوب، ولأن الاختلاط أوجد بَلبَلة في الأجيال المهجنة، بين الأمة العربية وغيرها من الأمم التي سبقتها إلى الحضارة، فنشأت "أجيال ورثت إلى المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير الفارسي، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة، وفي الفلك والنجوم، وفي السياسية والعلم والفلسفة، وكان هذا كله مصدر تغيير قوي شديد في حياة النفس العربية[107].

وفي القرن الثالث الهجري، فقد استقرت الحياة العقلية. فالمجون لم يظهر في القرن الثالث الهجري كما ظهر جلياً بشعاً في القرن الثاني الهجري، ولم نجد ما نشعر به من الاضطراب والشك. أما الثقافات التي عرفت واستقرت في القرن الثالث فهي: الثقافة العربية الخالصة التي تعتمد على القرآن الكريم، وما يتصل به من علوم الدين، والشعر وما يتصل به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرهما، والثقافة اليونانية، والثقافة الشرقية التي كانت عند الفرس والهنود والأمم السامية[108].

وازدادت شغف بعض الشعراء في هذا القرن، ولا سيما في أواخره، بدرس العلوم والفلسفة، والتعمق فيها، والاختصاص بها[109].

بعد ان إنتشرت الدين والعلوم والفلسفة، وبلغت ذروتها، وظهر أثرها جلياً في نتاج الفكر العربي، في الشعر والنثر، ولما اكتسح المغول الإمبراطورية الإسلامية، اندثر الشعر، وخبا نور الفكر، لأن هذه القبائل كانت بربرية متوحشة، لا هم لها إلا التخريب والقتل والدمار.[110] أخذت الإمبراطورية الإسلامية تشيخ وتضعف، فتجزأت إلى ممالك عديدة، وأصبحت نهباً للغزاة والفاتحين وقد عظم فيها نفوذ الأعاجم وأصبح الخليفة العباسي آلة في أيديهم، وراح الشعر يمجد الله جل جلاله بعيداً عن

---

[106] فيليب حتي، تاريخ العرب، ترجمة جبور وجرجي، بيروت 1950 م.، ج 2، ص 380.

[107] نفس المصدر، ص 69.

[108] طه حسين، من حديث الشعر والنثر، القاهرة 1948م.، ص 86.

[109] أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة 1946م.، ج1، ص 143.

[110] نفس المصدر.، ص 42,

الفوضى والضوضاء، بذلك نشأ في ذلك العصر فن آخر عرف بالشعر الصوفي. ولا غرو إذا قل نتاج الشعر، لأن الشعر العربي اعتاد حياة القصور الأرستقراطية التي كانت تحميه من العوز والفقر. ولما تلاشت هذه القصور، وذهب أهلها، حل فيه الدمار، والتجأ الشاعر إلى الله جل جلاله، يحبه ويمجده ولم يجد نصيراً سواه[111].

أما في الأندلس فلم نسمع بالفلسفة إلا في القرن السادس للهجرة بعد أن منعة "معالم الفلسفة في الشرق، وسبب ذلك ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس، فإنهم قهروا حرية التفكير، وكفروا كل مُتَفَلسِف ومَتَمَنطِق"[112]. وقد امتد إليهم التصوف بواسطة رحلات المستشرقيين، فأخذوا عنهم آراءهم وقد اشتهر عندهم ابن عربي بشعره الصوفي الإلهي[113]. ولم تكن الصوفية ربيبة العصور العباسية، ولكنها اختمرت فيها، واتخذت طريقاً خاصاً بها. فقد كان محمد بن عبد الله، رسول الله (ص)، يعتزل في غار حراء، يمارس حياة الزهد والتقشف والتعبد، حتى يصل إلى أعلى درجة من التأمل الإلهي[114].

وقد تأثر الخلفاء الراشدون بتزهد الرسول الله (ص) ، وظهر التأثر في كل العصور غير أنه اختمر في العصور العباسية بالأفكار الهلينية، والفارسية والهندية، فأصبح حركة قائمة بذاته. وكانت هذه الحركة الصوفية "حركة معاكسة للنظر العقلي في الدين، وحصره في قوالب لا تتغير"[115]. فالصوفيون هم "محل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالباً، ومستأنفاً، وهم مع الله جل جلاله في انتقال من حال إلى حال (وأن الله جل جلاله) معهم أين ما كانوا، وأنه حاضر لا يغيب، وهو بكل مكان، لا يسعه مكان ولا يخلو منه مكان"[116] وبهذا دعوا إلى تقوى بالله جل جلاله. وقد اشتهر شعراء صوفيون يهيمون بحب الله جل جلاله، فهو عندهم كل

---

[111] أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 46.

[112] بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بيروت 1946 م.، ص 68.

[113] نفس المصدر، ص 46.

[114] مزهر عبد السوداني، الشعر العراقي في القرن السادس الهجري، بيروت 1946م.، ص 68.

[115] فيليب حتى، تاريخ العرب، ترجمة جبور وجرجي، ص 521.

[116] أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسي، اللمع في التصوف، القاهرة 1914 م.، ص 403.

الكَمال، وكل الجَمَال، وكل الحق، ومن أشهرهم رابعة العَدوية وابن الفَارض في المشرق، وابن عَربي في المغرب.

هكذا كان الشعر العربي القديم، لذلك لم يكن للنفس البشرية قيمة عند الشعراء العرب القدماء، ولم يأبهوا للبحث عن أسرارها الخفية وماهيتها العجيبة، فظلّ الشعر بأكثريته كما كان منذ القديم، خارجاً عن النفس البشرية، والعقل الإنساني، غير أننا نرى قبساً روحياً في أبيات متفرقة هنا وهناك

فما هي النواحي الروحية في الشعر العربي القديم؟..

فهي مواضيع روحية إنسانية، مجردة تبحث في الله جل جلاله والحُب، والكَمَال والجَمَال، والحَقِيقَة، والدين، والفَضِيلة، والحُرية، والعَقل، والرُوح والنَفس، والسَعَادة والمُوت والخُلود، وقد اتضح لنا كذلك أن بعض النقاد القدامى أشاروا إلى المعاني الشريفة التي اعتبرناها قيماً روحية إنسانية فرحنا نتحرى مواطنها في الشعر العربي القديم...

وسوف نشير إلى هذه القيم الروحية في الشعر العربي القديم، وكيف عبّر عنها الشعراء العرب القدامى.

- الله(جل جلاله)

إن الشاعر الجاهلي، لم يعالج مشكلة الله جل جلاله معالجة عامة، ولم ينظم في الله جل جلاله قصيدة تأملية خاصة بل كان يذكره عرضاً ببيت من الشعر أو بيتين لحاجة في نفسه، دون أن يبحث في جوهره، وجلّ ما نجده من فكرة الله جل جلاله آراء متفرقة هنا وهناك، بعضها متأثر بالآراء الإسرائيلية وبعضها بالمسيحية[117]. إن الله جل جلاله هو الحاكم الأكبر، وهو الذي يقسّم الخلائق إلى درجات، وينبغي على الإنسان أن يقنع بما منح. والله يمنح السائل ولا يخيبه، وبالله يدرك الخير كله، كما أن الله يهلك من يشاء، ويعطى ويمنع من يشاء، بيده الملك كله، فينبغي على الإنسان أن يتقيه، ويخافه، لأنه هو الخالد الأزلي وما سواه باطل والله حق، عالم بكل شيئ

[117] مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص 38.

غفور، رحيم، شفيع لمن يطيع. وفي ذلك أنشد لَبِيد وعَبِيد بِن الأَبْرَص، وزُهِير بن أَبي سَلمى (609 م) وغيرهم.

قال لَبيد بن ربيعة (ت661 م) في قسمة الله جل جلاله.

فاَقْنَع بِما قَسَمَ المَليك فإِنَّما قَسَم الخَلائق بيننا عَلاَّمَها[118]

وقال عَبيد بن الأبْرَص في رحمة الله جل جلاله:

مَنْ يَسْأَل النَاس يَـــحرَمُوه وَسَـــائـل الله لا يَخـيـب
بـــالله يــدرك كُــلُّ خـــير والقَول فــي بَعْضِــه تَلْبيب.[119]

وقل زُهِير بِن أَبي سَلمى في جبروت الله جل جلاله:

ألم تَرا أَنَّ الله أَهلك تُبــَّعاً وأَهلكِ لُقمان بن عاد وعادياً[120]

وقال عَبْدَة بِن الطَبيب في المعنى ذاته:

أُوصِيكُم بِتَــقوى الإله فَــإِنـــه يُعْطي الرَغَــائب مَــنْ يَشاء [121]

وقد ظهر تأثير القرآن الكريم في الشعر العربي القديم جلياً، ولا سيما العباسي منه، بعد أن تغلغلت الفلسفة في الفكر العربي، فاتخذ هذا الفكر مذاهب شتى في تفسير القرآن الكريم والبحث في طبيعة الكون وفي جوهر الله جل جلاله، غير أن الشعر العباسي ظل زمناً طويلاً لا يأتي على ذكر الله جل جلاله إلا عرضاً، وإذا تناوله بالبحث، وصفه كما حملته إليه الكتب الدينية، دون أن يبحث في جوهره، ويفرد القصائد في محبته.

---

[118] يحيى بن على التبريزي، شرح القصائد العشر، القاهرة 1342 هـــ.، ص 172.

[119] محمد بن الخطاب القرشي، جمهرة أشعار العرب، القاهرة 1330 هـــ.، ص 372.

[120] زهير بن أبي سلمى، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح الشيباني، القاهرة 1944 م.، ص 288.

[121] المفضل بن محمد الضبي، المفضليات، القاهرة 1926 م.، ص 61.

قال العَجَّاج بِن رُؤبة في مدح الله جل جلاله وحمده:

الحَمْدُ لله الـذي تَعـلَّـت بـأَمْرِهِ السَمـاء واسْـتَـقَـلَّت
بإِذْنِ الأَرْض وَمَـا تَـعنَّت أرسـى عَـليـها بِالـجِبَال الثَبَّت[122]

وفي الخوف من الله جل جلاله أنشد أَبُو تَمّام (788–845 م).

أَخَـافُ إلـهِي ثُـمَّ أَرجو نَوَاله وَلَكِن خَوفـي قَـاهـر لرَجَائـيـا
ولَـوْلا رَجَائي واتِكَالي على الذي توحد لي بِالصَنعِ كَـهلاً ونَـاشِيـا
لما سَاغَ لي عذب مِنْ المَـاء بَارِدٍ ولا طَابَ لي عَيْش، ولا زلـتُ بَاكيا[123]

لاحظنا مما تقدم كيف تطورت فكرة الله جل جلاله، من التوراة إلى الإنجيل ومن الشعر العربي الجاهلي إلى القرآن الكريم، ومن القرآن الكريم إلى العصور الإسلامية الأولى، فالعصور العباسية، إذ امتزج الفكر العربي بثقافات عديدة، متأثراً بالفلسفة اليونانية، ولا سيما الأفلاطونية الحديثة ولاحظنا هذا المجرى التطورى كيف ظهر الله جل جلاله عند الساميين، وفي الشعر العربي القديم عامة.

– الحُب

الحب يحمل النفس ويملأ جوانبها على تخيل الأجمل والأفضل والأكمل ويحملها على التفكير في أمور الحياة وشؤون البشر وتقليب وجوه التصرف حماسة في العمل ورقة في المعاملة وإقداماً لا مثيل له على المخاطر واجتياز المصاعب والعقبات. والحب عاطفة قوية أو ربط متين بين إنسان وإنسان. وللحب مظاهر شتى تختلف باختلاف الأفراد. وقد عبر الشاعر العربي عن هذا الحب بمظاهره الشتى، فكان حب

---

[122] ابو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ليدن 1929م، ص 21–84.

[123] لويس شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، بيروت 1924 م.، ص 196.

الشاعر لولده، وحب الشاعر لأخيه، وحب الشاعر لآبائه، وحب الشاعر لنفسه، وحب الشاعر للمرأة، وحب الشاعر لله جل جلاله.

أما حب الشاعر لولده وأخيه وآبائه فكان كثيراً ما يتفجر من قلب مفجوع مفطور كما فقد أحدهم لذلك غنى الرثاء بمثل هذا الحب، فاستعاض عنه البكاء والنحيب. وقلما اهتم الشاعر القديم بالتعبير عن الحب الذي يكنه لأهله دون أن تقع الفاجعة. ولعل شاعر حطان بن المعلى أراد أن يعزى نفسه، ويخفف عن فقره بقوله إنه يفضل العيش فقيراً بين "بنيّات كزعب القطا" على أن يفقد إحداهن:

أَبْـكَاني الدهر وَيـا ربـمـا ... أَضْـحَـكَني الدهـر بِما يُرضي
لولا بـنيَّاتٌ كزغبِ اَلـقطـا ... يَردْدّن مِنْ بَعْضٍ إلـى بَـعـضِ
لكَانَ لي مُـضطـربٌ واسِـع ... في الأرض ذاتَ الطول والعرضِ
وإنـما أولادُنـا بينـنـا ... أكبادُنا تَمشـي عـلـى الأرضِ
لو هبّت الـريح على بَعْضِهم ... لامتنعت عَـينْي عَـنْ الـغمضِ[124]

أما الشاعر مُحَمد بن كَعب الغنوي فقد رثى أخاه بأجمل ما يرثي أخ أخاه، عندما يفجع بموته، فيندفع بماله ونفسه في سبيل إعادته إلى الحياة، فيُشرك في جميع أعضائه، ويبذلها في أحيائه إنما يبدو له أن الموت أقوى من الحب:

فلَـوْ كَانَت الدُنْيَا تُباع اشْتَرَيته ... بما لَمْ تكن عنه النُفُوس تَطيبُ
بعيني أو يُمنى يدي أو قيل لي ... هـو القَائِم الجِذلان يوم يَؤوبُ[125]

أما الشاعر أَبُو الطَيّب المُتَنَبي (915–965 م) فقد عرف بتعلقه بجدته وحبه لها إذا ربته، وكانت له الأب والأم. فلم نسمع بهذا الحب إلا بعد موتها، وقد رثاها رثاء الولد للأم الرؤوم، مبدعاً حنينه إليها، وجزعه من الحياة:

أَحنُّ إلى الكأسِ التي شَربتُ بها ... وأهوى لمثْواها التُراب وما ضَمّا
فَـوا أَسـفاً ألا أَكبُّ مُـقَـبلاً ... لرأَسِكَ والصَدْرُ الذَيْ مَلأَ حُزنا[126]

---

[124] أبو تمام، ديوان الحماسة، شرح التبريزي القاهرة 1927 م,، ج 1، ص 102.

[125] أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، القاهرة 1926 م.، ص 279.

[126] ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، بيروت 1305 هـ.، ج 1، ص 176–177.

وفي رثاء أبى العلاء المعري لوالده، وقد ضاق ذرعاً بالوجود والحياة، عاطفة عميقة دفعته إلى جمود وجهه، وسخطه على الابتسام:

نَقمتُ الرِّضي حتَّى عَلى ضَاحك المَزن
فَلا جادني إلاَّ عَبُوسٍ مِنْ الدجَن
فَليت فَمــي إن شــام سنّـــــي تـــبــســّـــمي
فَم الصَعْنَة النَجلاء تُدمى بِلا سنّ[127]

أما حب الشاعر القديم للكائنات الطبيعية ولا سيما الحيوانات منها، فكان عظيماً. ومن منا ينسى حب عنترة لحصانه الأبجر، وحب شعراء المعلقات عامة للنياق والخيل والمهى والآرام، وكذلك يتجلى عند معظم الشعراء حبهم لأنفسهم، ولعل هذا الحب النرجسي قد ألهى الشاعر عن التجربة الإنسانية العميقة، إذ راح يعدد مناقبه وأعماله ويسجل وقائعه وخرباته أو مغامراته.

ولعل أقوى مظاهر الحب في الشعر القديم هو الشعر الذي تغنى فيه الشاعر بالمرأة، وأروعه الشعر العذري الذي يطوي في صدره عميق الحب والإخلاص الممزوجين بالألم والحزن. وقد رفع الشاعر العذري المرأة بعاطفته النبيلة، فارتفع حبه لها إلى درجة نيرة من القداسة والتأله، حتى أن قَيس بِن ذَرّيح يحار بأي نوع من الحب يحب زوجته الحبيبة لبنى، فيجمع لها أصناف الحب الذي يعرف وأنواعه، ثم يخاطبها:

أُحبُّكِ أَصنَافاً مِنْ الحُب لَــم أَجد لها مثلاً في سَائر النَاس يُوصَف[128]

وبعد هذا يعدد قَيس بِن ذَرّيح (688) أنواع الحب واحداً واحداً، فيذكر حب الرحمة، وحب التفاهم، وحب القلب. وفوق كل هذه الأنواع يدل على حب النفس والروح:

فَمِنــهن حُب للحبيب ورحمـــة بِمعْرِفتي مــنـــه بـــما يَــتَكَلّف
ومَنهن إلاَّ يعرض الدهُر ذكْرَها علـــى القلب إلا كَادت النَفس تَتلف
وحبّ بدا الجسمِ واللون ظَاهر حبّ لدى نفسي من الرُوح ألطف[129]

---

127 أبو العَلاء المَعَرّي، شرح التنوير على سقط الزند، القاهرة 1358 هــ.، ج1، ص 280.

128 أبو الفرج الإصبهاني، الأغاني، ج 9، ص 215.

129 نفس المصدر، 9: 216.

ويبقى هذا الحب بين الشاعر وحبيبته خالداً مدى الدهر، ثابتاً ثُبوت الأصابع في الراحة، وقد عبر عن المعنى ذاته مجنون ليلى بقوله:

لَقد ثَبَّتت في القَلْب منك محبةٌ كَمَا ثَبَّتت في الرَاحتين الأصَابِع[130]

وللصوفيين سفر روحيّ طويل، مزوّد بالتوبة والمُجَاهدة والخلوة، والتَقوى والوَرع والزَهد، والصَمت، والحُزن والجُوع والصَبر والاستَقامة، والصِدق والإخلاص والحُرية وغيرها من الأحوال والمقامات[131]. فالحب عند الصوفيين إعراض عن الدنيا، وأطراح للجسد، ثم إطلاق للروح في سفرها الطويل الشاق، حتى تبلغ ببغيتها ومرادها.

يصف ذو النون المصري (ت245) حالة المحبين بقوله:

حَسْبُ المُحِبين في الدُنْيا بأنه لهم مــن رَبهم سبباً يَدْني إلى سَــبب
قَوْم جَسُومهم في الأرض سَــائِرةٌ وأن أرْوَاحِــهم تَخْتَالُ في الحَجب
يــا رب يا رب أنت الله مُعْتَمَدِي مَتَى أَرَاك جِهَاراً غير مُحْتَجب[132]

وأنشد رابعة العدوية (100) في حب الله جل جلاله:

أُحبكَ حُــبين: حــبَّ الــهــوى وحُباً لأنَــك أَهــل الــذَكَــا
فأَما الــــذي هــو حب الهوى فَشغلي بِذكرك عَمــن سَواكا
فلا الحمدُ في ذاك ولا ذاك لــي ولَكن لك الحمدُ في ذا وذاكا[133]

هكذا عرف الشعراء الحب، وقد عرفوه إخلاصاً، وتفانياً وجهاداً وموتاً. ولعل هذا الحب الخالد المخلص، الصادق، قد كان أساساً أولياً لإقتحام درجات عالية في

---

[130] أبو الفرج الإصبهاني، الأغاني، 2: 45.

[131] أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في عالم التصوف، القاهرة 1330 هـ.، ص 45.

[132] داود الأنطاكي، تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق، القاهرة 1291 هـ.، 1: 23.

[133] محمد بن على أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة 1310 هـ.، ص 57.

سلم الحب عرف فيما بعد بالحب الصوفي، وهو حب إلهي سامٍ. وكذلك تغنى الشعراء الصوفيون جميعاً بالحب حتى أصبح عندهم مذهباً وديناً بعد أن كان شكلاً وجسداً، وسماوياً مقدساً بعد أن كان أرضياً وتبذلاً، وأزلياً يدوم بعد أن كان متغيراً لا يدوم[134]. فمن جوهر الحب: الإخلاص والصدق والحقيقة، ومن وحيه الإعتصام بالمثل العليا والأخلاق السامية، قد أصبح الحب السبيل الوحيد الرقي الروح البشرية.

- الكَمَال:

لم يجد الإنسان القديم الكمال إلا في الله جلال جلاله، فالله كامل، لأنه قادر على الخلق والإبداع، يحيي ويميت، بيده كل شيء، وكل شيء يسير بإذنه، والإنسان لا يستطيع أن يكون كاملاً، وهو في الدنيا الفانية، ينبغي عليه أن يسلك طريق العبادة والزهد، ليرضي إلهه. وقد جاء المسيح ابن مريم يبرئ المرضى، ويشفى الداء العضال، ويعلم الناس أن يكونوا كاملين، بذلك أصبح للإنسان قيمة، وقدرة على الرقي.

ولما جاء محمد رسول الله (ص) نفى الكَمال عن الإنسان، وقد حثه على طلب المعرفة والعلم إذ بهما يرتقي درجات دون الدرجة الإلهية، فقال: "العلماء أمناء الرسل"[135]. أما الله جلال جلاله فهو كامل "هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم"[136].

فسلم الإنسان أمره لله جلال جلاله، لأنه يرفع الصالحين إلى جنته، ويزج الطالحين في جحيمه، فاهتم الإنسان بنعيم الآخرة، وأصابه التشائم من الحياة الدُنيا وعم قلبه الرُعب من صور الجحيم.

وبانتشار الدين والعلم والفلسفة في العصور العباسية، بدأ الإنسان يشعر بقوة عقله ومقدرته الفكرية والعقلية والروحية، فتحرر قليلاً وتحرر معه الشعر إذ أصبح طليقاً، ينطق بما شاء مؤمناً بالعقل والشجاعة الأدبية والحرية التي هي من أهم عناصر الارتقاء البشريّ.

---

[134] عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، القاهرة 1974 م.، ص 45.

[135] البخاري، جامع الصحيح . كتاب الايمان، مصر 1317هـ، ص 178

[136] القرآن الكريم، سورة حديد، آية: 3.

فإذا اجتمعت كلها في الإنسان بلغ من الرقي المكان الأعلى، وفي ذلك يقول المُتَنَبي:

الرأي قَبل شَجَاعَة الشُجْعَان   هو أَول وهي المحلُّ الثاني
فإذا هما اجْتَمَعَا لنَفسٍ حرة   بَلَغت مِنْ العلياء كُل مَكانِ[137]

وقد عرف شعراء العرب القدماء الكمال الإنساني بالمعرفة الكبرى، والمشاهدة الإلهية، والتقرب إلى الله جل جلاله وتقوى به، بتلك يصبح الإنسان كاملاُ، منزهاً عن كل نقص، مشاركاً الكمال الأكبر.

- الجَمَال

والجمال هو ما يحرّك النفس والشعور لما يراه الإنسان بعينه أو يدركه في قلبه. أما الشعر القديم فكانت المرئيات بأنواعها تهز مشاعره وتثير هممه. فجنة عدن ما هي إلا مثال واضح لهذا الجمال المادي، وقد تغنى بها الأنبياء على أنها أخصب بقعة أنشأها الله في أجمل مكان، وأنبت فيها الشجر وأجرى الماء. وكانت المرأة مثالاً آخر للجمال المادي الذي استهوى الشاعر، ففي (نشيد الإنشاد) مثال لهذا الجمال الحسي الذي اختلفت مقاييسه باختلاف العصر والبيئة وكان الشعر الجاهلي كان لا يرى إلا المحسوسات، ولا يأبه إلا لمنظر جميل أو كائن في الطبيعة حيواناً كان أو أمرأة[138].

أما عَمرو بن مُعْدي كَرب (547-642م) فيرى الجمال في الأعمال الصالحة المنبثقة عن النفس الداخلية، لا في الشكل الخارجي فيقول:

لَـــيسَ الـــجَـــمَال بِمــئز   فاعْــلَم وإن ردَّيت بَردا
إِن الجَمَـــال مَـــعـــادن   ومَــنَاقِب أَورَثْن مَجدا[139]

---

[137] ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، بيروت 1305 هـ.، 1:176.

[138] محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 139.

[139] أبو تمام، ديوان الحماسة، شرح التبريزي، ص190

وتأمل محمد الرسول الله (ص) في الكون، فرأى فيه جمالاً، وهذا الجمال لا بد له من مصدر ينبثق عنه، رأى أن الله جل جلاله هو مصدر ذلك الجمال، والله جميل وفي ذلك قال: "إن الله جميل يحب الجمال"[140].

كما أنه رأى الجمال في الخلق وفي العمل الحسن. وفي القرآن الكريم إلى جانب ذلك وصف جميل حسي لجنَّات النعيم. إنما لم نجد فهماً جديداً للجمال في الشعر العربي القديم، بالرغم من انتشار الفلسفة والعلم في العصور العباسية. بل ظل أكثر شعراء العرب يتغنون بوجوه الحسان، وبعض مواطن الجمال في الطبيعة، حتى امتلأت بهذه الأوصاف الحسية، كتبهم ودواوينهم.

أما أبو العَلاء المَعَرّي، فقد عبَّر عن الجمال بعد تأمل، فوجد أن الجمال هو الخير، يظهر في النفس الداخلية لا في الجسد الخارجي، غير أنه لم يجعل للجمال موضوعاً قائماً بذاته فيقول:

فَلتفعل النَفس الجَميل لأنه خَيرٌ وأَحْسَنُ لا لأجْلِ ثَوابِها[141]

وقد تبعه كثير من الشعراء يتغنون بجمال النفس أو الروح لا بجمال الجسد أو الملبس.

- **السَعَادة:**

اعتبر الإنسان القديم السعادة في آخرته، لا في دنياه، وقد أجمعت الأديان السامية على أن السعادة لا تكون إلا بعد الموت، حين تصعد الروح الصالحة إلى الجنة، وتسكن في نعيمها الأزلي.

ولم يكن لسعي الإنسان قيمة إلا بعد ما جاء الإسلام، وفي العصور العباسية وبفضل الفلسفة أصبح الإنسان ذا عقل نيّر، ورأي حرّ، قادراً على السعي في دنياه، ضارباً في الآفاق، متجشماً الأخطار، والمسالك الوعرة، مندفعاً بكل قوته، منشداً بملئ صدره لتحقيق سعادته. ولعل الشاعر المُتَنَبي خير مثال لهذا الانطلاق الشارد، الذي

---

[140] أبو العَلاء المَعَرّي، لزوم ما لا يلزم، القاهرة م، ج:1، ص134.

[141] نفس المصدر، ص145.

تغلغل في كل ذرة منه، ساعياً، جاداً في سبيل هدفه، حتى إذا أشقاه المسير قال متألماً متهكما.

ذُو العَقْلِ يَشقى في النَعِيم بِعَقْله وأَخو الجَهَالَة في الشَقَاوةِ ينعم[142]

أما عند شعراء الصوفيين فقد بلغت السعادة ذروتها، فالسعادة هي في العزلة وقهر الجسد، ثم سفر الروح إلى الله جلال جلاله للاتحاد به، وقد تفردوا داعين الله جلال جلاله أن يرضى عنهم. لأن رضى الله هو أساس سعادتهم، وفي ذلك تقول رابعة العَدوية:

يا سُروري ومُـنيَتي وعِمَادي وأَنِـيسي وعُـدَّتي ومُـرادي
إِن تَكُن رَاضِـياً علي فإِنِـي يا مَنَى الـقلب قَد بدا إِسعَادي[143]

وهكذا مما تقدم أن السعادة هي سعي روحي متواصل يحدو بها الشوق والحب والحرية إلى الكمال والجمال والحقيقة، حتى إذا بلغ الإنسان هذه العتبات، حظي بالسعادة الأبدية الروحية.

- **الفَضِيلَة:**

عرفت الفضيلة عن الإنسان في ما يقوم به من عمل الخير في سبيل أخيه الإنسان. وتحث جميع الأديان السماوية على الفضيلة. وأما الفضيلة الكبرى في نظر الأديان فهي في نفس الله وعبادته، والإستسلام لمشيئته. وكان الأنبياء بدورهم يحضون على الخير والإحسان، وعلى العدل والتواضع، وعلى الرحمة والصدق والسلام.

وقد كان للعرب القدامى فضائل طالما تغنوا بها وفاخروا، أهمها الشجاعة والشرف، وعزة النفس، والأخذ بالثأر، وطاعة الوالدين ونجدة المستغيث. حتى أننا نجد بين الشعراء الصعاليك من يحث على الفضيلة والعطاء ومشاركة الناس مالهم

---

[142] ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ج:1، ص630.

[143] عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الإلهي، القاهرة بدون تاريخ، ص 161.

وسعادتهم. ولعل عروة بن الورد (593 م) من أبرع من عبّر عن هذا الإحساس النبيل بقوله:

إنّي امرؤٌ عَـافي إنـائي شركةٌ وأنـتَ امرؤ عَـافي إتائكَ واحـدُ

أَتهزأَ مني إن سـمنتَ وإن تَرى بوجهي شُحُوب الحَقِ، والحقُ جاهدُ

أقسّم جسمي في جسوم كثيـرة وأحسو قراح الماء، والـماءُ بـاردُ[144]

ويقول ابن الرُومي (836–813 م) في فعل الخير:

فانَفذ لِخَيركَ لا لِشَرك واَتَبع أَولاهُما بالقَادرِ الغفَّار[145]

ويقول اَلمُتَنَبي في الفعل السيء وما يعاني صاحبه من آلام:

إذا سَاءَ فِعْل المرءِ سَاءت ضنونه وصدق ما يَـعْتَاده مـنْ توهُّـم

وعـادى مـحبيـه بقـول عدائه وأَصبحَ في لَيْل منْ الشك مُظلم[146]

ومن طبيعة الشعر أن يميل إلى الفضيلة، وينصح بها. فنرى مما تقدم أن الفضيلة هي عمل يقوم به إنسان نحو إنسان آخر، فمن إحسان إلى عدل ورحمة ومن صدق في القول إلى محبته وسلام. وقد كان هذه الفضائل تظهر في الشعر العربي القديم عامة، عن طريق الحكم المبثوثة هنا وهناك، لا عن طريق قصائد ذات مواضيع مجردة، فيها تأمل، وفيها تفكير. وكان الشاعر القديم يحضّ عليها نتيجة لتجاربه في الحياة، أو لأنه سمعها من أفواه الأنبياء ولم يختلف الشعراء العباسيون كثيراً عن سابقيهم، فظلوا يبثون حكمهم في قصائدهم. وقد بلغت هذه الفضيلة عند الشعراء الصوفيين ذروتها بواسطة الحب والحرية، إذ أصبحوا هم المعرفة، وهم الكمال والجمال والحقيقة، فلم يخف عليهم سرّ، وهم بكل شيء عالمون.

---

[144] لويس شيخو، شعراء النصرانية، بيروت 1890 م.، 2: 887.

[145] ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق كامل الكيلاني، مصر 1924 م.، 2:169

[146] ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب،2: 494.

- **العقل**

العقل حي متيقظ، والإيمان مستكين. العقل لا يسلّم إلا بعد جدل وتحليل، والإيمان يستسلم للإيمان، فلا تجادل في الله جلال جلاله ولا في أنبيائه، بل تؤمن أن الله جلال جلاله هو المتشرّع والحاكم الأكبر، وتؤمن بمعجزاته دون أن تحكّم العقل البشري، لذلك ظل العقل دائماً، خاضعاً للإيمان.

ولم يحفل الشعر العربي القديم بالعقل وحده، إلا نادراً[147]. وقد كان العقل رمزاً كذلك للحكمة والاتزان والدراية والمعرفة. والعقل زينة الإنسان، إذ قال محمد رسول الله **(ص)**: "اللهم أغنني بالعلم، وزينّي بالحلم، وأكرمني بالتقوى"[148].

والعقل عند علي بن أبي طَالب (رض) مثلاً، هو علامة الكمال والعلم والتجربة الواعية وفي ذلك يقول:

إذا أَكملَ الرَّحْمن للمرء عَقْلَه فَقد كَمَلَت أَخْلاَقَه ومآربه
يَعيش الفَتى في النَاس بالعَقْل أَنه على العقل يَجري علِمَه وتَجَاربه[149]

وفي العصور العباسية، وهب لإنسان الشاعر بقوته الفكرية، سائلاً، ساعياً باحثاً، ومحللاً، غير أن العقل اصطدم بالدين والإيمان. فكان تارة يخمده وتارة أخرى يثور، مسايراً أهواء الخليفة أو الحاكم. وقد نهض الشعراء يمجدون العقل، لكنهم لم يفردوا القصائد في تمجيده، شأنهم في سائر المجردات، بل تنبهوا إلى أن العقل يحدو بالإنسان الشجاع إلى السعي المتواصل.

فالإنسان امتاز بعقله عن سائر الكائنات وشرّف به وفضّل، فلا بد للعقل الحازم أن يكون قادراً على أن يصدع الصخور الصماء بالبحث والتحليل.

لولا العقولُ لكَان أَدنى ضيْغَم أَدْنَى إلى شَرَفٍ مِنْ الإنسان[150]

---

[147] جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة 1914 م.، ص 42.

[148] البخاري، جامع الصحيح، كتاب العلم، ص 115.

[149] على بن أبي طالب، الديوان ، بيروت 1327 هـ.، ص 6.

[150] نفس المصدر، ج:2، ص439.

أما العقل عند الشعراء الصوفيين، فكان الروح والنفس معاً وقد استطاع الشعراء الصوفيون بالتأمل العميق أن يدمجوا أرواحهم بالذات الإلهية ويصبحوا هم المعرفة الكبرى والعقل الأول.

- **الروح والنفس**

لم يفرق الإنسان القديم بين الروح والنفس، فكلتاهما واحدة، وهما علويتان مقدستان. ولما سُئِل محمد رسول الله (ص) عن الروح، أجاب القرآن الكريم بأنها من أمر الله: "ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده"[151].

والنفس في القرآن الكريم تظهر في شكل يختلف عن الروح، فالروح طاهرة وهي من الله جلال جلاله، ينزلها بواسطة ملاك على من يشاء ثم ينزل ملاكاً آخر ليقبض الروح متى شاء. والروح وديعة من الله جلال جلاله، كما قال علي بن أبي طالب:

والرُوح فِيكَ وَدِيعة أَودَعتـــها سَتردها بِالرَغم مِنكَ وتُسْلب[152]

وأما النفس فلها سوءات، تموت بموت الجسد. ولها معدن ترابي، يشبه الجسد، "كل نفس ذائقة الموت"[153].

وباتنشار الفلسفة والعلوم في العصور العباسية، تأثر شعراء العرب بمذاهبها ومدارسها المختلفة، غير أن تأثيرها لم يظهر إلا في أبيات عابرة، ولم يبحث الشعراء في المجردات كما فعلت الفلسفة، بل اكتفوا بذكرها كما سمعوها. ومثل هذا كثير في الدواوين العربية. ولم يجزم الشاعر القديم في فهم الروح والنفس، بل ظل حائراً بين الآراء المختلفة، ناقلاً ما يسمع، وهذا ابن الرُومي يجعل النفس من جوهر الروح:

النَـــفسُ خيـــرك، إِنها علوية والجِسْم شرّك، ليس فيه تَمارى[154]

---

[151] القرآن، سورة النحل، أية: 2.

[152] على بن أبي طالب، الديوان، ص 67.

[153] القرآن، سورة آل عمران، أية: 185.

[154] ابن الرومي، الديوان، تحقيق كامل الكيلاني، ص169.

ويصور لنا الشاعر المُتَنَبي تخالف الناس في النفس، وفي جوهرها ودينها فيقول:

تَخَالف الناس حتى اتفــاق لهم الأعــلى شَجَب والخلفُ في الشَجبَ
فَقيل تَخلص نَفسُ المرءِ سَالمَة وقيل تَشرْك جِسْم المرءِ في العَطَّبَ[155]

ولم يفرق شعراء الصوفيون بين الروح والنفس، بل جعلوها واحدة فالروح أو النفس تسافر في مسلك وعر، حتى تبلغ الله جلال جلاله حيث تسكن فيها. والروح عندهم قبس من الله جلال جلاله ولا بد لذلك القبس أن يقوي على الجسد، حتى يستطيع أن يرتقي إلى الذات الإلهية.

- الموت :

عرف الإنسان الموت منذ كان، فالموت لا بد منه. به ينتهي الإنسان ويرجع إلى التراب. ولم يستطع الإنسان أن يعرف حقيقة الموت، أو أن يعلم ما قبله وما بعده فلجأ إلى الأديان ليطمئن روحه الحائرة. ورأى أن الموت هو فناء الجسد وعروج الروح إلى الله جلال جلاله، وأما الجسد فيبعث بإذن الله جلال جلاله مرة اخرى في يوم الحساب. وقد قيل أن الروح تنتقل بعد الموت من جسد إلى جسد. وقد اجمعت الأديان السماوية على أن الله قد خلق الإنسان من تراب، وأعطاه روحاً من روحه، ثم يعيده متى شاء إلى التراب، ويرفع الروح إليه. وقد اعتبر العرب القدامى الموت مظهراً طبيعياً كما رأوه. وهو فناء الجسد والنفس معاً[156]. والموت يرصد دوماً الإنسان وهو قريب منه أينما كان، ولا يعلم أحد متى يحين أجله، ويشدّ رسنه. وفي ذلك يقول طرفة بن العبد:

أَرَى المَوْتَ أَعداد النُفوس، ولا أرَى بعيداً غداً، ما أَقْرَب اليوم من غد
لعمرِك أَن الموتَ مــا أَخطأ الفتى لكالطول المَرخى وثنياه باليـــــد[157]

---

[155] ناصيف اليازجي ، العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب ، ص 429.

[156] أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة 1928 م.، ص 48.

[157] الزوزني، شرح المعلقات السبع، القاهرة 1325 هــ.، ص 78.

ويرى زُهير بن أَبي سَلمى أن الإنسان فانٍ، ولا يخلد إلا الله جلال جلاله والسماء، ولكل أيام معدودات، يقضيها فيناله تيار الموت، ويحرفه معه ثم يمضي:

ألا لا أَرَى على الحَوادِث بَاقيا ولا خالداً إلا الجِبَال الــرَوَاسيا
وإلاَّ السَــماءَ والبِلاد ورَبَّــنا وأَيــامــنا مَــعْدودة والــلَيالِيا[158]

ويقول الشاعر عَلْقَمَة الحُميري (603 م) إن النفس إذا ماتت لا ترجع، ولن يستطيع أحد أن يدفع الموت عن أي حميم له:

والنَفسُ لا يــحزنك إِتْلاَفُها لَيسَ لها منْ يَــوْمِها مُرتَجع
والموت ما ليــس له دَافع إذا حَمِــيم عن حميمٍ دَفــــع[159]

فالشعر العربي القديم تأثر بالقرآن الكريم في الموت، ولعله وجد فيه عزاء عميقا لنفسه الحائرة، وقد رأى أَبو نَوّاس (762–813 م) أن على الإنسان أن يستعد للموت ويعمل لآخرته في دنياه ويتوكل على الله جلال جلاله، فالموت آت، لا بد منه:

المَوْتُ ضَيــفٌ فاســتعــــدّ لــه قَبل النُزول بأَفْضــل الــعــدد
واَعْمَل لِدار أَنــتَ جَــاعــلهــا دار المقامــة آخــــــر الأمد
يا نَفس مُوردكَ الصِــراَط غــداً فتأهبي من قبل أن تَــــردي[160]

في الصفحات التالية عرض شامل للقيم الروحية كما تظهر في القيم الدِينية و القيم الإنسانية والقيم الأخلاقية في الشعر الحديث و كذلك نشرح اهم العوامل التي أضعفت القيم الروحية و الإنسانيّة وكذلك العوامل التي تقوي القيم الروحية والإنسانيّة.

---

[158] الشيباني ، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 288.

[159] المفضل محمد بن الضبي، المفضليات، القاهرة 1929 م، ج:1، ص201.

[160] محمد واصف، شرح ديوان أبي نواس، القاهرة، 1898 م.، ص 193.

الفصل الثاني

1-القيم الدينية
2-القيم الإنسانيّة
3-القيم الأخلاقية
4-العوامل التي أضعفت القيم الروحية والإنسانيّة
5-العوامل التي تقوي القيم الروحية والإنسانيّة

1- القيم الدينية :

في الدين جوهر وتقليد، فالجوهر ثابت، يهدف إلى المثل العليا، والفضائل الإنسانية الكبرى، وبه تتحدى الأديان وتتآخى. والتقليد متغير، يختلف باختلاف العصر، والأمة التي نشأ فيها، وهو مجموعة من العادات والقوانين جاءت عن أفراد من الناس هن أفضل أهل زمانهم خلقاً وحكمة، وقد توارثها الأبناء عن الآباء وحافظوا عليها، اضاء الله الذي اصطفاهم بين الأمم رسلاً ينوبون عنه ويصلحون. وقد كانت كل أمة تحتكر الله، تمجده، لأنه اصطفاها مِنْ بين الأمم في العالم، فكان اليهود الإسرائيلي، والرب المسيحي، والله الإسلامي.

ولم يَنْسَ الشاعر العربي أن يمجد دينه، ويرفعه إلى أعلى عليين، فالشاعر العربي القديم لم يأبه للتأمل العميق في جوهر الدين، بل ظلّ يفهمه بشكلياته المادية التي يقوم بها الإنسان خوفاً من عقاب الجحيم، أو حباً بثواب النعيم، وعلى هذه الأسس اختلفت الأديان، وانتشر بينها الحقد، وأصبحت كل أمة تحتكر لدينها كل الفضائل[161]، وتجعله الحق، وما سواه ضلال. وفي ذلك يقول أُمية بن أَبي صلت:

كُلُّ دِين يوم القِيامة عند الله إلاَّ دِين الحَنيفة زور[162].

ولم يستطع أحد أن يجادل في الدين، ويتفلسف، فالدين موقوف على الله، منزل من لدنه، وهو الذي اصطفى رسلاً ليكونوا صلة بينه وبين الأمم التي قرّبها إليه.

وعندما انتشرت الفلسفة في العصور العباسية، أصبح الدين الإسلامي على أفواه الفلاسفة يبحثون فيه ويجادلون، وقد وقف رجال الدين يصدّون التيارات الفلسفية عن الدين، ويناوئون الفلاسفة، ويفكرونهم، حتى قال القاضي أبو يوسف: "من طلب الدين بالكلام تزندق"[163].

---

[161] سامى الكيالي، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، مصر 1943، ص 42.

[162] أمية بن أبي الصلت، الديوان ، بيروت 1934، ص 38.

[163] ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج:2، ص 141.

وبالرغم من هذه المناوآت، فقد قامت فرق إسلامية ومذاهب مختلفة سراً وعلانية تبحث في الدين وفي تفسيره، غير أن سلطان رجال الدين كان قوياً على الخلفاء. فلم تعمل الفلسفة في الدين كثيراً، ولم يؤثر فيه إلا قليلاً.[164]

فابتعدت الفلسفة عن الدين بابتعاد الخليفة عنها. كذلك لم يعن الشعر العربي القديم في جوهر الدين، بل ظلّ الدين الإسلامي هي دين الدولة، ودين الخليفة وكان الشاعر –وهو يعيش في كنف الخلفاء والأمراء والولاة المسلمين– مضطراً أن يساير أهواءهم، وأن يمجّد دينهم، غير أن احتكاك العرب بالشعوب الأخرى واطلاعهم على الثقافات الجديدة، ولّد في قلوب الشعراء شيئاً من الشك والإلحاد، فتعرّض هؤلاء الشعراء للدين. وقد ترى في الشاعر الواحد شكاً ويقيناً، وإلحاداً وإيماناً. ولعلّ أبو نَوّاس (ت 199هـ) يمثل هذا الاضطراب الفكري أفضل تمثيل حين يقول:

تَكثر ما استَطعتَ مِنْ الخَطايا فإِنَّك بالغ رباً غَفُوراً[165]

ثم يندم فيما بعد، ويقول:

واَرغبُ إلى الله لا إلى جَسَد مُنْتَقل مِنْ صَبا إلى كُبْر[166]

أما أبو العَلاء المَعَرّي، فقد كان في نظرته للأديان ناقداً لشرائعها، ورجالها، أكثر منه متأملاً في جوهرها. وقد نظر إلى القيم الدينية وخاصة الدين الإسلامي وإلى أهله، فخرّ في نفسه أن يرى أهل هذا الدين متزمتين، عاكفين على تقاليد بالية، لا يقرها المنطق، ولا يقبلها العقل السليم. وآلمه أن يرى هذا الدين منكمشاً على نفسه يأبى أن يساير العقل، فلا يتقدم ولا يرتقي، وفي ذلك يقول في قومه:

عَاشوا كما عَاشَ آباء لهُم سَلَفوا وأَوْرَثوا الدِينَ تَقْليداً كَما وجدوا[167]

---

[164] محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص 121.

[165] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مصر 1275 هـ، ص 190.

[166] أبوا نواس، الديوان، شرح محمد واصف، ص 196.

[167] أبو العَلاء المَعَرّي، لزوم ما لا يلزم، ج:1، ص 235.

ورأى أن الأديان كلها واحدة في جوهرها، غير أن التقاليد أو الشرائع هي سبب النزاع المستمر والحقد والبغضاء، فلم لا يدين الناس بدين واحد؟ ولم لا يزدرون جميعهم الشرائع ويطرحونها؟

إِنَّ الشرَائع الفَت بَينَنا إِحْنَا وأَودَعْتَنا أَفَانينَ العَداواتِ[168]

إِذا رَجَعَ الحَصِيفُ إلى حَجاه تَهاونض بِالمَذاهِب وازدِرَاها[169]

ثم يتأمل أبو العلاء في الكواكب ويتساءل سافراً، هل هي مثلنا لا تتفق على دين واحد؟

فَهل الكَواكِب مِثلُنا في دينها لا يَتَّفقنَ فَهائد أَو مُسْلِم[170]

وليس في نظرة أبي العلاء إلى الأديان أثر تعصب لمذهب دون مذهب، أو تفضيل دين على آخر، فالأديان كلها واحدة، لا فرق بينها وبين رسلها. وفي ذلك يخاطب المسيحيين:

لا تَبدؤني بالعداوة منكم فمَسيحكُم عِنْدي نَظير مُحَمد[171]

والقيم الدينية الحقيقية عند أبي العلاء، ليس في الشرائع أو التقاليد، لكنه في معاملة الإنسان لأخيه الإنسان. بذلك يكون أبو العلاء الشاعر الإنساني الكبير الذي دعا إلى دين واحد وهو دين الإنسانية، فهو لا يرى القيم الدينية في الكنائس والجوامع فحسب، بل يراه في الحياة اليومية، وفي معاملة الناس بعضهم لبعض، فالدين هو

---

[168] أبو العَلاء المَعَرّي، لزوم ما لا يلزم، ج:1، ص 235.

[169] نفس المصدر، ص 427.

[170] نفس المصدر، ص 281.

[171] نفس المصدر، ص 283.

إنصاف وعدل، وصيانة النفس عن الشر والفحش، ونفض الصدر من كل غل وحسد، وفي ذلك يقول:

الدين إنصافك الأقــوامَ كلّهُــم وأيّ دين لآبى الحقَ إن وَجَبا
إذا القَومُ صَاْموا فَعَافوا الطَعَاْمَ وقَـــالوا المحال فَقد أَفْطَروا[172]

ويعرّف الدين قوله:

وإنَّما هو تَرك الشرّ مطَّرَحاً ونَفضُكَ الصَدر مِنْ غلّ ومَنْ حَسدِ[173]

ويحار أبو العلاء في الناس، ويتسائل: هل حقاً اهتدى الإنسان منذ كانت الأديان؟ هل حقاً اتعظ الإنسان مما سمع وقرأ؟ إذن ما قيمة الأنبياء والرسل؟ وما تأثيرهم في الإنسان، هذا الإنسان الذي لن يرعوي عن شروره وأباطيله؟

دِين وكــفر، وأَنبــاء تقصّ وفُرقَان يَنصّ وتَوراة وإنجيل
في كُل جِيل أبَاْطِيل يُدان بِها فهل تفرَّد يوماً بالهدى جيل؟

* *

هَفَّت الحَنِيفة والنَصَارى مَا اهتدت ويَهود حَارت والمَجوس مُضلّله
فقد كَذَبت علــى عيسى النَصَارى كَــمَا كَذبت على مُوسى اليهود[174]

على أن مثل هذه الآراء، وهذه الأقوال، قليلة، متفرقة، لا نجدها بهذه الجرأة والحرية إلا عند أبي العلاء المعري.

أما الفلاسفة فقد بحثوا في جوهر القيم الدينية، وأهمها جوهر الدين، ورأوا أنه قد تدنّس بالجهالات والأوهام والضلالات، ولا بدّ للفلسفة من أن تطهّره. وهناك أبحاث كثيرة غير أنها لا تهمنا إلا بمقدار ما أثّرت في الشعر العربي القديم والحديث. وقد رأى جميع الفلاسفة العرب أن الفلسفة اليونانية يجب أن تتغلغل في الشريعة

---

[172] أبو العَلاء المَعَرّي، لزوم ما لا يلزم، ص 346.

[173] نفس المصدر، ص 272.

[174] نفس المصدر، ص 247.

الإسلامية حتى يتم لها الكمال. وحاول بعضهم أن يوفقوا بين الفلسفة والدين، فأخفقوا ولم تستطع الفرق الفلسفية العديدة أن تخلص الدين من شوائبه.[175]

وأما الشعراء الصوفيون فكان لهم فهمهم الخاص للدين، وهم استطاعوا أن ينطلقوا من عالم المادة إلى عالم الروح، فأنشدوا أعذب الأناشيد الروحية، محاولين أن يوحّدوا جميع الأديان في دين واحد، وهو دين الحب، الدين الذي يزيل الحدود، ويفكّ القيود، ويرفع الإنسان إلى الحضرة الإلهية، حيث يصبح قلبه محفلاً لجميع الأديان، من وثنيّة ويهودية ومسيحية وإسلام، وحيث يتوجه الجميع إلى قبلتهم ألا وهي الحب. وفي ذلك ينشد ابن عربي (ت 1240م):

لَقد صَارَ قَلبي قَابِلاً كُل صُورَة فَمَرعى لِغِزْلان ودير لِرهبان
وبيت لأوثان وكَــعْبَة طَــائف والوَاحِ تَوراة ومُصْحَفِ قرآن
أَدِينُ بدِين الحب أَنَّى تَوَجَّهتُ رَكَائبه، فَالحب دِيني وإِيمَاني[176]

وهذه الحالة الروحية من الحب الإلهي تحمل الصوفيّ على أن يعتقد أن نفسه قد اتّحدت بنفوس الأنبياء، أو أنه هو نبيّ من الأنبياء الغابرين، وقد يصير محمداً (ص) وعيسى حيناً آخر، وكذلك يصبح الملاك جبريل، فيقول ابن عربي:

الله يَــعلــم والــدَلائل تَشْهد أَني إِمــام الــعَالمين مُحمد
أنا المُحيي، لا أَكْني ولا أتَلَبد أنا العربيّ الــحاتميّ محــمد
أَنا في العَالمِ الــذي لا أَرَاكُم كَمَسْيح النَصارى بين اليهود
وإِذا ما رَأَيتكُم نــصب عيني أنا الله في جِــنَان الــخُلود
أَنا جِبْرِيل وهذي حِــكْمَــتي فاقرَأَوها تَكْشِفوا مــا كُنا[177]

---

[175] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 42.

[176] محي الدين ابن عربي، ديون ابن عربي، تحقيق نواف الجراح، ص 213.

[177] نفس المصدر، ص 10

لكن الصّوفيّ لا يقف عند تلك النبوّة وحسب، بل يتجاوزها إلى الألوهية، إذ يتّحد بالله جلال جلاله، ويصبحان واحداً، فيقصد إليه جميع الملل والنحل، وتتوحّد به جميع الأديان، وفي ذلك يقول ابن الفَارض (ت 1235م):

وإنَّ بَار بالتنزيل مِــحْرَاب مَسْــجِد ... فَــــمَا بَار بِالإنجيل هَيكل بيعة
وأَسْفَـــار تَوراَة الكَــليـــم لِقَومِـــه ... ينَاجي بِها الأَحْبَار في كُــل لَيلة
وإن خــــرَّ للأحْـــجَار في البد عَاكِفَ ... فَلا وَجـــه للإِنْـــكَار بِـــالعصبيَّة
وما زَاغَت الأَبصَار مِـــنْ كُـــل مِلّة ... وما رَاغَت الأَفكار في كُـــل نَحْلة
فما قَصَدوا غيري وإنْ كَان قَصْدَهُم ... سواي وإنْ لَمْ يَظهروا عَقْد نيَّة
رَأَوا ضَوء نُوري مَرة فَـــتوهـــموه ... نَاراً فَضلَّوا في الهُدى بالأَشعة[178]

وبعد أن الدين مقيداً محصوراً بشرائع وتقاليد، أصبح عند شعراء ديناً إنسانياً ثمّ بلغ الذروة عند الشعراء الصوفيين، إذ صار ديناً عالمياً، لا يعرف إلهاً إلا الحب، ولا يؤمن إلا به. فالحب هو الدين العالمي الذي يجمع ما تفرّق، ويربط ما تقطّع.

إن الإسلام دين روحي واجتماعي وفكري وسياسي، وقد امتزجت فيه السلطة الدينية بالسلطة المدنية. وقد جاء به محمد رسول الله (ص) إلى أمته العربية والإسلامية، فلمّ شملهم، ووحّد كلمتهم تحت راية إله واحد، بعد أن كان أكثرهم وثنيين ومتفرقين. وقد نظّم حياتهم الاجتماعية بعد تأمل عميق، فجاءت الشريعة تلائم ذلك العصر، وهي وليدة تلك البيئة، وذلك الزمان.

وعندما اِنْتَشر الإسلام بالفتوحات، اختلط المسلمون بالأمم الأخرى كاليونان والرومان والفرس والهند، فأخذوا عنهم ثقافاتهم ما ساوقت روحهم وعقليتهم.

وعرف القرن التاسع عشر بالمدائح النبوية التي كان شعراء العرب يستوحونها من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ويفردون فيها القصائد الطويلة ذاكرين أعمال الأنبياء الصالحة، وأخلاقهم النبيلة، ولم يأت شعراء بشيء جديد عما كان في الكتب الدينية، ولم يتأمل الشاعر العربي تأملاً عميقاً في هذه القصائد. ولم يكن للشاعر

---

[178] ابن الفارض، الديوان، بيروت 1886، ص 172.

العربي حظّ في التأمل بالمجردات، والتعبير عنها بقصائد منفردة[179]. ولم يهتم الشاعر العربي بهذه المواضيع إلا عرضاً. فجاءت قليلة، متفرقة هنا وهناك، كما كانت في الأدب العربي القديم، غير أنها في أواخر القرن التاسع عشر أخذت تبتعد عن ماديتها قليلاً وتتجرد، وقد نقرأ ليوسف حبيب باخوس قصيدة في النفس اسمها حكمة النفس، وهو أن النفس تختلف عن الجسد وذراته، وهي مجردة غنية بالمعرفة تهوى الحقائق، خالد لا تفنى ولا تموت، لأن الله جلال جلاله وقاها من شر الفناء وفي ذلك يقول الشاعر عبد الرحمن شكري:

رَغبتَ عَن التَركــيب مَع ذَرَاتهِ وتَجَــردتَ فَــهُنَاكَ مَــا أَغْنَاهَا
تَهوى الحَقائق بالتَــصوُّر لَمْحَة والحكــمَ والــبُرهَان مِنْ مَرآها
لا تَتقِي شَــرَّ المَنُــونَ فَــإنَّما حُكم المُهَيمن مِــنْ دَهاه وقَاْهَا[180].

وكذلك يرى سَليم دي بسترس (ت 1235م) أن النفس خالدة، وهي من روح الله:

لا شيء غــير نُفوسَنا يَتَخَلد تلْكَ البقية غيرها لا يُوجد
وسَواؤها فَوقَ البَسِيطة كُله يُفْنَى وضمن تُرابِها يَتَوَسَّد
رُوح إله الكــون أَرسَلها إلى جَســد الفَنا نُوراً بِه يَتَوَقَّد[181]

ويقول أيضاً أَمين شميّل (ت 1908م):

النَفسُ مِنْ عالَمِ الأرواح لا عَرض يُفنَى ولا كَائن ينحل أَو جَسَدْ[182]

---

[179] سامي كيالي، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، ص 82.

[180] فائق مصطفى، الأدب العرب الحديث، بغداد 1987م، ص85.

[181] سليم دي بسترس، ديوان الجليس الأنيس، بيروت 1887 /، ص 44، 45.

[182] أمين شميّل، ديوان المبتكر، بيروت 1869 م، ص 111.

وأما الله جل جلاله، فهو المهيمن على كل شيئ، وهو المحيي، وهو الصمد، وفي ذلك يقول أمين شميّل:

هو المُهَيمن والأكوان صَاغرة تجــثو لِــقُدرَتِه العُلْيَا وتَــرتَــعد
هو العَزِيزُ هــو البَاقي بِقُوتِه هو الرحيم هو المُحْيي هو الصَمَد[183]

والله جلال جلاله هو الخبير، وهو المجيب، والمجير، فقم إليها الإنسان، وادع ربك، وفي ذلك يخاطب نَاصِيف اليَازِيجي (ت1871م) :

أَنْتَ الخَبِير بِــحَال عَــبْدِكَ أَنه بِسَــلاسِل الوُزرِ الثَقِيل مُقيَّد
أَنْتَ المُجِيب لِكُل دَاعٍ يَــلتَــجِي أَنْتَ الــمَجِيد لكُل مَنْ يَسْتَنجد
مِنْ أَي بَحْرٍ، غير بَحرك نَسْتَقي ولأي بَابٍ، غــير بَابِكَ نَقْصد[184]

وفي طاعة الله جلال جلاله، يقول المُلا حَسن المُوصلي البَزاز (ت1861م):

لِطَاْعته عِندي نَعيم وجنة وعِصْيَانه قَبل العَذاب عَذَاب[185]

والله جلال جلاله مبدع، صانع الوجود، خالد دائم على عرشه:

يَا مُبدعاً صَنَعَ الوجُود وكَونه يا مَنْ على عَرش الدَوامِ قَد اِرْتَقى[186]

ويرى سليم دي بسترس السعادة في فراق الروح الجسد الذي سجنت فيه، ووقوفها أمام الله جلال جلاله طاهرة، حرة:

وتفارق الجِسمُ الذي سَجَنَتْ به بِحَيَاته وإلى السَعادة تُقصَد
حَــتَّى إِذا تَــم المعاد وقد أَتى يــوم به كُل الخَلائق تَحشد
تُعْطِي إلى رَب الــعِباد حِسابَها فــي مَحْفَل فيه مَلائك تَشهد[187]

---

[183] أمين شميّل، الديوان، ص 109.

[184] ناصيف اليازيجي، مجمع البحرين، بيروت 1913 م، ص 432.

[185] لويس شيخوا، الأداب العربية في القرن التاسع عشر، بيروت 1926م، ص 105.

[186] نقولا الترك، ديوان المعلم، بيروت 1946 م، ص 297.

[187] سليم دي بسترس، الجليس الأنيس، ص 45.

أما الموت فهو لا بد منه، والإنسان فانه يزول مع الزمان، وما الدنيا إلا سفر إلى أبدية لا ترجع. وقد أبدى الشعراء عامة أسفهم من الموت. فالإنسان يولد للفناء وقد عبر ناصيف اليازجي عن هذه الفكرة في إحدى مراثيه بقوله:

لِلمَوت يُولّد مِنا كُل مَولود   يا أَيّها الأمّ رَبي الطِفْلَ لِلدُود[188]

إنما يؤمن الشاعر بأن الحياة ظل منتقل، بينما الموت يسير بالإنسان إلى دار الخلد :

إنَّ الحَيَاة كَظل مَال مُنتَقِلاً   إِلى الحَياة بِدَار الخُلد تَنْتَظِر[189]

والموت أخطر ظاهرة في الحياة، إنما منقذ، مريح للبشرية، إذ هناك أناس لا بد من زوالهم وموتهم:

الموت أَعْظَمَ شيء عِنْدَنَا خَطَراً   والموتُ أَيسَر مِنْ عقباه في الخَطَر
والموت لَــيسَ بِــجَيد لَــكنِما   لَــولاه كَــان الــحَال لَيسَ بِجَيد[190]

هذه هي بعض القيم الدينية التي ظهرت بوضوح في شعر القرن التاسع عشر لا سيما في أواخره. وقد امتاز هذا العصر بالحرية الشخصية، والفكرية.

وإلى جانب هذه القيم ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر المدائح النبوية، تغنى الشعراء "بمزايا الرسول الحميدة وأخلاقه السامية حتى بلغ بهم حدّ السخف فوصفوا له المعجزات والخرافات التي يبرأ الدين والرسولة منها، وبالرغم من صدق العاطفة... فقد كان جله ركيك العبارة ضعيف البناء"[191].

ومن أشد الظواهر الفنية في مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم معارضة شعراء القرن التاسع عشر للمدائح النبوية، التي تغنى بها أصحابها بالرسول الأعظم، وخصوصاً مدائح البوصيري: الهمزية، واللامية والبردة، فقد خمسها الشعراء

---

[188] ناصيف اليازجي، ثالث القمرين، بيروت 1883 م، ص 67.

[189] نفس المصدر، ص 11.

[190] نفس المصدر، ص 12، 29.

[191] سالم أحمد الحمداني، الأدب العربي الحديث، ص 31.

وشطروها ومدحوا من قام بالتَخْمِيس والتَشْطِير[192]، وما ذلك إلا لما تتميز به من صدق أصحابها وعمق تجاربهم وحرارة عواطفهم.

ومن الشعراء التي خمست أيضاً، ابن الفَارض (ت 1235م)، وقد خمسها عبد البَاقي العَمري (ت1862م)[193] فقال:

قَد تَوَحَّدت في علاكا وتَفَرَّدت في بَدِيع حَلاكا
فَبِهذا وذا على سواكا (ته دلالاً فأَنْتَ أَهلٌ لِذَاكا
وتَحْكُم فَالحَسنُ قَد أَعْطَاكا)[194]

وقد خمس مُحمد سَعيد السُويدي وعلي الآلوسي وعلي السويدي لامية البوصيري وخمس همزيته عبد الباقي العمري بقوله:

لَعَلا الرسل مِنْ عَلاكَ انْطِواء وأُولو العَزم تَحْتَ شَأْوَاكَ جاؤا
ولِمَرقَــاكَ دَانــت الأصــفياء (كيف تــرقى رَقــيكَ الأنبِياء
يا سَمَاء مَا طَاْولَتْهَا سَماء)[195]

وكان للبردة نصيب وافر في شعر شعراء ذلك القرن، فقد شطرها عَبد الوهاب النَقشَبَندي ومحمد سعيد السويدي.

وفيما عدا التخميس والتشطير، فقد استشف العديد من الشعراء، من مدائح البوصيري روحها ومعانيها. فنظموا مدائحهم النبوية. ولا يتسع المجال هنا لذكر تلك القصائد لكثرتها كثرة مفرطة.

ويبدو أن الشعراء قد أيقنوا أنهم في مدائحهم تلك، كانوا يتقربون من شخصية الكريم فكانت واسطة يتقربون بها إلى الله ويطلبون بواسطتها الشفاعة من رسوله

---

[192] التخميس والتشطير: النخميس هو أن يقدم الشاعر على بيت غيره ثلاثة أشطر فيكون مجموعها خمسة أشطر، أما التشطير هو أن يزيد الشاعر إلى أبيات غيره عجزاً لصدر وصدراً لعجز، في البلاغة يعتبران من المحسنات اللفظية الايقاعية في باب البديع وغيرها.

193 عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلي، ولد بالموصل1790م، وولي فيها ثم ببغداد أعمالاً حكومية، وتوفي ببغداد.(ينظر الى الشعر والشعراء لاحمد ابو السعد، لبنان 1909من ص 55.)

[194] فائق مصطفى أحمد، الأدب العربي الحديث، ص 31.

[195] نفس المصدر، ص 21.

الكريم. ولقد انحصرت تلك المدائح في مجموعة من المعاني أخذها شاعر عن شاعر ويتصل معظمها بشخصه الكريم، في أخلاقه ومثله وصفاته ومعجزاته وما حققه للإسلام وجاءت تلك المدائح تعليلاً لما سبقها في المعاني والأفكار والصور والأساليب والبناء في المطلع وفي غير المطلع.[196]

أما مدائح آل البيت ومراثيهم، فقد اختصت بآل الرسول (صلوات الله عليهم) وتركز في قصة استشهاد الحسين، وما صحبها من صور المآسي والآلام التي زاد عليها الشعراء وبالغ فيها المؤرخون، بحيث أصبح لها طابعها المتميز، بما يثير العواطف ويعمق المشاعر.

ومن ابرز الشعراء في مدائح رسول الله، حَيدر الحِلّي وجَعْفَر الحِلّي والقَزويني والتَميمي والطَباطَبَائِي والخضري وابن كمونة. وقد ترجم (محمد علي يعقوبي لأكثر من ثلاثين شاعراً، ولو أضفنا إليهم شعراء النجف وكربلاء والكاظمية وبغداد لفاق العدد مئات الشعراء)[197]. يضاف إليهم عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس ومحمد شيث الجومرد والعشاري. أما تقرباً إلى الله أو طلباً لشفاعة رسوله صلى الله عليه وسلم أو نفيساً عن الآلام.

ويقف حَيدر الحِلّي (ت 1304هـ) في مقدمة الذين مدحوا آل البيت، وامتاز مدحه بتدفق العاطفة وعمق الشعور وصدق التجربة. ولاميته التي مدح فيها الحسين وآل بيته تعد من غرر القصائد وفيها يقول:

أَسَـــرة الـــهيجَاء أَتْـــرَاب الظَبا حُـــلفاء السَمر سَحْباً واَعتِقَالا

فَـــهِـــمَ الأَطْوَارَ حُـــلْماً وحُـــجاً والـــظَبا والأسَد غُرياً وصِيالا

أَن دَعوا خَفوا إلى دَاعي الوغي وإِذا النَـــادي حتى كَانوا ثِقالا

فَـــأَبَـــوا إلاَّ اتِّـــصَالا بِـــالظَـــبا وعن الضَيم من الرُوح انْفِصَالا

اَرخَـــصُـــوها لِلـــعَوالي مَـــهجا قد شَرَاها مِنهُـــم الله تـــعالى[198]

---

[196] علي عباس علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، ص 32.

[197] عز الدين يوسف، الشعر العراقي، ص 96.

[198] فائق مصطفى أحمد، الأدب العربي الحديث، ص 32.

والقصيدة طويلة، تحتشد بمعاني الشجاعة والبطولة والعزة والكرم، وتصف مواقف الحسين وصحبه في معركة الطف التي أبلوا فيها ضروباً من البسالة التي احتفظ بها التاريخ الأدبي والسياسي بالخلود.

ويليه في هذا الرثاء، الشاعر جعفر الحلي، الذي فاض شعره بالعواطف السامية، والمشاعر الدافقة، ولكنه لم يخرج من المعاني التي أشرنا إليها.

ويضاف إليها ما يتصل بآل الرسول من كرم المحتد وأصالة النسب وروعة الخلق والصبر على المكاره والتجلد في المواقف الصعبة.

2- القيم الإنسانية :

القيم الإنسانية ولا شك ثمرة من ثمرات الأديان السماوية، وما تولد عنها من فلسفات لا تعرف حدوداً، ولا تقف الأجناس ولا الألوان ولا الأوطان حائلاً دون إشراقها وتوهجها، فهي في أعمق أبعادها شجرة (المبادئ أو الحقوق الإنسانية) والتجرد من الأثرة والأنانية، تلك الشجرة تسقى بماء العدل والمساواة والحرية والإخاء والتعاون، فتجدد معالم الحياة وأوضاعها، وتقوى أواصر الخير والمحبة، من غير إعتبار لطيفة ولا لون ولا حسب ولا نسب ولا غنى ولا جهل ولا ثقافة...

فالإنسانية لا تعترف بالحدود، ولكن تعترف بالناس جيمعاً.[199] فكلهم سواسية كأسنان المشط، فهي عالمية في أسسها وفي مبادئها، "الجامعة الإنسانية هي أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان وأعقلها بفؤاده، وألصقها بنفسه، لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف، وإن كان ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ، أو أسطورة من الأساطير"[200]. وينطق بذلك الشاعر المغربي مُحَمد السرِغيني (و 1930م):

وهــنا أَفرشُ الحِجَــارةَ والتُّــربَ، وأَدعو إلى المَحبة قومي
ثم أَتلو علـــى الضَغَــائــن والــحقد، نَشيد التَّآزر والإنساني
كلُّ بَدْءٍ هو الخِتَــام، وَرُوح الناس، ظِــلٌّ لِــرُوحي وجِسْمي
أفلا نُنسف الحَــواجزَ بالعقل، ونَسْمو على الــعدو الــفانـــي
جئتَ قومي مُــبَشِراً، بِبُزوغِ الفجرِ، فـــي عَالم الفَنَاءِ السَحِيق
دَاعِياً للسلام، للروح، لله، وسَاع إلـــى الاَخـــاء الـــعـــمـــيق
أَتحـــدَّى السُدود والخلق، والبغض لأُلقى على الطريق ضياءَ[201]

وبين هذه القيمة تتراوح مقاييس العاطفة صدقاً، واستمراراً، وقوة، وسمواً فكلما كان الباعث مغلقاً بالسمو، ومبطناً بالإخلاص كان الصدق العاطفي في أوج فورانه،

---

[199] أحمد أمين، مجلة الكتاب، القاهرة 1967 م، العدد، ص 23.

[200] مصطفى المنفلوطي، النظرات، القاهرة ب، ت، ص 166.

[201] محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 22.

فلا كذب ولا رياء ولا تكلف، حتى أثر عن القدامى هذه الكلمة الخالدة، "وما خرج من ينبوع القلب، استقر في القلب"[202] فهناك في رأيهم طرفان: منتج ومستقبل، والمنتج هو الأديب، والمستقبل هو القارئ، أما ثبات درجة العاطفة – الذي يذكره بعض الدارسين – فلا يمكن أن نتصوره. حقيقة قد تستمر العاطفة كعاطفة الحزن أو الفرح فتسرى في أوصال القصيدة أو المقالة أو القصة روح الحزن أو الفرح مثلاً، أما أن تظل ثابتة في درجة قوتها من الكلمة الأولى إلى الكلمة الأخيرة، فذلك يستحيل من الناحية السيكولوجية والتطبيقية، لأن العاطفة دفقات، أشبه ما تكون بموجات البحر ولا شك أن الأديب كُلّمَا اتتهُ عوامل التركيز، وعمق المعاناة، إنبثقت العاطفة قوية دفاقة من بؤرة الشعور، ويكاد يكون صاحبها في حالة غيبوبة وإستغراق تام، لأنه يعاني عملية خلق، تسيطر على مشاعره وحواسه، وذلك قد يستمر لفترة ما، ثم لا تلبث هذه الموجة أو الدفقة أن تنجاب، وتتبعها موجة أو دفقة أخرى أقل منها، وقد تعود لقوتها مرة ثانية، وهكذا[203].

ومن هنا تتراوح العواطف قوة وضعفاً نتيجة لتفاوت درجات الثبوت، ولا شك أننا إذا أخذنا قصيدة كقصيدة الشاعر اِبن الرومي في رثاء ولده الأوسط، وقمنا بتحليلها، فإننا سنقف في ثناياها على نوع من تفاوت درجات العاطفة، فآناً قوية نابضة، وآناً يعلوها الفتور، وتمسها الصفة التي تذهب بمائها وحدتها[204].

فالمشهور عن الشاعر ابن الرومي أنه لم يرث تزلفاً وتكسباً، حتى إننا لنعتبر رثاءه مقياساً لصدق عاطفة الرثاء في الأدب العربي، فهو لم يرث إلا من أحب، ولم يبك إلا عزيزاً على نفسه كأمه وأخيه وزوجه وأولاده الثلاثة، وبخاصة ولده الأوسط فقصيدته تلك من حيث العاطفة تعد ذوب فؤاد حزين، لوالد شهد الداء يلح على فلذة كبده، فيخيل نضرته ذبولاً، وينقله من حمرة الورد إلى صفرة الزعفران، ثم لا تلبث طوة الأقدار أن يختطفه، وتغيبه في التراب مخلفة لهذا الوالد الحسرة، والقلب

---

[202] قدامة بن جعفر، نقد الشعر (تحقيق طه حسين والعبادي) القاهرة 1928 م، ص 49.

[203] نفس المصدر، ص 58.

[204] عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص 62.

المجروح [205]. فإذا به ذلك الإنسان المحطم الذي جرحت النوائب فؤاده، وثلمت النوازل عواطفة، فيجأر باللوعة في زفرات يعلوها النشيج، معبراً بذلك عما يؤج في نفسه من حرق تستعربين ضلوعه، وإذا هو شبح بآلامه فهو يشكو مأساة النفس المحزونة التي اكنوت بجوي الفاجعة، والوجدان الذي سحقته النازلة، فهو يبدأ بمناجاة هادئة، يستجدى فيها دموع العيون أن تواتيه، على ذلك يشفى ما يحسه من جوى، وهو أن ذلك لن يرد له ضائعاً، ولن يجد به نفعاً.

بُكاؤُكما يُشْفَى، وإنْ كَان لا يُجْدِي
فَجُوداً، فقد أَوْدى نَظير كَما عندِي[206]

فالعاطفة فيها من الصدق هذا الطلب الذي يستله من أعماق وجدانه، ويساعده على ذلك هذا المد في ألفات: جوداً وأودى نظير كما، ولكن ليست فيها صفة القوة لأنها لم تعترف بعد من معين الفاجعة، وإنما هي حكمة فيها تسرية عن النفس وسلوى للفؤاد.

وليست فيها صفة السمو، لأنه أعرض عن الإحساس بسطوة الموت، وقسوة الإحتضار، ليبحث عن الصور البديعية، ويقتنص فرائدها، ويؤوب بكلمة (نظيركما) التي نستشف منها جفاف الصورة البيانية لأنه يريد أن يفهم الناس من حوله:

أن منزلة الابن كمنزلة عيونه، محبة واعتزازاً[207]

إن التجارب الشعرية أياً كانت تستمد قليلاً أو كثيراً من التيار الإنساني، ومن النبع الغزير الذي تفيض به النفس الإنسانية، ولكن تبقى هناك التجربة الإنسانية الخالصة التي تستقطب كل المشاعر الإنسانية من حولها، فهي تقيس من القومية أصولها، ومن الخيالية فلسفتها، ومن الأسطورة حداءها الساحر الأنيق، وتزيد هي من بيانها الساحر نزعتها المثالية... لأنها تتلمس حقيقة الإنسان وسعادته، فترف على النفس آمال غضة تأسي لادواء الإنسانية وتفرح لفرحها وتتمنى لها طراوة العيش الهانئ، وتستنكر نواجذ الفقر، والحرمان، وذل السيطرة والعبودية، فالإنسانية هي

---

[205] مصطفى السحرتي، الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث، القاهرة 1948 م، ص 72.

[206] كامل الكيلاني، ديوان ابن الرومي، القاهرة 1963 م، ص 42.

[207] محمد صادق عفيفي، النقد والتطبيق والموازنات، ص 24.

الصوت الحنون الذي ينبض بالحب للبشرية جمعاء من غير إعتبار لطبقة، ولا لون، ولا حسب ونسب، ولا غنى ولا جهل، ولا ثقافة... إن الإنسانية لا تعترف بالإقليمات ولكن تعترف بالناس جميعاً[208]. ومن سمات هذه التجربة أنها تأخذ بين الواقع وتتجه به نحو المثالية، علها بذلك تجربة صدع الكيان الإنساني الممزق، وتتحول به إلى رؤى حضارية وإنسانية مليئة بعمق المعاناة وسعتها، وإنفتاح الشاعرية على ميادين البعث والنشور الحضاري الفلسفي، وكأنها تسمو وتتشوق إلى (مدينة أفلاطون) أو (عوالم الملائكة)[209]. وسنقدم بعض تجارب الشعراء في هذه المحاولة الكبرى الهادفة نحو الغاية السامية، والهدف النبيل والقيم الحضارية، "التي تضع المستقبل تجاه الماضي، والبعث تجاه الموت، والوجود تجاه العدم، وتضع الإمكان تجاه التخاذل والتحدي تجاه اليأس"[210]. وها هو ذا الشاعر فَوزي المَعْلوف (ت1930م)[211] يحلق بأمانيه نحو عالم الطهر والخير والجمال ليقبس منه حفنة من السعادة للبشرية في ملحمته بساط الريح:

في عُباب الفضاءِ فوق غُيومهْ
بينَ نَســرهْ
ونَجمــهْ
حيث بثَّ الهَوَاء بِثَــغْر نَسيمــهْ
كــلَّ عطره
ورقَّــته
حلَّق الشَّاعُر العــصاميّ مُــنذ ال بَدْءِ لكنْ بِــروحهِ لا بجسْمِه
ضَارباً في الفضاءِ مع ربَّه الشعــر، ومن حوله عرائس حُلْمه[212]

---

[208] عزالدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 112.

[209] ميخائيل أمطانيوس، دراسات في الشعر الحديث، بيروت 1968 م، ص 39.

[210] نفس المصدر، ص 39.

211 ولد فوزي بن عيسى إسكندر المعلوف في 1899م في زحله، شاعر لبناني، وأتقن الفرنسية كالعربية،وتوفي في برازيل.(ينظر الى الشعر العربي المعاصر لعز الدين إسماعيل ،بيروت، 1974م، ص 78)

[212] بدوي الملثم، شاعر الطيارة، القاهرة 1953م، ص80.

وهذا عبد الكريم التَواتِي شاعر الجزائر، يرى الجزائر تذبح، والكنغو تغتال والحاكم الفرنسي يريد منه الإعتراف بوجود فوارق دينية وجنسية ولونية[213]. فتخرج لنا تجربة صادقة، منزعة من صميم الواقع:

يا أَخي إِنني وأَنتَ على رغمِ الديانات في الــدنا أَخوان
والديَانات منذ تَوالت على الأَرض دَعتنا للــحب والإِيمَان
وكلانا: أَنا وأَنت خَــليفَان بــأَن نَــحْيَا فــي صَفا وأَمان
فلِماذا أَخــي تُنــكر قَلْــبَنا لــما وطَــدَت يــد الــرَحمان
وحَدت بيننــا المَصَائر والأَقدار، منذ كنا في ضَمير الزمان
المبادئ وللــون والجنس: أَلفاظ بِلا رُوح، أَو بُدون مَعان
والقَومِيات والدساتير والأَعرافِ من وضع عابدي الأَوثان
نَحن لا نَنتَــمِي لِشَرق ولا غَرب، ولكن ننتمي لذا الإِنسان[214]

وهذا الشاعر الليبي علي الرقيعي (ت1963م) يرسم صورة للمشعل الذي لا يخمد به مشعل الحرية، وللصياح الجديد الذي فجره على الإنسانية جمعاء، ويكون شعاره الأخوة:

أَخي رَغــمَ أَنف غــداة الشُعوب ورَغْــمَ السَــمَاسِــرة الخَادِعين
من اَتَجْــروا بِدِمَــاءِ الضُــعاف لِتَــعَلُّــقِــها عصبَــةً السَــافِكين
من اِسْتَعبَدوا الناس باسم الدِفاع عن الحق... باسم (السَلام) المُهين
تَقَدم، تَــطلّــع إلى الــعَالِيــات وشَــقَّ الــطَّرِيقَ مــع السَــائرين
أَخي رَغْمَ ما دَبروا في الــخَفاء فَلَن نَسْتَدِل، ولَن نَــسْتَــكِــين[215]

---

[213] محمد صادق عفيفي، النقد والتطبيق والموازنات، ص 84.

[214] نفس المصدر، ص 89.

[215] محمد صادق عفيفي، الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي، بيروت 1969 م، ص 484.

والشاعر مَحمود أَبو الوَفَاء يعمق التجربة، حتى تغدو فلسفة إنسانية، ويطلب إلى الإنسان العربي أن يشارك في بناء البشرية، وإحقاق العدالة والسلام والإخاء:

لا تُقلْ لي فـــي غـــدٍ عِـــند السَماء
سَوفَ تَلقى الرُوح أَو تَلقى الصَفاء
ولِـــمَاذا لَـــمْ يَـــكُن هـــذا اللـــقاء
ها هنا في الأرض إِنْ كـــان لـــقاء
والسَما والأرض، والـــكلُّ ســـواء
وابـــتِدائي كَـــان للـــغير انتـــهاء
وانتهاءُ الغير لـــي كـــان ابـــتداء
والمســـاواة، وتـــحقـــيق الاخـــاء
ذي هـــي الـــغَاية يا رُوح السماء
لا، ولكـــنَّ إِن يـــكن ثـــمَّ رجـــاء
فليكُن في الأَرضِ تَحْقِيق الرجاء[216]

إن الغاية القصوى عند طبقة الأدباء الفلاسفة أو الفلاسفة الأدباء، أن يصلوا إلى كبد الحقيقة باحثين عن جوهر الكون وماهية الإنسان، وروح الطبيعة وما وراء الطبيعة، وهنا تتأتى التجربة وهي تلوذ بالمنهج التفسيري، فتخرج في صورة أقرب إلى النثر منها إلى الشعر، لأن الشاعر يوجه اهتمامه إلى الآراء والأفكار، ويتساءل لعلَّه أن يصل إلى الحقيقة فهذا الشاعر جميل صدقي الزَهَاوي ينشد:

أَخْـــبِريني يا نَفسُ مَنْ أَنا، ماذا أَنت مـــني، ما مَبْدَئِي ما مَعَادِي
ما حَيَـــاتي وغَـــاية الله مَـــنها ما وجُودي، والقصْد من إِيجَادي
كيف جاءَت تَقوى الإِرَادة فـــينا مـــا عَـــلاقاتُ الـــرُوح بالأَجْسَادِ
علَّميني بـــما بـــه لك عـــلـــمٌ فَلَعلي يا نَفسُ أَلـــقي رَشَـــادِي[217]

---

[216] محمود أبو الوفاء، ديوان: عنوان النشيد، ص 65.

[217] مصطفى السحريتي، الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث، ص 45.

وهذا الشاعر محمود العَقّاد يصور من خلال تجربته، قضية من قضايا البشرية في حيرتها وقلقها، وعدم الرضا بوضع من أوضاع الحياة:

صَــغِير يَــطْلُب الكبرا والشَيــخُ وُدّ لــو صَغَــرا
وخَال يَشْتَــهي عَــملا وذو عــمل به ضَــجَــرا
وربَّ المَالِ في تَــعــب وفي تــعب مــن اِفْتَــقَرا
فهل حَاروا على الأَقْــدَا رِ، أَمْ هــو حَــيِروا القَدرا
شَكَاةَ مــا لــها حُــكــمَ سوى الخَصمين إِنْ حَضَرا[218]

وهذا الشاعر عبد الرحّمن شُكري (ت1958م) يعظم من قيمة الفكرة الإنسانية ويصور منزلته وماهيته فيقول:

وكم رَمَانِي الجور في الأخْدُود وقَــيَدوني، فَــهوتُ قُيُودي
واسْتَبْشَروا بِمَقْتَــلي وهُــلكي وبَينَهُــم لــو يَفْطَنُون مُلكي
وأَوسَعوا من نَــالَني عَــذاباً وَقَطَــعوا مــن لَحْمِه عقابا
فَصَارَ لي فــي قَتْلِــه انْتِشَار يُقَام لــي مِــنْ قَــبْرُه مَنَار
وصَارَ لي مِــنْ دَمِــه مُــراد يُخَــطَّ في الدَهرِ به السَداد
يذر ذرَّ البَذْر فــي الــرِيَــاح فَيَسْعد النُــفُوس بِــاللِقَاح
يا بَرماً بِالفِكْرِ يَبْــقَى خَنْقَــه أَأَنْتَ تَــدري سِــرَّه وخَلقه
فَكْرَ نُور الله فــي الــوُجُود فَعُمْرَه كَــخَلــده الــمَرِيد[219]

ومن القيم الإنسانية الأساسية هي القيم الجمالية، تعدّدت نوافذ الجمال، فهو في الخير والحق والمعرفة، وهو في السماء والكون والطبيعة، وهو في الطفولة والمرأة

[218] عباس محمود العقاد، ديوان العقاد، القاهرة 1950م، ص 62.
[219] عبد الرحمن شكري،الديوان، القاهرة، ص 79.

والشيخوخة، بل هو في كل شيء "وكأن الله جل جلاله حين يبدع الجميل يرسل في دمه مع الذرة الإنسانية ذرة من مادة الكواكب هي سر عشقه وجاذبيته"[220]، وإذا كان شاعر كأنيس المقدسي قد استهدى الجمال المطلق الذي يمنح من الخير والروح ويستمد منه كل فنان ويحيه، كما في قوله:

الحُسنُ نُور خَلف ستر عدا تَشعُ منه سَائِر الأَنْوَار
وقلَّما يَراه إلاَّ الأَولى أَنظَارهُم تَخْتَرق الأَستار
أَعْرَاضه تَغنى ولكِنما جَوهره باقٍ مَدى الادهار[221]

فإن شاعراً كابن الرومي يرى الجمال في شيء قد يبدو تافهاً، أو قليل القيمة كما في قوله:

ما أَنْسَ لا أَنسَى خَبَّازاً مَرَرتُ به يَدْحُو الرَقاق وشَكَ اللَمْح بِالبَصَر
ما بين رؤيَتِها في كفَّه كرةَ وبين رؤيَتِها قَوراءِ كالقَمَر
إلاَّ بِمِقْدَار ما تَنْدَاحُ دَائِرة في لُجَّة المَاءِ يُلقى فيه بالحَجَر[222]

وهذه التجارب الهينة، لا يغض من قيمتها أنها قليلة الشأن، متى إتطاع الشاعر أن يضيف عليها من شعوره وتصويره وأخيلته القوية ما ننفذ به إلى ما فيه من معان جمالية أو إنسانية.

وإذا كان شاعر كمُحمد الجَيَار (ت1975م) يرى في الحب أنه رسالة سماوية وأنه خرج به من العالم المادي إلى عالم الصوفية، كما في قوله:

أَنا عَاشِق بَحْراً خَفْياً لا يَرى قَلْبِي لَه شَطّ فأَين الثَاني؟
أَنا عَاشِق أُفقاً بعيداً غَامِضاً بَحْر السَنا فيه بِلا شَطآن[223]

---

[220] مصطفى صادق الرافعي، رسائل الأحزان، القاهرة 1924 م، ص 129.

[221] محمد صادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 68.

[222] أبو الحسن علي ابن الرومي، الديوان، تحقيق كامل الكيلاني، ص 341/3.

[223] محمد صادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 68.

فإن القيم الجمالية في الحب عند شاعر كراشد الزّبير يراها في العيون:

لِعينيكَ أَغــزلُ ضــوءُ الــقمر
وأَهدى النَــدامى رَقِــيق الزهر
وأَضع مــن نَجْمَــة كأَس عطر
بِحافَــاْته يَسْــــتَحــم الســحر
وأَرشــفُ مِنْ وَردة.. ريــقتها
لا نعش في الصدر حلماً خَــطر[224]

أما القيم الجمالية عند الشاعر كالشابي فهي في الخلق الفني، ومباه للتثقيف الشعري وتصافحنا هذه الأناقة في جل شعره:

أَيــام كانت للحياة حَلاوةَ الروضَ والمَطِير
أَيام لَمْ نَعْرف مِنْ الدُنيا سوى مَرحٍ السُرور
وبِناءَ أَكْوَاخ الطُفولة تَحت أَعْشَاش الطُيور
مَسْقُوفة بالورد والأَعْشَاب والورق النضير
نَبْنِــي فَتَــهَدمها الرياحُ فلا نَضُج ولا نَثُور
ونعودُ نَضْحَكَ للــمُــروجِ وللزنابقِ والغديرِ[225]

بينما نرى قيمة الجمال عند شاعر كعَبد المُعْطِي حِجَازّي (و 1935م) في خلق وإبداع وسحر وجمال:

إِن يكن للشَمْسِ نُــور أَو جَــلال فهو للــفنان مِــشْكَاة الحَيــاه
ذلــك الــفنــان وَحــى مــنزل أَنْطَقَ الصَامت، بَل أَحْيَا الموت[226]

---

[224] محمد صادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 68.

[225] راشد الزّبير، ديوان (أنفاس الربيع)، بيروت 1968 م، ص 11.

[226] يونس أحمد السامرائي، أبحاث في الشعر العربي، القاهرة 1980م، ص85.

ومن بين القيم الإنسانية الحب يجمّل النفس ويملأ جوانبها على تخيّل الأجمل والأفضل والأكمل ويحملها على التفكير في أمور الحياة وشؤون البشر وتقليب وجوه التصرف حماسة في العمل ورقة في المعاملة وإقداماً لا مثيل له على المخاطر واجتياز المصاعب والعقبات...

وكل حب حقيقي يسوق صاحبه إلى حالة فلسفية أو إلى شيء منها على أقل الاحتمالات. الحياة العاطفية هي التي تقرر مسلك الإنسان وسيرته وتتوافق أكمل التوافق وعاطفته الجمالية والأفكار التي هي محض أفكار تظل عاجزة ما دامت لا تلاقي عاطفة تكافح من أجلها ولقد لاقت الرومانطيقية ما لم يلقه مذهب من مذاهب الفكر والعمل والحياة والأدب وخاصة في العالم الأوروبي[227].

إهتمّ الإنسان منذ كان بالحب، والحب عاطفة قوية أو رابط متين بين إنسان وإنسان. وللحب أنواع شتى تختلف باختلاف الأفراد. وقد عبر شعراء العرب المحدثون عن هذا الحب بأنواع مختلفة، فكان حب الشاعر لله جلال جلاله ورسوله (ص) وحب الشاعر لوطنه، وحب الشاعر للإنسانية، وحب الشاعر لولده، وحب الشاعر لأخيه، وحب الشاعر لآبائه وأجداده، وحب الشاعر للمرأة.

وقد ارتفع معنى الحب في نظر الشعراء حتى أصبحوا لا يحبون لغاية بل للحب نفسه.وقد عبّر الشاعر فؤاد بليل بقوله:

احب للحُــب لا أَبْــغِي به غَرَضاً لــو كَان يَرحمُ أَحْشَائِي وأَجْفَانِي
أَنا الغَرِيبُ برُوحي بين من جَعَلوا للحُبَّ مَعنى وضيعاً غير رُوحَانِي[228]

الحب هو نور الكون، وهو قبس سماوي:

أَصْلِــحي الأَوتَــارَ لتريني إنَّ أَصْلَ الحب نور
واِسْمَعي الأَصْيَار إِذا تَغَنى فَوقَ هامَات الزُهور[229]

---

[227] شبلي الشميل، فلسفة النشوء والارتقاء، ص 29.

[228] فؤاد بليبل، مجلة الرسالة، قصدية الحب (السنة الثامنة) عدد 385، ص 17،18.

[229] علي حسن فدعق، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، القاهرة 1943 م، ص 153.

ونحن إنما نسير إلى الحب، وبه نهتدي لأنه نور الوجود، وهو أقوى من نور النجوم:

هي النُور الذي يَهدي البَرايا فَمَا تُجديكِ أَنْوار النُجُوم[230]

والمحبة مثل الحب "كلمة من نور، كتبتها يد من نور، على صحيفة من نور"[231]. والحب هو قبس من الله، لا بل هو الله، وهو إكسير الوجود، ومانح الحياة الكائنات جميعاً.[232]

هو الحُب إِكْسِير الــوُجُود بِلا مرا ولو لاه ما كــان الــوُجُــود كما تَرى
هي الحَي مَوْلُوداً، هو المَيت عَائِداً هو النَجْمُ قَد أَسْرى هو الصُبحُ والدُجى[233]

والمحبة وهَبة من الله جلال جلاله، وهي التي تزود الإنسان بالعالم والمعرفة وهي، على قول جبران: "معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما تراها الآلهة"[234].

هَبةٌ مِنْ عِنْدكَ المَحَبةُ يَــا رَب
وَزوّده بِالــمَحَبَــة مَــهــمَا[235]

على أن هناك كثيرين من الأدباء المحدثين الذين يرون أن المحبة هي طريق الوصول إلى الله، وهي الرباط الإلهي الذي يجب أن يرتبط به الإنسان على الأرض، حتى يستطيع أن يبني عالماً أعزّ من عالمه، فتأتلف القلوب ويشيع السلام:

أَو لَمْ نَبن بِالمَحَبة والرَأفَة دُنيا أَعزّ مِنْ دُنْيَانَا[236]

---

[230] أنيس المقدسي، المورد الصافي، ج 4، ص 325.
[231] جبران خليل جبران، رمل وزبد، القاهرة 1927 م، ص 40.
[232] شبلي الشميل، فلسفة النشوء والارتقاء، ص 30.
[233] جبران خليل جبران، رمل وزبد، ص 40.
[234] جبران خليل جبران، كلمات، القاهرة ، ص 73.
[235] يوسف الخال، الحرية، بيروت 1947 م ص 100-101.
[236] إلياس أبو شبكر، إلى الأبد، بيروت 1944 م، ص 60.

وهكذا نرى أن الحب والقيم الإنسانية هما من منبع واحد، ومن جوهر مقدس واحد، وهما من قبس الله جلال جلاله، وقد يشتد حنين الشاعر إلى معرفة ذلك الجوهر الأزلي العظيم، ويهيم شوقاً لرؤية الله جلال جلاله، والإتحاد به، يرى الكائنات جميعاً غرقى في الوجد الإلهي، وكذلك السماوات والجبال، ويخفق قلبه بحب الله الذي هو الخير والجمال والكمال حتى إذا ارتفع عن الأرض دعا ربه أن يضمه إلى صدره إلى الأبد، وفي ذلك تنشد فَدَوى طوقان (ت1997م)[237]:

السَمَاوات مِنْ حنين ووجـد مُخْتَبِئات خَـلْفَ الـغُيـوم الرقاقِ

والجِبَال الشماءَ تَشخص نحو الله سكرى في ذهـلـة المُشْـتَاقِ

فتبتهل إلى الله أن يضمها إليه:

ضمني... ضمني إِليكَ، فقد طَال إِنْفِصَالي وطَال بِي تَشَرِيدِي[238]

هذه الروح الصوفية التي هدفها الوصول إلى الله بواسطة الحب تتجلى في نفوس الشعراء عامة، والحب الصحيح هو صوت إلهي خارج من النفس الإنسانية، يشمل الكون كله، حتى إذا تحولت النفس إلى حب عرفته الله، لأن الله هو الحب الأزلي، الخالد.

ومهما يكن فقد لمسنا في شعرنا العربي الحديث، اتجاهاً جديداً في معنى الحب، وقد أصبحت المحبة مرادفة له كلاهما روح وخير ونور إلهي وحرية، لهما خصائص الدين الذي يحث على الفضائل، فهما دين الإنسانية.

---

[237] فدوى طوقان بنت المرحوم عبد الفتاح طوقان وشقيقة الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان . ولدت في مدينة نابلس في عام 1919. تلقت دراستها في نابلس ، ولم تتح لها الظروف إتمام تعليمها الجامعي في الخارج فأكبت تسد هذا النقص بالدراسة الشخصية ، وكان ابراهيم طوقان شقيقها ، يتعدها بعنايته بالإضافة إلى دروس خاصة في اللغة الإنجليزية التي ما انفكت تطالع آثارها بجد واستمرار وتوفي في عام 1997م.(ينظر الى نقد الشعر العربي، لنسيب عازار، بيروت1939من ص63)

[238] يونس أحمد السامرائي، أبحاث في الشعر العربي، ص55.

3- القيم الأخلاقية :

القيم الأخلاقية هي صانعة للثقة، والثقة صانعة للتقارب والتحابب والتشارك الحياتي والوجداني، فعندما نفقد الثقة بإنسان مهما كان قريباً تتقطع حبال المودة التي تربط وجدانياً بين القلب والقلب، وبذلك يكون الخلق هو المؤسس للقاء الحقيقي بين الناس، وتُسهم أضائته والتشريع له ومطالبة المؤمنين بالالتزام به، في فتح باب بين الأديان.

إن القيم الأخلاقية هي مساحة مشتركة بين الأديان[239]، وما من دين سماوي إلا ويؤكد كونها من علامات الإيمان والتقوى في الإنسان المؤمن.. وإلا فإلى أي حد يبقى المؤمن مؤمناً إن كذب وغش وتخلى عن أخ في لحظة حرجة، وتمسك بباطل، وأشاح بوجهه عن آلام الناس...

وهذه القيم الأخلاقية ليست "محسنات اجتماعية" بل هي في صلب الاجتماع الإنساني[240]. الناس على الحقيقة يتعاشرون ويتعايشون بالخلق ويتفارقون عند غياب القيم الخلقية وهنا، لا يعتد بالعلاقات القائمة على المصالح الشخصية لأنه لقاء ظاهري لا حقيقي.

أحياناً يتم التعبير عن الأخلاق بالآداب فيقال فلان مؤدب عنده أخلاق أو فلان عديم الأدب لا أخلاق عنده، وأحياناً يعبر عن الأخلاق بالقيم فيقال فلان عنده قيم.

وقد تكون قيمة أخلاقية من ناحية تصويرها للفضائل، والمثل العليا، وقد كان للعرب القدامى مقاييس في أنماط الفضيلة والمثل العليا، فهي في الخَير، والعَدل والتَواضع، والصِدق، والتَقوى، والشَرَف، أو العَطَاء، والشَجَاعة، والمشاركة في المنشط والمكره،

---

[239] عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص 58.

[240] رشاد رشدي، ما هو الأدب، بيروت 1960م، ص 46.

ومن أبرع من صور إحساس (المشاركة) عروة بن الورد حيث يقول:

إني امرو عَافي انائي شــركةُ وأَنْتَ امــرؤ عَــافي إِنــائِكَ واحد
أَتهزأُ منِّي إن سَمت، وأَنْ تَرى بِوَجهي شُحوب الحقِّ، والحقّ جاهد
أُقَسمُ جِسْمِي في جُسُوم كثيرة وأَحسُو قِراحِ المَاءِ، والمَاءَ بارد[241]

ومن أفضل من صور أهداف (التقوى) الحطيئة، في قوله:

ولستُ أَرَى السعَادة جَمْعَ مَالٍ
ولكــنّ التَّقــىّ هــو السَــعيد
وتقوى الله خيرُ الــزَّاد ذخــراً
وعند الله للأَ تــقــى مَــزيد[242]

ومن أبرز من تغنوا بمناقب الشرف والشجاعة عمرو بن معد يكرب الزبيدي في "داليته"

ليــس الــجمالُ.. بــمئــزر
فاعْــلَمْ، وإِنْ رُدِّيــتَ بُــرداً
إن الــجمــال.. مَــعــادن
ومنــاقبٌ، أَوْرثــنَ حمداً[243]

غير أن شعراء العرب المحدثون كانوا يتشأمون عندما يتأملون في حياتهم الواقعية اليومية، فيرى الشاعر الظلم والفقر والتخاذل وعدم وجود القيم الأخلاقية والإنسانية سارياً في نفوس قومه، ويرى الشاعر الإضطراب سائداً في بلاده فيتألم، إنما هذه الحقيقة الواقعية لا توقفه عن إيمانه بالإنسانية والأخلاقية إيماناً كلياً، والمنادة

---

[241] عروة بن الورد، ديوان عروة، بيروت بدون تاريخ، ص 29.
[242] أبو الفرج الإصبهاني، الأغاني، ص 146.
[243] نفس المصدر، ص 24.

بها ولو حلفه غالياً، لأن الشاعر من طبيعته أن يبحث عن عالم كامل حيث العدل والصدق والخير والشرف والعطاء والسلام، والشاعر يهوى الإنسانية بالقيم الأخلاقية، يهوى السلام الذي تشيعه بين الناس:

فَابَعث النُور عــلى هــذا الثَرى يزد هي الرَوضَ ويَنْجَابُ الظَلام
إنَّ هذى الأَرضَ ظَمأى كَالورى فَــمَتى بــالله يَــرْوِيها السَلام[244]

أما الشاعر إلِيَاس قُنصل (ت 1914م) فيحب السَلام والعَدل، ولكن يرى العدل مخذولاً بين الناس، فيتعذب ويأس، غير أنه يجد في الصبر خير عزاء.

أَنا أَهوى السَــلامَ والــعَدلَ لكن مَــنْ يحب السَــلامَ يَبْل بِخَذل
لا تَسَلْنِي عَــنْ الأَنْــامِ فَمِنــهُم كُــلّ دَائِــي، ومِنهُم كُلّ حُملي
أَيّها الطــائِر المُعَــذب صَــبْرَاً فَهوَ يَجْلو سُحب الغُيُوم ويَسْلي
أَنْتَ مِثلي، تَشدُو حزيناً سَجِيناً لا توقِّع أُنشُودة الــيأس مثلي[245]

ويقول أيضاً:
فَاصْبر على جور الزَمَان، ولا تَهب سَهم الجَوى
فاصبرُ ينْفَث في الــحَياةَ الانــشِراح والابتِهاج
لا تيأسنَّ ... فَقد يَروق البَحْرَ مِــنْ بعد الهِياج[246]

---

[244] حسين عرب، المنهل، بيروت بدون تاريخ، ص 517.
[245] إلياس قنصل، الديوان، بيروت 1931 م، ص 40-41.
[246] نفس المصدر، ص 3.

ويقول جُبرَان خَليل جُبرَان حول العدل في الأرض ويسأل هل يحيا العدل بين الناس؟ ومتى تصبح الأرض كلها ملك جميع الناس؟

فإذا الصَفْصَاف القي فَلَه فَــوق التُــراب
لا يَقُول السُرو هذي بِدعة ضــدَّ الــكِتاب
إنَّ عَدل الناس ثَلج إنَّ رَأَتْه الشَمس ذَاب[247]

ويتأمل جُبران في الإنسان، فيرى الضعيف الفقير الذي يسرق ليسد رمقه مذموماً محتقراً، أما القوي الغني الذي يسرق أموال شعبه، فلا يجرئ أحد أن يلومه خوفاً من سطوته. فقاتل الجسد يقتل بفعلته، أما قاتل الروح فلا يدري به أحد:

فَسَارقِ الزَهر مَذمُوم ومُحْتَقر وسَارق الحَقْل يَدَعى البَاسِل الخَطر
وقَاتِل الجِســم مَــقْتُول بِفِعْلَتِه وقَاتِل الــرُوحُ لا تَــدرِي بِه البَشَر[248]

وعندما يستفحل الشر بين الناس، ولا يرى الشعراء قبساً رحيماً بينهم يتشاءمون من الحياة والبشر، ويستعرضون شهداء الإنسانية الذين ضحوا في سبيل حياة مثلى ثم مضوا دون أن ينتشر العدل، والسلام، ودون أن يرتقي البشر، فيكثر الشاعر من التساؤل: هل زال الشر عن الدنيا؟ وهل زال الفقر والجهل والنفاق؟

بِرَبِّكَ هل مَضَى قــدر بــشرٍّ وخَبَث النَفس هل أَودى وزالا
وهل جَفَت دُمُوع النَاسِ طَرا وهل بَلَغُوا مِنْ العِيش الكَمَالا
وذلَّ الجَوِع هل قد زَال عَنهُم وكَــان سَــوَادهُم هُملاً مَذالا
أَصار العيشُ عَــدلاً واِعْتِدالاً وكان العيش مَكراً واِغْتِيالا[249]

على أن الشعراء المفكرين يبحثون عن الداء المتأصل في جذور البشرية، ويتساءلون عن الدواء لإحياء الإنسانية في كل قلب وفي العالم بأسره حتى تصبح ديناً

---

[247] جبران خليل جبران، المواكب، بيروت بدون تاريخ، ص 25.

[248] نفس المصدر، ص 26.

[249] عبد الرحمن شكري، ديوان، القاهرة 1978م، ص55.

عالمياً، ويقرون بأن العالم اليوم مضطرب، حائر يحتاج إلى نبى جديد، والنبى الجديد، في رأيهم، هو الإنسانية التي تشيع في الدنيا العدل والمساواة والإخاء، والتي تنشر السلام، والاطمئنان ليعيش كل فرد سعيداً، مطمئناً، فلا يخاف العوز ولا المرضى[250].

ولعل خير طريقة لبث روح الإنسانية والأخلاقية بين الناس جميعاً تكون عن المربين الذين يعنون بتربية الروح والفكر والقلب، وهم يهتمون بإثارة حب الإخاء والمساواة والعدل، ليس بين أفراد الأمة الواحدة أو الطائفة الواحدة وحسب، بل بين أفراد الناس جميعاً وأفراد العالم بأسره، وهم مدعوون لدعم الشعراء والفنانين الذين يحرقون نفوسهم لينيروا السبل المظلمة دون إعطاء الحول والنتائج والوعظ والإرشاد.

وكما نرى في ديوان الشاعر مُحمد رِضا الشبِيبي (ت1965م) من إتزان وروية، فهو يحث على مكارم الأخلاق والفضيلة، ولا يرضى بغير ذلك بديلاً.

وإذا لَمْ تَسْتَقِم أَخْــلاقَــكُــم ذَهــبَ الــعلمُ ذَهــابَ الــزيد
عدِّ عنكَ الرَوضَ لا أَرْتَاد لي غير أَخْلاق هي الروض الندى[251]

وقوله في هذه الأبيات التالية دليل على دعوته للخير.

المَال مأَرب كُلّ فــي ضَــاعَتِــه بِئسَ الضَاعة لا كانت ولا الأرب
يَسْتَعْجلون مِنْ الأَغْراضِ أَعْجَلها اينَّ التَــطَوع في الأَعْمَال والقُرب
يُقيّض الله رِزقــاً غير مُــحتسب إِذا مَــضى عمل في الله مُحتَسب
نَسْعَى ونَقْعُد والأَقْدَار حَــاْكــمة سِيانٌ فيها سُكون النَفس والطلب[252]

---

[250] يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 130.

[251] محمد رضا الشبيبي، الديوان، القاهرة 1940م ص 81.

[252] نفس المصدر، ص 81.

إنه ينظر إلى المال النظرة الدينية، فهو لا يصلح لأن يكون أرباً مقدماً على الدين وفضائل الأخلاق، ويريد أن تكون أعمال الخير تطوعاً، ويؤمن إيماناً صادقاً بأن رزقكم في السماء وما توعدون، ويدعو الناس من أجل السعي إلى مرضاة الله والتهيئ للآخرة:

خَلَّد لِنَفْسِكَ في العُقَبِي ذَخِيرتها ورَاع عُمركَ إنَّ العُمرَ مُنّهب[253]

ومن القيم الأخلاقية هي حب الوطن، والوطنية، هي حب هذا الوطن، والشعور نحوه بارتباط روحي وأخلاقي، وهي نزعة إجتماعية تربط الفرد بالجماعة، وتجعله يحبها، ويفتخر بها، ويعمل من أجلها، ويضحي في سبيلها.[254]

ومما لا شك فيه أن القيم الشعرية في مجال الوطنية، هي طهارة النفس والشعر الوطني الصادق لا تنكر قيمته، في تربية (المواطن)، وذلك بما يغرسه في النفوس من التحليق في سماء على النقور من الذل، وإباء الضيم، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار.[255] ونستمع إلى الشاعر أَحمد قَنابة (ت1950م)[256]: وهــو يــفتــدى وطـــنـــه بـــالروح:

أَفْــديكَ يــا وطَــنــي، ومِــثْلكَ يُفْــتدى
بالــروح مِنْ شر الجــهــالة والــعــيدا
إنْ لَــمْ اصك، وأَقْتَــحَــم فيــك الــرّدى
وطَنـــي، فلستُ فــتى عــلى نَهج الهُدى
أَي السَمَاءِ تُظلَّني أَيّ الــتراب يُــقلَّــني
أي النُفُوس تَجلني إنْ ضَاعَ تَفْكِيري سدى
أَهــوى رُبَاكَ، ولــحن طَيــرُكَ إنْ شَدَى
يَستَنْــهض وَادي، فيــشجــيه الصَّــدى[257]

---

[253] محمد رضا الشبيبي، الديوان، ص 66-68.

[254] محمد صادق عفيفي، الاتجاهات الوطنية في الشعر الحديث، ص 5.

[255] محمد صادق عفيفي، الشعر والشعراء في ليبيا، 1955 م، ص 116.

[256] نفس المصدر، ص 186.

[257] محمد صادق عفيفي، الاتجاهات الوطنية، ص 477.

وإلى الشاعر سُليمَان تربح[258] وهو يصور (الحرية) التي يتشوق إليها وطنه وقد اكتست تجربته بصد الإحساس:

تَــلاشى لَــيْلُ أَوهَامي ولاحتْ بنتُ أَحلامِي
عَرُوس تَسْــحر الدُنيا بــأَضواءٍ .. وأَنْسَامِ
مَشت من دلّها سكرى فدب السكر في هامِي
تمر وليس يُبــصُرها سوى المترفع السَامِي
تَراءَت في مخــيَّلــتي فَــكَانت ســرّ إِلْهَامِي
وقَرّتُ بين أَصــلاعي فكــانت رُوح إِقْــدَامِي
هــي (الحُرية المثلى) لِمَنْ لِوَصَالِها ظَــامِي[259]

وجسد الشعر العربي الحديث خلال الحرب معنى البطولة العربية والإستشهاد من أجل القضية الفلسطينية باعتبار القضية القومية المقدسة في ضمير الإنسان العربي. يصور الشاعر عبد اللطيف الكمالي حالة المجاهدة المقاتل الذي يتقدم القتال بشجاعة العرب فيقول:

وَهَبَّ المَجد رُوحه فَمَشَّى للــ مَوت بين الآمال والأغلال
لا يبالى أَتَحت أحمصة الزهــ ر إذا سَار أَمْ شَفَّارَ النِصَال[260]

والشهادة عنوان النضال الوطني والقومي والديني عبر تاريخ الأمة.. ودم الشهيد لا يذهب سدى، لأنه الماء الذي يسقي حياة الأمة.

---

[258] محمد صادق عفيفي، الشعر والشعراء في ليبيا، ص 172.
[259] محمد صادق عفيفي، الاتجاهات الوطنية، ص 482.
[260] سالم أحمد الحديث، الأدب العربي الحديث، ص 88.

ومن القيم الأخلاقية الأساسية هي التقوى، إذا كانت مراقبة الله عز وجل هي الثمرة الإجمالية للتربية الإيمانية، فإن التقوى هي الأثر المحسوس للإيمان. ومن عجيب فهم العلماء لها أنهم عرفوا بأنها: "ألا يراك الله جلال جلاله حيث نهاك، وألا ينقدك حيث أمرك."[261]

ولذلك لا يكاد الناظر في القرآن الكريم يمر على صفحة من صفحات المصحف إلا وجد التقوى منسابة فيها: فهي علة الأفعال وعلة الأقوال وعلة الإمتثال، وهي مجلبة محبته ورضاه، فأنى لمؤمن أن يغفل عنها أو يهمل إستعمالها في سلوكه كله. فالتقوى حساسية في الضمير وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم وتوق لأشواك الطريق، طريق النجاة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك رجاءً، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً.

فالدين الإسلامي كان عاملاً قوياً في تقدم المسلمين الأوائل وازدهار المدنية.. وسعادة الإنسانية قروناً. ثم إن واقع الدين الإسلامي بنصوصه وتعاليمه يثبت ما له من فضائل ومميزات فهو الدين الذي يدعو إلى المساواة بين البشر فلا فرق بين غني وفقير أو صعلوك وملك فهم كلهم إخوان متساوون في الحقوق والواجبات ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالأعمال الصالحة وتقوى الله جلال جلاله، لأن التقوى الدين الإسلامي في طبيعته لم يخلق طبقات من أبناء البشر ولم يفاضل بين ذوي المجد وبين مقطوعي النسب فقال الشاعر معروف الرصافي يؤيد رأيه:

ومَا تَركَ الإسْلام للمرءِ ميزة على مثله حَمن لآدم يَنْتَمِي
فَلَيس لثمر نَقْصه حَقٌ مُعْدم ولا عَرَبي بِخَسه فَضَّل أَعْجَمِ
ولا فَخر للإنسان إلاَّ بِسَعْيه ولا فَضل إلا بالتَقى والتَكرم[262]

إذاً فإن القيم الأخلاقية الكريمة هي أن تتوافق مع العقول السليمة والفطرة المستقيمة، وبها بعثت الرسل وانزلت الكتب قال تعال:"" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي

[261] محمد سليم، السلام الاجتماعي والتربية على القيم الروحية، القاهرة 1992، ص 48.
[262] معروف عبد الغنى الرصافي، الديوان، ص 130.

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"[263] فالله سبحانه خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق، وبالفطرة يتدل الإنسان على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به وكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (رواه البخاري)[264].

فالعبد في سيره إلى الله جلال جلاله عليه أن يعلم قدم الصراع بين الخير والشر وسنن التدافع بين الإيمان والكفر وبين أصحاب الصراط المستقيم من جهة والمغضوب عليهم والضالين وأصحاب المناهج الوضعية من جهة أخرى، والإنسان يتنازعه ويتصارع عليه الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء مما له أبلغ الأثر على أخلاق الإنسان وسلوكه وهذا هو موطن الابتلاء[265]، قال تعالى: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً."[266]

---

[263] القرآن الكريم، سورة الروم، الآية 30.

[264] البخاري، جامع الصحيح، كتاب الايمان، باب قول النبي، مصر، 1314هـ.

[265] سعيد عبد العطيم، الأخلاق، القاهرة 1989م، ص 25.

[266] القرآن الكريم، سورة الكهف، الاية 7

4- العوامل التي أضعفت القيم الروحية والإنسانية:

والآن يحق لنا أن نتساءل: ما هي العوائق التي وقفت في وجه الشعر، فصدته من التأمل العميق والإسترسال، في جميع مرافق الحياة؟ ولم يفرد شعراء العرب قصائد في التأمل في المشاكل الإنسانية؟

وقد أشرنا، في الفصل الأول، إلى أهم المشاكل الإنسانية المصيرية، التي يشترك بها كل إنسان، ويغتبط بمعرفتها كل بشري، في كل مكان وزمان، ويهتز لها القلب والفكر معاً. فهل وقف في وجه شعرائنا عثرات وحواجز، أثرت في شعرهم فجاء شعرهم، في سواده، شعر مناسبات، وشعر صور حسيَّة فوتوغرافية، تتصارع فيها المرئيات، إذ تبرز صورة فوق صورة، ولوحة فوق لوحة؟ على أننا لا ننكر روعة الشعر القديم بهذه الصور الحسية، إنما موضوعنا هو، كما سبق وبينا، البحث عن القيم الروحية والإنسانية في الشعر العربي، وبعبارة أخرى، موضوع القيم الروحية والإنسانية في الشعر العراقي، وإن شئت فقل موضوع أدب الفكرة، الأدب الذي يحمل في أخاديده فكرة لا تموت مع ذهاب العصر، ولا تزول مع تطور البيئة.

وبعد، فما هي العوامل التي أثرت في الشعر العربي القديم عامة، وحدت من تحليقه وانطلاقه؟

وقد حصرنا هذه العوامل في ما يلي، طبقاً لمن تصدى لها من المستشرقين والعرب المحدثين، على أن نناقش هذه العوامل واحداً واحداً، ونلقي عليها أضواء جديدة:

أولاً : البيئة ونظام القصيدة

ثانياً : التقاليد

ثالثاً : فقدان الحرية

رابعاً : عدم الإيمان بقيمة الإنسانية

وسنحاول أن نشرح في كل من هذه العوامل، ومنها ما هو خارج عن قدرة الإنسان، ومنها ما هو من صنع الإنسان.

أولاً/ البيئة ونظام القصيدة :

إن العوامل الطبيعية والاجتماعية، تعمل في تكوين عقلية الشعوب. وكان العرب القدماء يسكنون الصحراء، ويعيشون في الطبيعة القاسية، فامتازوا بعقلية خاصة أثرت في إنتاجهم الأدبي. وقد حدثنا إبن خلدون في مقدمته المشهورة، عن أهل البادية والسهول الصحراوية، هؤلاء الذين لا يستقرون في مكان، همّهم الغزو والخراب يبحثون دوماً عن الكلأ والماء، فإذا نضب بهم مقام إرتحلوا بخيامهم من مكان إلى مكان. فهذا القلق المستمرّ، والسعي المتواصل أثر في عقليتهم، وجعلهم يبذلون جهداً ونشاطَا كبيرين في السعي وراء الطعام والمأوى والطبيعة الرصينة، فلم يتح لهم مكان يستقرون فيه، ليهتموا بالصناعة وتحسين عيشهم، أو ليتأملوا في الحياة والأكوان. ومنهم كما يقول ابن خلدون (ت 1406م)، "أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة... فقلّما تجتمع أهواءهم" [267] ، وهم "أبعد الناس عن الصنائع[268]".

وهذه الحياة المحدودة، وهذه الصحارى الشاسعة الممتدة بلا ملل، فقد أثّرت كذلك في التعبير عن آمالهم وأمانيهم، بنمط خاص، ونغم مكرر، وقافية واحدة.

وقد بحث المستشرقون الغربيون في الذهنية السامية، لا سيما العربية منها، وقد إشتهر أوليرى (O'lerary) ونولدكي (Nöldeke) ورنان (Renan) وغيرهم بمباحثهم في الذهنية العربية. فالعربي الصميم، في نظرهم، لا ينظر إلى الطبيعة التي تحيط به إلا نظرة حسية، مادية، فيصف، إن كان شاعراً، ناقته، وفرسه، وحبيبته، أو أي منظر إسترعى انتباهه، وصفاً مادياً، لا تعمق فيه ولا خيالاً سماوياً مجنحاً.[269]

فقد أساء المستشرقون إلى الذهنية العربية من ناحيتين،

الأولى: أنهم أثَّروا في الباحثين العرب المحدثين، فلم ينطلقوا بدورهم لدراسة الذهنية العربية من مآثر الأدباء والشعراء أنفسهم، وراحوا يرددون ما قاله

---

[267] ابن خلدون، مقدمة كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، مصر، ص 151.

[268] نفس المصدر، ص 204.

[269] يونس أحمد السامرائي، أبحاث في الشعر العربي، ص 42,

المستشرقون من قبل، دون يغوصوا في صميم الكلمة العربية وما تحمله من شحنات وخبرات.

والثانية: أنهم لم يستسيغوا شعر العرب ونثرهم، زد على ذلك خطأهم في فهم المضمون، وفي فهم البيئة الصحراوية التي حاولوا أن يحمّلوها أكثر مما تحمل وأكثر مما يحمل إنسانها.

ولم يقف المستشرقون والعرب المحدثون عند هذا الحد، بل تابعوا البحث في عقلية العربي القديم بعد إختلاطه بالأمم المجاورة، وذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية، فلم يجدوا تأثراً بآداب الأمم بالرغم من تأثرهم بالحضارات المختلفة، لأن عقله لم يستسغ تعدد الآلهة مثلاً عند اليونان، وغيرها من الأمم، ولم يرقه سوى أدبه وشعره. فلم يأبه للحوادث الخارقة التي يلعب فيها الخيال الواسع دوراً كبيراً.

وقد إنتشرت الفلسفة في العصر العباسي، غير أن رجال الدين لم يعترفوا بها ولم يقبلوها, بل كفّروا القائلين بها، واضطهدوهم. وقد "كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام، وكانت الحياة الدينية تجذبهم إلى الوراء، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المختلفين"[270]. ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الحالة في إنتاج العرب الأدبي، ويظل محدوداً، ضيقاً، فالحضارة المادية "وحدها لا تكفي لترقية الشعر، ودفعه في سبيل التطور المنتج، وإنما يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة المادية، أشياء أخرى أهمها المخالطة الأدبية للشعوب الأجنبية"[271]. وذلك للتعرف برقيّهم الروحي، وأدبهم الإنساني الخالد. وقد كانت هذه المخالطة الأدبية ضعيفة جداً، فلم يعرف العرب "من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة، ونتفاً من الحكم والأمثال، فجهلت الأمة العربية جهلاً تاماً... آداب الأمة اليونانية... ولم تكن تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية"[272].

لذلك ظل أفق العقل العربي محدوداً، غير منفتح على آداب غيره من الأمم وبالتإلى لم يعرف أدبه التجديد، بل ظل تقليداً. وبحرمان العربي مثل هذا الإختلاط الذي يؤثر في العقلية، "حرم الأدب العربي نتيجته، وهي التجدد المنتج.. فجهلوا

---

[270] طه حسين، حديث الأربعاء، مصر 1937 م، ج2، ص 11-12.

[271] نفس المصدر، ص 15.

[272] نفس المصدر، ص 14.

الشعرالقصصي، والشعر التمثيلي، وجهلوا من الشعر الغنائي نفسه فنوناً كثيرة، وضروباً مختلفة"[273].

ولا يسعنا إلا أن نشير إلى أن فهم الشعر عند العرب قد اختلف عما كان عند سائر الأمم، كما أننا نقدّر تقديراً كبيراً مجهود الشعراء القدامى في تركيز الشعر وبناء نمط خاص يكاد يكون كاملاً، وتحميله ما استطاعوا أن يحمّلوه من خبرات روحية وإنسانية، ويوميات حياتية، ولو جاءت متفرقة هنا وهناك. فهل يضير الشعر القديم إن فقد فيه الشعر الملحمي أو القصصي والشعر التمثيلي مثلاً؟

ويجب علينا كباحثين في الأدب أن نعود إلى الأدب القديم بعقلية جديدة، وإيمان جديد لنغوص فيه، لا بوسائل أجنبية بل بوسائل عربية، من صميم حياته اليومية، وطبيعيته وبيئته. ولا شك في أن الشاعر القديم قد استطاع أن ينطلق بطريقته الخاصة، ويعبّر تعبيراً رائعاً دقيقاً عامّا يصادفه في صحرائه، وفي مدنه، فيسجله كما تفعل الصحف اليومية، فكان جريدة عصره، ومجلته، ومحاميه، ومؤرخه، وإسطوانته وتلفزيونه. كل هذه مجتمعة، فكيف يستطيع ذلك الشاعر، وهو في عصر محدود بوسائله، أن يعود إلى نفسه، ويعيش لنفسه فقط، ويحكي تجاربها دون أن يلتفت إلى كل ما ذكرناه؟ ألم تتوكأ عليه القبيلة، ثم الخلافة والإمارات في شتى مظاهرها؟ ألم يكن شعره سجلاً حافلاً لمآثر الخلفاء والملوك والأمراء وكبار القوم والقوّاد؟ ألم يترعرع في طبقة أرستقراطية يسجل أعمالها وأمجادها. حتى يستطيع أن يكون له من المال والجاه ما لتلك الطبقة الأرستقراطية؟ حقاً إن البيئة هي التي حكمت على الشاعر، فألقت على كاهله تلك المهمة العظيمة، فقيّدت جانحيه!

أما نظام القصيدة، وهي وحدة الشعر العربي، فقد جاء مكتملاً، محكماً، موحّد النغم والقافية، متنوّع المواضيع، يربط بنفس الشاعر وتر دقيق، متين، لا همّ له إذا تقدّم بيت على بيت بعد المطلع، إذ أن البيت كان وحدة القصيدة، يحمل كل ما يسبكه الشاعر من فكرة أو تجربة، وكثيراً ما استقرت فيه دون أن يلتفت إلى غيره، أو تتعداه[274].

---

[273] طه حسين، حديث الأربعاء، ص 15.

[274] سالم أحمد الحمداني، الأدب العربي الحديث، ص 172.

وقد تكون وحدة البيت في القصيدة ما جعل الشاعر أن يكتفي بهذا القدر، ويلتفت إلى بيت آخر لكي يحمّله فكرة ثانية، والبيئة والخبرة الإنسانية آنذاك، زد على ذلك الاعتماد على رويّ واحد في القصيدة الواحدة[275]. فكأن الرويّ في البيت قفل يفتح الأبواب ثم يغلقها.

إذا فالبيئة تفرض نفسها على الإنسان، فكيف الحال وهي في بيئة محدودة في وسائلها؟ وبالرغم من هذا فقد استطاع الشعراء القدامى أن ينطلقوا بأبيات متفرقة للتعبير عن اختيار إنساني عميق، وقيم رائعة لا نزال نتحدث عنها حتى اليوم. ولا ننكر أن نظام القصيدة القديم قد حدّ الشاعر، وحتم عليه ألا يتناول موضوعاً واحداً إذ من شروطها تعدّد المواضيع.

[275] يوسف عز الدين، الشعر العراقي الحديث، ص 86.

ثانية / فقدان الحرية :

إن هذا العامل هو من أهم العوامل التي أضعفت القيم الروحية والإنسانية ونعني بالحرية هنا حرية الفكر والقول والعمل، الحرية التي ينعم بها الإنسان، يحس بذاتيته فيخلق ويبدع من غير رادع يردعه، ولا نظام يقيّده. ونحن إذا قلنا بأن الفنون تتلاشى وتنعدم في بيئة فقدت حريتها، تشدّها الأغلال إلى الأرض، وتَباطَأ في حركة جانحيها حتى لا ترى ما وراء التراب ولا أرض. فكيف لمثل هذه البيئة أن يعطي نسوراً تحلق في الفضاء لتكشف الفضاء، أو تنطلق في الفلوات لتجعلها جنات للناس أجمعين؟

لا شك أن الشاعر العربي القديم لم ينعم بالحرية، وقد كبلته القبيلة والخلافة من جهة، ومن جهة أخرى كبّله العوز والحاجة إلى الإستجداء والإستقرار، حتى أصبح شعره لا ينطلق بلسانه، ولم يكن له بمقدار ما كان للعصر الذي عاش فيه، وللحكام الذين قرّبوه. زد على ذلك إتباعه نظام القصيدة القديم حتى يعبّر للمنافسين، عن قوته وإجادته في الشعر، يضاهي شعراء المعلقات من حيث بناء قصائدهم ومواضيعهم بالرغم من اختلاف الزمن. فاضطر الشاعر أن يتقيد بالنظم، لا يحيد عنه. وهمّه أن يرضي الخليفة أو الحاكم أو الوجيه[276].

ونحن لا ننكر بعض الإنطلاق عند الشعراء، إنما كما ذكرنا سابقاً، لا يتعدى البيت أو البيتين، فكأن الشاعر قد اكتفى بأن يكون سجلاً للحوادث والمناسبات متناسياً ذاتيته، متبّعاً أصولاً أنسته تلك الذاتية. حتى أن سواد الشعر العربي القديم تشابه إلى حدّ كبير بصوره وتشابيهه واستعاراته ومواضيعه.

والحرية التي أشرنا إليها، حرية الفكر والقول والعمل، كانت تتضاءل في العصور العربية حتى التلاشي، ولا سيما "في البلاد التي إستأثر بالأمر فيها حكام جاهلون، لم يكونوا أهلاً لأن يحموا حرية الفكر ويكفلوها لأصحابها، وكان الفلاسفة عرضة للاضطهاد في البلاد لأنهم اعتبروا خطراً على الدين والدولة"[277].

---

[276] إبراهيم السامرائي، لغة الشعر بين جيلين، ص 43.

[277] عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، مصر 1940 م.، ص 175.

وحيثما تترعرع الحرية، ينطلق الفكر والقلب. عندئذ لن تستطيع قوة أن تحد من نشاطها الخلاق المبدع. ولا يسعنا إلا أن نردد قول المتنبي الذي أراد أن ينعم بمثل هذه الحرية فدعا إليها بقلبه الذي لم يعرف الاستقرار، وعقله الذي لم يحدّه أي مدى إنما لم يجد تربة صالحة فراح ينشد:

الرَأي قَبْل شَجَاعة الشُجْعان هو أَول وهي المحمل الثاني
فإِذا هما اِجتَمَعا لِنفس حرّة بَلَغت مِنْ العُلياءِ كُلّ مكان [278]

[278] ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب، ج 2، ص 431.

ثالثاً / عدم الإيمان بقيمة الإنسان :

لم يكون للإنسان القديم عامة، قيمة ذاتية. ولم يكن للشاعر العربي كيان في قبيلته، بل ذاب فيها. وهو لسانها، يسجل مآثرها، وهو حاميها، يدافع عنها، يظل كنفها حتى إذا ارتكب خطأ أو فحشاً ثارت عليه القبلية، فتتقاتل قبيلتان من أجل سيّد أو من أجل فرس أو ناقة! وتتطاحن سنين عديدة لسبب تافه، فتهرق الدماء. والقتل شريعتهم لا يعرفون هوادة فيها، إذ أن أرواحهم ملك القبيلة، لا ملك أصحابها[279].

إن معنى الدين عند العرب في عصورهم الماضية، قد جعلهم ينظرون إلى الإنسان نظرة المخلوق الذي لا حول ولا قوة، وقد سيطر على تفكيرهم ووجودهم تعاليمه التي جعلت للإنسان العربي قالباً خاصاً، له محتوياته وشكله، حتى إذا انطلق من هذا القالب رُدّ إليه بالرحمة أو بالقسوة. وقد عزّز هذه النظرة إلى الدين نوع الحكم الذي لصق بالعرب منذ كان وجودهم الاجتماعي والسياسي، فالدين كان موجّهاً للإنسان العربي، ومربياً، ومقوّماً، ومثقفاً، يحمل له الحدود التي يتمشى عليها، تارة من القرآن الكريم، وتارة أخرى من الأحاديث الشريفة، إذ حمل الدين له قضايا حياتية مدنية مثلما حمل له قضايا روحية إنسانية[280]. وقد ظلّت الصلة حميمة بين الطرفين حتى أن الإنسان العربي قد وجد أمامه دستوراً، مهيّأً لحياته في الدنيا وفي الآخرة فاستسلم لواقعه الراهن طارحاً كل آماله وأمانيه على عاتق الدين، لأنه أكمل منه وأقوى، فخضع بكل قواه للبارئ العظيم الذي في يده مقاليد السماوات والأرض.

ولم يكن العربي وحده مستسلماً مثل هذا الاستسلام، ناسياً ذاتيته كما ذكرنا سابقاً، إنما هي الذهنية السامية التي أرهقت برهبة الله، قد حملت لنا فيما بعد أدياناً امتزجت بالذهنية الأوروبية، فحدّث من غلوّها وتقاليدها، وحرّرتها، فانطلقت تفسّرها بحرية كما شاء لها، حتى أعادت للإنسان فيها قيمته الذاتية، بعد أن اجتازت مراحل عديدة. ولعل الفكر اليوناني أهم مطهّر لها اذ غيّر مجراها، وأذابها في الفكر

---

[279] أنيس فريحة، الفكر العربي، بيروت 1950 م. ص 10.

[280] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، بيروت، 1972 م، ص 52.

الأوروبي، فتقلصت السيطرة الدينية على أذهان البشر[281]. إنما العرب عامة ظل يحمل في نفسه وقلبه بقايا الرهبة والرغبة، ولم يتحرر العربي القديم منهما.

وفلاسفة العرب قد نادوا بقيمة الإنسان، إذ حثّوا الإنسان على طلب العلم والسعي وراء المعرفة، حتى يطهّر نفسه مما علق بها من الجهل، وقد اعتبروا الجهل رذيلة، على الإنسان أن يكافحه بجميع رسائله، فرفضوا تحكيم أي قوة سوى العقل والمنطق، إنما هذه الدعوة انحصرت في طبقة خاصة من الفلاسفة والمفكرين الذين أكبّوا على العلوم ينهبونها، على أنهم لم يسلموا من اضطهاد الرأي العام آنذاك[282].

وقد بلغ المتصوف منهم بعد جهاد متواصل ذروة الكمال الروحي، عارفاً بكل شيء، عالماً بأسرار الأكوان والكائنات. وهذا السعي المتواصل وراء المعرفة والكمال عزّزت قيمة الإنسان، إنما ظلت أيضاً محصورة في فئة قليلة هي ذاتها أقدمت على المعرفة. أما السواد الأعظم من العرب القدامى فقد ظلوا مستسلمين لا يسعون إلا بمقدار ما يسمع به عصرهم، منتظرين قضاء ربهم، خائفين من آخرتهم لذلك لم يتعبروا الإنسان ذا قيمة، ولم يستطيعوا أن يعبروا عن الحياة بحيرة فكرية وإبداع متحرر، لا قرارهم بجهلهم. والشعراء "قلما اهتموا بالنظم الفكري أو الفلسفي اللهم إلا في الحكم والأمثال"[283]، القليلة العابرة. فالعربي لم يشعر بذاتيته وقيمتها لذلك قصّر شعراؤه عن التأمل الفكري المنظم العميق.

---

[281] عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 66.

[282] نفس المصدر، ص 66.

[283] أنيس المقدسي، الذكرى لَتتسون، ص 505.

رابعاً / ضعف النقد الأدبي :

ولم يكن النقد الأدبي القديم في جميع أطواره منظماً، واضحاً. فمن الطور الفطري إلى الطور التصنيفي فالتطبيقي، يخل من التشويش والاستطراد وعدم التركيز والتنظيم، إذ اكتفى الناقد في طوره الفطري، وكثيراً ما كان أحد الشعراء، أن يفضل بيتاً على بيت، أو لفظة، أو وصفاً على وصف، حتى تذهبا لقصيدة بأكملها مثلاً يحتذى به. إذ البيت وحدة القصيدة، والنقد بطبيعته تابع الفنون، يستمدّ منها أحكامه ويبنى عليها مذاهبه ومدارسه[284].

وبعد أن ترعرع الأدب، اشتدت الحاجة إلى النقد، فانطلق مرحلة أخرى فظهر في العصر العباسي كتب عديدة، كانت بمثابة مجاميع شعرية، مسبوقة بمقدمات نقدية في الشعراء وطبقاتهم ومراتبهم وفي الشعر وأغراضه، وكثيراً ما تخللها حديث عن عيوب الشعر وحسناته، كما فعل ابن سلام (ت845م) في طبقاته، وأبو تمام (ت845م) في حماسته، وابن قتيبة (ت 899م) في شعرائه والقرشي في جمهرته وغيرهم.

وقد اندفع النقد خطوة أخرى، نحو مرحلة التصنيف في النقد ونظرياته كما فهمها النقاد آنذاك، فنشأ علم البديع. وأول من ألّف فيه ابن المعتز. وألف قدامة بن جعفر كتاباً في نقد الشعر وضمّنه نظريته التي تفضل اللفظ على المعنى[285]، وكان اللفظ جيداً حسناً فما همّ أن يحمل معنى ذميماً أو غير شريف. وكذلك فعل أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين". أما عبد القاهر الجرجاني فقد ألف كتابين في النقد وهما دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، ضمّنهما نظريته التي ترى أنه من الواجب أن يأنس اللفظ إلى المعنى، ويتألفا في نظم سهل ممتنع ويحتويا على خبرة روحية إنسانية تروّض النفس.

وقد ألف ابن الأثير كتاباً في النقد دعاه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر". وبالرغم من أن ابن الأثير قد فضّل المعنى، فلم يستطع إلا أن يتوكأ على اللفظ، إنما يهمه أن يتضمن اللفظ معنى شريفاً.

---

[284] أيليا الحاوي، في النقد والأدب، ص 48.

[285] أحمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 65.

وإلى جانب هذه الفئة من النقاد الذين ألّفوا في النظريات، قامت فئة أخرى تؤلف في النقد التطبيقي، مطبّقة المقاييس النقدية المذكورة على دراسات مستقلة. فأبو الحسن الجرجاني ألف الوساطة بين المتنبي وخصومه، والآمدي ألف الموازنة بين أبي تمام والبحتري. جميع هذه المصنفات كما ذكرنا سابقاً، لم تخل من سوء التأليف والتكرار، وعدم التركيزوالتنظيم، وسوء الانتقال من موضوع إلى آخر.

وبالإجمال كان النقد ضعيفاً، همّه أن يتناول بيتاً واحداً أو لفظة واحدة ومهما يكن فلم يهتم النقاد القدامى بما وراء المبنى والمعنى، ولم يأبهوا للتجربة في القصيدة الواحدة، فبقي النقد لا يثير الهمم، إنما يثير المشاحنات، فينقر الشاعر من الناقد والناقد من الشاعر، ولا ينكر العداوة المستأصلة بينهما، إنما الناقد الحيّ، لا يسعه، إلا أن يساعد الشاعر، كونه سفيراً للقراء، يوضح ما غمض أو يشير إلى الجميل في شعره. ومن الذين أصابهم النقد اللاذع والعداوة الدائمة، هو المتنبي الذي حاول أن يترفع عن كل إنسان، يصعق النقاد ويثير سخطهم لأنه انطلق بتوليد معنى، أو استنباط كلمة، أو تجويز ما ليس بجائز. وبالرغم من هؤلاء النقاد، فقد تابع سيره، وصمّ أذنه، وترفع عن الردّ والمقارعة. أما إذا وقعت العين على العين، فيندفع بتهكم، يتهم الناقد بعدم الفهم والرطانة[286].

ولا شك في أن معظم النقاد كانوا محدودي الثقافة، معظمها ثقافة لغوية دينية، بذلك سبق الشاعر بأشواط كبيرة. ومن يلق نظرة على كتب النقد المشهورة، يحسّ بالفارق، إذ أن ثقافة أبي تمام مثلاً، والمتنبي، وأبو العَلاء المَعَرّي (ت 1057م) وابن الفارض (ت632هـ)[287] ، وغيرهم، سبقت النقاد أشواطاً كبيرة، فعرج النقاد واضطربوا في مشيتهم، إذ كثيراً ما عجزوا عن فهم معنى أو لفظة، فأخذوا على صاحبها الغموض والتعقيد، أو الخروج عن المألوف والمأنوس، وبنوا عليها حكمهم.

على أن مقاييس النقد عند أحدهم، لا تختلف عن الآخر، وجميعهم تحدثوا عن ائتلاف اللفظ وما يحمله من مَعانٍ وصور قريبة إلى الفهم والإدراك. وقد انخرط

---

[286] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص 55.

[287] ولد أبوالقاسم عمربن الفارض الحموي الأصل والمصري النشأة والمقام والوفاة في القاهرة 576 هـ، وقد توفي في سنة 632هـ.(ينظر الى الادب العربي في القرن التاسع عشر، لويس شيخو، بيروت 1926، ص23

الجاحظ أيضاً في الحديث عن الكلام الحسن والتعبير الجيد، فيرى أجود الشعر في تلاحم الأجزاء، وسهولة المخارج، حتى يجيئ مسبوكاً سبكاً واحداً[288].

ويرى قدامة بن جعفر أن حد الشعر "ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وائتلاف المعنى مع القافية"[289].

أما أبو هلال العسكري فيرى أنه "لا خير فيما أجيد لفظة، إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى، إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور القصد"[290], ويشبه المعاني بالأبدان، والألفاظ بالكسوة، ويعتبرهما ضروريتين لاكتمال الجسم[291]. ولعل عبد القاهر الجرجاني أوضحهم في المزج بين اللفظ والمعنى في التعبير عنهما، إذ رأى أن النظم بينهما هو النظم الذي يحدث بين اللفظ والمعنى، إذ اللفظة تأنس إلى جارتها، كما أن اللفظة تأنس إلى معنى جارتها[292]، على أنه يضيف إلى ذلك الذوق والإحساس الروحي، ويعتبرهما للناقد بمثابة العمدة لإدراك البلاغة في الكلام[293].

أما ابن الأثير فيشدّد على الذوق السليم للناقد الذي "هو أنفع من ذوق التعليم"[294]. إذ يعتمد عليه في النظر إلى الأثر الأدبي، ويشدّد ابن الأثير ألا تحمل الألفاظ إلا معنى شريفاً[295]، كما أنه يشدّد على الذكاء والفطرة لاستخراج المعاني والتذوق الأدبي، ولا يأنف من أن يأخذ المعنى، إن كان مليحاً، حسناً، من الجهَّال والرعاع[296].

على أن مدار النقاد جميعاً لم يتخطّ، كما لاحظنا، النقد الخارجي وما يحمله تآلف اللفظ والمعنى من معانٍ، مع الوضوح على أن "أجود الكلام السهل الممتنع"[297]، إنما اختلف بعضهم على قيمة المعنى، فلا يرى قدامة بن جعفر أي ضرر إذا حملت الألفاظ الجيدة معنى غير حميد أو ذميم، على " أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك

---

[288] الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة، 1956، ج1، ص 89.

[289] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مصر، 1948 م.، ص 20.

[290] أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، مصر 1952، ص 59.

[291] نفس المصدر، ص 68.

[292] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، القاهرة، ص 36.

[293] نفس المصدر، ص 418.

[294] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القاهرة، 1935م، ص 3.

[295] نفس المصدر، ص 29.

[296] نفس المصدر، ص 30.

[297] أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، ص 60.

إلى الغاية المطلوبة"[298]. وكذلك أشار العسكري إلى المعنى ذاته. أما الجاحظ وابن الأثير فقد شدّدوا على المعنى الشريف، على أن ابن الأثير لا يرى ضيراً أن يأخذ أيّ معنى شريف من أي إنسان ولو جاهلاً.

على أن النقاد القدامى لم يغوصوا في أعماق المرئيات والمحسّنات البيانية التي تحمّلها الألفاظ معانياً مختلفة، ولم يعبروا ما وراء الصور البيانية في الشعر اهتماماً مركزاً، إنما حكموا على الشعر وشرحوه وفسّروه بوسائلهم الخاصة التي لخصها النقاد القدامى أنفسهم في كتبهم العديدة، فحكموا على الشعر بوسائل اللغة والمحسنات اللفظية، والبلاغة، والفصاحة، والنغم العروضي. بهذا، كان النقاد موجهين توجيهاً لغوياً وبيانياً بتصاوير حسيّة مرئيّة سطحية، معتمدين على البيت، لا على القصيدة. فلم يدرس الشعر دراسة نفسية روحية[299]، ولم يبحث في الشعر بحثاً عميقاً، بل ظل النقد يحوم حول الأدب من زاوية محدودة، كثيراً ما غلب عليها الاضطراب والنقص والتشويش. فإذا ضعف النقد عند أمة، بقي أدبها يسير على وتيرة واحدة، همه التقليد لا الإبداع، والنقل لا الخلق والتجديد.

ولعل مواضيع النقاد المكررة، ومآخذهم المستمرة على الشعراء، وتشديدهم على عمود الشعر العربي، قد جعل الشعراء يحافظون على الشعر كما كان في الجاهلية خوفاً من التجريح والاتهام، فلم يكن في شعرنا القديم تجديد بالمعنى الصحيح، بل ظلت صوره كما كانت عليه من قبل، حسية مرئية، ولم نسمع بثورة الأدباء على هذا التقليد إلا نادراً.

لا شك في أن الناقد مشحذ النفوس ورافع الهمم، يدفع بالشاعر إلى عوالم قد تكون مجهولة في نفسه، إنما يد الناقد تأخذ بيد الشاعر لتعرفه إلى تلك العوالم، حتى إذا قام بتجاربه الروحية العميقة، صفقت له، فسمع صدى في أعماق، إذ أن الشاعر رفيق الناقد، والناقد رفيق الشاعر، هذا إذا تساوت التجربة والثقافة عند كليهما. ومهما يكن، فالناقد الحي هو مترجم الفنّان إلى الناس، ولا وجود للناقد دون الفنان. وقد خلا أدبنا القديم من مثل هذا النقد ومثل هذا الناقد، ولعل عدم ثورة الشاعرعلى أصولية القصيدة وعدم انتفاضته الجذرية، أقعد النقاد على السعي وراء ما لم يسمع إليه!.

---

[298] قدامة بن جففر، نقد الشعر، ص 12.

[299] مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص 43.

ذكرنا فيما تقدم العوامل التي أثرت في الأدب العربي القديم، فتحدث من تنوعه وتجدده وانطلاقه، وتأمله العميق. وقد حصرنا العوامل الطبيعية والاجتماعية والسياسية والدينية والأدبية بما يلي: البيئة ونظام القصيدة، فقدان الحرية، عدم الإيمان بقيمة الإنسان، وضعف النقد الأدبي. وهذه العوامل هي أهم الأسباب التي أثرت في الشعر العربي وحدت من نشاطه الروحي. فالأدب الروحي لا ينشأ إلا عن الحرية الذاتية، ولا يتغنى إلا بالقيم الإنسانية الخالدة التي ترفع الإنسان عن واقعة الراهن ليعيش خالداً إنسانية، ناشداً أبداً المثل العليا التي تكشف قيمة الإنسان. كل هذا كان العوامل التي أثر في الأدب العربي القديم وخاصة الأدب العراقي. والآن سوف نتحدث عن العوامل التي تقوي القيم الروحية والإنسانية في الأدب العربي الحديث وخاصة الأدب العراقي.

- العوامل التي تقوي القيم الروحية والإنسانية:

اولاً- الثقافة
ثانياً- الحرية
ثالثاً- النقد
رابعاً- التواضع

أولا / الثقافة :

ينبغي على الأديب العربي الحديث أن يفهم الأدب القديم، والثقافة العربية القديمة عامة، وأن يتصل بالثقافة الغربية الحديثة. فمن أهم ميزات الأديب سعة الاطلاع والإلمام بآداب الأمم على الإطلاق، وفلسفتهم وعلومهم وفنونهم. فالثقافة العميقة تساعده على طرق أبواب جديدة، ومعالجة مواضيع عميقة اشترك فيها العقل والشعور معاً، فيقوى الإنتاج الأدبي، ويبلغ درجة الأدب العالمي الذي لا يعرف الحدود ولا السدود، ويؤمن بالحياة الراقية، وما تحمله من حضارة. وثم يهضمها حتى تصبح جزءاً من ذاته الكبيرة.

فالاديب العربي الحديث يجب أن يلتفت إلى الثقافة العميقة، ويأخذ جاداً، متصوفاً في سبيلها، حتى يستطيع أن يرتقي بأدبنا الحديث إلى الدرجة العالمية، يساعده على ذلك حكومة فاضلة ، لاتدفن مواهب أبنائها، ولا تسخّرخلقهم وإبداعهم للمادة الطاغية خوفاً من العوز والفقر، بل تساعدهم على نشر إنتاجهم الفني، وتكفل لهم حياة راضية، وتشجع فيهم الاختصاص الأدبي والإنقطاع اليه، لأن الأدباء ، على حدّ قول طه حسين، لن يستطيعوا ((أن يفرغوا للإنتاج الأدبي القيّم الذي يذكي الثقافة ويرقبها، ويهذب الأذواق ويصفيها، وأن يعملوا مع ذلك ويجاهدوا لكسب حياتهم اليومية))[300].

[300] طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، مصر 1938م ، ج: 2 ، ص 506.

بهذا يكون للأمة العربية أدب جديد ، وليد العصر الحديث وحوادثه ، اذ لا يجدد في الأدب سوى شعراء واسعي الإصلاح والمعرفة ، هؤلاء الأدباء يسعون دوماً وراء المعرفة ، وياخذونها اينما كانت ، ويتعمقون فيها.

ومن اهم ميزات الشاعر أن يكون ضميره حياً و" جذوته دائماً ، وقلبه مرآة لكل شيء"[301] حتى يستطيع أن يكون وعاء حياً للثقافة الحقيقة الحية ، ومن واجب الأديب ((أن يكون مثقفاً ثقافة منظمة عميقة مهضومة ، وبالتإلى ينبغي على ال بلاد العربية أن تفهم أن الأدب لم يخلق من العدم والفطرة والسذاجة))[302] . فالثقافة الصحيحة تجعل الأديب ممتازا ، خالداً، عبقرياً ، يجدد نظراته باستمرار ، فهو ابن عصره ، وابن الزمن الذي يحيا فيه ، وليس ابن العصر الجاهلي والقرون الوسطى فكيف يستطيع الأديب العربي أن ينتج ليساهم في الأدب العالمي ، وهو متأرجح بين الماضي الذي يجره إلى الوراء ، والحاضر الذي يدفعه إلى الأمام .

على أن الأدب العربي اليوم يغنى بواسطة الثقافة العميقة ، ويمتن ((بربطه بسائر الفنون التي تسعى مثله إلى الجمال ، وبتغذيته بمبادئ الفلسفة والعلم التي تؤلف عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الحديثة ، بل من كل ثقافة رشيدة))[303] . فالثقافة الحقيقية تحرر النفس من الماضي، والتغني به، وتعنى بالحاضر وترفيته، وتجعل الانسان طبيعياً، يحيا في صميم عصره وزمنه .

والثقافة تعلم الإنسان الحرية المطلقة، وتساعده على تحطيم الحدود المصطنعة والسدود المرفوعة بين الأفراد والأمم ، وهي لا تتعصب لجنس، ولا تأنف من اطلاع على فنون أي أمة، وفلسفتها وعلومها . والثقافة الحقيقية وطنها العالم، ورسولها الحرية، فإذا أردنا أن نحافظ على الأدب العراقي الحديث على خلوده، وجب علينا أن نلفت ادبائنا إلى ضرورة الثقافة العميقة، فالشعر الخالد هو أدب الفكر والشعور معاً لا أدب المناسبات والتزلف، فإن أردنا نهضة أدبية حقيقية كاملة لابد اتباع ما يأتي :

---

[301] طه حسين ، حديث الاربعاء ، ص 244.

[302] محمد مندور ، في الميزان الجديد ، القاهرة 1944م ، ص 70.

[303] قسطنطين زريق، الوعي القومي، بيروت 1940م، ص187.

أولاً: بالاطلاع على الأدب العربي القديم، والثقافة العربية القديمة عامة، ليس للتقليد ولا للتسخيف، بل لفهم الحركات الأدبية، ومراجعتها على أضواء جديدة لتقريبها إلى أذهان أبنائها، وتلافي الأخطاء التي وقع فيها الأدب العربي القديم.

ثانياً: بتغذية الإحساس بالجمال، والذوق بالفنون وانفتاح النفوس على الثقافة العالمية ولا سيما الغربية منها، وما فيها من علوم وآداب وفنون وفلسفة، ليس للتقليد ولكن لتجديد الفكر، وتلافي النقص فيه، وجعله من منصاف الآداب العالمية الخالدة وذلك لا يتم "إلا بعد أن تنصهر نفوسنا في الأدب العالمي انهصاراً صحيحاً، ونغذى عقولنا، وأرواحنا من معين الفكر الأوروبي الذي هو جوهر الفلسفة القديمة"[304]، على أن نحافظ على شخصيتنا. ومن هنا يرى محمد مندور (أن ندعو جاهدين إلى نقل الثقافة الغربية إن كنا نريد نهضة حقيقية)[305]. وينبغي لأدبنا الحديث على قول توفيق الحكيم "أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية إذا أراد أن يحيا، وأن ينتشر، وأن يفهم ويعترف به في الأرض عامة"[306].

[304] قسطنطين زريق، الوعي القومي، ص 187.

[305] محمد مندور، في الميزان الجديد، ص 87.

[306] توفيق الحكيم، تحت شمس الفكر، مصر، 1945 م.، ص 87-88.

ثانياً / الحرية :

الحرية المطلقة هي حرية الفكر والقول والعمل، وهي الحرية المنتجة التي تحرر نفس صاحبها من تقاليد الماضي، هدفها دائماً التجديد والتنويع لا التقليد والجمود. ومن طبيعة الأدب أن يكون حراً طليقاً، والأدب العميق هو وليد الحرية، إذ ينبغي على الأديب المثقف أن يحرر نفسه من الخوف أولاً، ثم ينبذ التقاليد البالية ويحطم الأصنام الموروثة، ويرتفع بنفسه إلى دنيا لا حدود فيها ولا سدود، مجتازاً كل عقبة في رحلته الشاقة هذه. فإذا توافرت الحرية للأديب تقدمت شخصيته، وانفتح عمله، وتجدد فكره وازدهر انتاجه، وترعرع أدبه خالداً[307].

وقد نبه المفكرون العرب إلى ضرورة الحرية الشخصية للأديب، حتى يستطيع أن يخلق ويبدع ما يشاء، وفي رأي طه حسين أنه إذا تركنا الحرية لأُدبائِنا كي "يظهروا النفس الإنسانية عارية، كما يفعل زملاؤهم الأوروبيون... ثق بأنهم قادرون على ذلك، خليقون أن يبرعوا فيه"[308]. وينبغي على الأديب أن يشعر بالحرية المطلقة التي تمكنه "من أن ينظر إلى نفسه كأنه كائن موجود ووحدة مستقلة ليس مديناً بحياته لعلوم أخرى... أو عوامل اجتماعية وسياسية ودينية أخرى"[309] .

ويجب أن يتحرر الأدباء والمفكرون من هذه العوامل، حتى يتاح لهم أن يقولوا ما يشاءون، فلا يسمح لأي قانون، دينياً كان أم مدنياً أن يظلمهم، بل يكتسب من اختباراتهم الروحية وتأملهم الصالح اللهم إلا إذا أساؤوا إلى الإنسانية فامتلأوا حقداً وبغضاً وسوء أدب. ويجب أن يتحرر أدباؤنا العرب من مركب الدولة والجمهور تكتنفهم الحرية من كل صوب، وتسهّل لهم الطريق للخلق الجيد والإبداع الجميل. وحيث لا حرية في البلاد لا رقيّ ولا تجديد. فالأديب الحقيقي هو الذي يضيق بالحياة الحاضرة، ويسعى دائماً إلى تحسينها. وهي خصلة، ويقول طه حسين: "يمتاز بها الرجل الراقي الحيّ، ولن يرضى عن الحياة رضى مطلقاً، قوامه الإذعان"[310]. وقد

---

[307] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث، ص 72.

[308] طه حسين، مستقبل الثقافة المصرية،ج:2، ص 512.

[309] طه حسين، في الأدب الجاهلي، القاهرة، 1933 م، ص 53.

[310] طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص 67.

شعر المفكرون العرب بحالة الأديب العربي الحاضرة، وكيف يعيش قلقاً، خائفاً، في بيئة موبوءة، وفي جو مسمّم، وبين مجموع متزمت، لا يستطيع أن يعبّر عن رأيه بحرية مطلقة. ولعلّ الحرية هي من أهم العوامل التي تقوي الإنتاج الأدبي، وتجعل منه أدباً إنسانياً خالداً، لا يعرف الخوف ولا الحقد، بل المحبة والإنسانية. فالأديب العربي اليوم يجب أن يثقف نفسه ثقافة عميقة، تتغلغل في صميم نفسه، مهما كلفه الأمر من المشقة والجهد، ثم يبدأ بالتّمرّد على عثرة في طريق تقدّمه ورقيه، وبالتإلى في طريق تقدم بلاده العربية ورقيها، فالحرية تقوي قلب الأديب وعقله، وتفتح أمامه آفاقاً جديدة، وقد رأى خالد محمد خالد أنه "لا بد من تغيير عالمنا العقلي أو تهذيبه وترويضه حتى يسمح لكل فكر جديد أن يمرّ به ويجتازه... لا بد من نبذ الجبن وقهر المخاوف وشحن ضمير الفرد، والمجتمع، والدولة بالشجاعة القادرة على مواجهة المشكلات وفضها"[311].

وبعد أن يتحرر الأديب من عالمه الداخلي، كما ذكرنا، ويؤمن بالحياة وتطوّرها ورقيها، ينبغي عليه أن يتحرّر من شبح الماضي، ليحيا بكل ذروة منه في الحاضر الذي يتطلب منه قوة وجهداً مستمرين، ليسير في ركب الحضارة العالمية، متأثراً بعقليتها النيّرة، مدركاً ثقافتها. ولقد آلم بعض رجال الفكر العربي أن يرو الشعوب العربية ما زالت تقلّد القدماء، وتسبغ على ما جاؤوا به صفقة من الجلال والتقديس فيتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث، ومقياساً من مقاييس النقد، غير أن طه حسين يجيبهم قائلاً "أما أنا فلا أقدّس القدماء، وإنما أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي وأعلم أنهم مثلي ومثلك، يجدون ويمزحون، يحسنون ويسيؤون"[312].

وقد دعا طه حسين كذلك إلى عدم تقديس اللغة العربية، وقد كبّلت هذه الحالة النفوس، فاليوم "تتحلّل اللغة من هذا التقديس يستقيم الأدب حقاً، ويزدهر حقاً، ويؤتي ثمراً قيّماً لذيذاً حقاً"[313]. فاللغة ما هي إلا مظهر إنساني، غير كامل تتطوّر وترتقي تحيا وتموت، هي ليست منزلة ولا موقوفة على الخالق العظيم، لأن الله أزلي خالد

---

[311] خالد محمد خالد، من هنا نبدأ، ص 223.

[312] طه حسين، حديث الأربعاء، ص 79-80.

[313] نفس المصر، ص 79-80.

فلا يصدر عنه ناقص ولا غير كامل. كما أن اللغة خاضعة للبحث والتجارب العلمية تتطور بتطور الحياة وضروریاتها. فهي من وضع الإنسان ومن اجتماعاته.

وبالتالي، فالأدباء المحدثون لا بد لهم أن ينزعوا عنهم القيود، وينفضون عنهم غبار الماضي، ويحيون في عصرهم الحاضر، ويؤمنون إيماناً قوياً بالعقل والعلم والإنسانية، متحررين من تزمّت التقاليد البالية التي لا تتفق ومتطلبات العصر الحديث.

وقد قاسى الأدب في مطلع نهضته آلاماً واضطهادات من جمهور الرجعيين المنتشرين في البلدان العربية، فعلى أدبائنا اليوم ألا يعيقهم عن سيرهم في طريق التجدد والتغني بالفكر الحديث أي عائق، وعليهم أن يدعوا أمتهم إلى ثورة اجتماعية أدبية فعّالة، تنفض عنهم سباتهم، وتقذف بهم في مركب المدنية السائر.

ثالثاً / النقد :

النقد الصحيح العميق هو النقد الذي يحي الأدب ويقوّيه، وينسّقه وينظّمه فيخلصه من التشويش والاضطراب والقلق. والنقد الصحيح هو الذي يفهم الأدب ويخلده. فالناقد يجب أن يتحلى بما يتحلى به الأديب، له ما للأديب من ثقافة عميقة، وحرية مطلقة، وله ما للأديب من ذوق مرهف، وخيال خصب، وعقل ناضج، وعليه ما على الأديب من رسالة خالدة، فالأديب هو فكر زمنه وقلبه، والناقد هو ترجمان الأديب وهما يعيشان جنباً إلى جنب في الأمة المتمدنة، فإن فقد الأديب الناقد فقد قوته وصوته. وقد اعتبر مصطفى الرافعي (ت 1937م)[314] الشاعر لسان زمنه والناقد عقل زمنه، وهما يعيشان معاً، إذ لا يكون الشاعر لسان "زمنه حتى يوجد الناقد الذي هو عقل زمنه"[315].

وقد يعتبر بعض الأدباء أن ما يجئ به الناقد خلق جديد، ولو مستنداً على ما جاء به الأديب، فالنقد الجيد "خلق جديد"[316].

لذلك على الناقد أن يجيد دوره ويحياه كما يجيد الممثل دوره الذي يلعب ويحياه فالناقد يستطيع أن يدرك مثلاً "ما في بكاء الديار عند هؤلاء القوم الرحّل من جمال وصدق"[317]. ومع كذلك كم نرى من أحمق يسخر من هذا البكاء؟ دون فهم للحقائق النفسية. فواجب النقد "هو فهم تجارب الكتَّاب والشعراء فهماً نفسياً لا تحدّه أصول ولا يمليه علم"[318].

والواقع أن النقد، على حد تعبير محمد مندور (ت1965م)[319]، "ليس، المهمة الهيّنة، ولا حمو في مقدور كل إنسان، إذ لا بد لمن يريد أن يحاول أن يكون غنياً

---

322 ولد مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن عبد القادر الرافعي في سنة 1880م في مصر وتوفي في سنة 1937، (ينظر الى تاريخ الادب العربي، عمر فروخ، بيروت1972م، ص23)

315 مصطفى صادق الرافعي، المقتطفات، ج 1، ص 30.

316 محمد مندور، في الميزان الجديد، ص 2.

317 نفس المصدر، ص 2.

318 عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، ص 42.

320 محمد عبد الحميد مندور من مواليد 5 يوليو عام 1907 ولد مندور بمحافظة الشرقية وكان ناقداً وأديباً كبيراً ورئيس تحرير الوفد المصرى وجريدة المصرى وصوت الامة وبلغت مؤلفاته 37 كتابا من اهمها "الميزان الجديد" وهو من اخطر الكتب التى صدرت عن النقد الادبى لم ينل تكريما لائقا باعماله وتوفى 19 مايو 1965 (ينظر الى تاريخ الادب العربي، عمر فروخ، بيروت1972م، ص52)

بتجارب الحياة"[320]، مثقّفاً حرّاً، نزيهاً، متجرداً من كل غاية سوى غاية واحدة وهي دراسة الأدب دراسة عميقة، مخلصة، تدلّ على فهم وإدراك لنفسيّته، وبالتإلى إنقاذه من الجمهور الهدّام، والتقاليد المتزّمنة، والحقد الذي يغمر قلوب بعض الذين يدّعون حماية الأدب. فمهمة الناقد مهمّة شاقّة، دقيقة، حسّاسة، لا تقل قدراً عن مهمة العالم أو الأديب، لأن "النقد هو فن دراسة النصوص الأدبية، والتمييز بين الأساليب المختلفة... النقد وضع مستمرّ للمشاكل"[321].

وقد يسيئ النقّاد إلى الأدب والأديب معاً عندما يقحمون في دراستهم هذه آراء "كوّنوها من مطالعاتهم في الكتب الأوروبية... إقحاماً بدلاً من الخضوع لذلك الأدب والصبر على فهمه، واستخلاص ما به في تواضع وإخلاص"[322]. فمن أهم صفات الناقد التواضع والإخلاص وعمق الفهم والصبر الطويل، ونحن ندعو أبناء العربية إلى قيمة النقد الصحيح الذي يكاد يكون مفقوداً بيننا، وإلى مهمة الناقد الشاقة، لكي يحافظ على الادب العربي، مستوحياً مقاييسه من الأدب نفسه على أن يكون من الفطنة بحيث لا يحاول أن يطبّق "عليه آراء الأوروبيين وقد صاغواها لآداب غير الادب العربي"[323]. بل يغوص في أعماق اللغة وما تحمله من مواقف إنسانية وتجارب بشرية، فينبّه إلى قيم لم يلتفت إليها أدباؤنا من قبل.

---

[320] إيليا الحاوي، في النقد والأدب، ج:1، ص 38.

[321] محمود مندور، في الميزان الجديد، ص 124.

[322] نفس المصدر، ص 109.

[323] نفس المصدر، ص 136.

رابعاً / التواضع :

ومن يقرأ الشعر العربي قديماً وحديثا يحس بكبرياء ما بعده كبرياء، وبنفس تخطب بيننا، واعظة، شامخة، ولم يفلت من هذا التعاظم والشموخ سوى القليلين من القدامى والمحدثين، ولعل الشعراء المهجريين هم الذين علّموا الأدباء العرب التواضع والهدوء، وقد نفر رَشيد أيّوب (ت 1941م)[324] من الشاعر الصلف، فاعتبر التواضع من صفات الشاعر الحقّ، فالشاعر المتواضع هو ((الذي يحبّ النفوس المتواضعة علماً منه أن هناك الجمال والحكمة))[325] .

وقد علّموهم كذلك كيف يَخْفِضُونَ صوتهم، ويهمسون بقلوبهم، وعقولهم إذ اشترك في أدبهم القلب والعقل معاً ، بذلك قدّموا لنا نوعاً جديداً من الأدب، نبَّه اليه محمد مندور وجعله مذهباً في الأدب ودعاه ((الأدب المهموس)) متأثراً بالغرب وعدَّد خصائصه بعد أن قرأ الأدب المهجريّ، ورأى فيه صدقاً جميلا، وتواضعاً محبباً ، وهمساً خارجاً من أعماق النفس في نغمات حاره ، ((غير الخطابة التي تغلب على شعرنا فتفسده ، إذ تبعد به عن النفس ، عن الصدق، عن الدنوّ من القلب))[326] .

وكذلك ينقص الأدب عامة الإلفة التي تشعّ من التواضع المحبب ، فيقترب القلب من القلب من الفكر، ولعلّ هذا الإحساس الدافئ هو الذي يقوّي الأدب ويجعله خالداً لما فيه من التعبير السمح الذي يتسرّب إلى قلب أي انسان، دون ان ينفر منه مهما تكن تجاربه، وبهذا نردّد قول محمد مندور((أن كثيراً من كتَّابنا في حاجة إلى التواضع، بل إلى السذاجة " وهنا يعني نكران الذات" ليأتي أدبهم مهموساً على نحو

---

325 رشيد أيوب: شاعر لبناني، اشتهر في (المهجر) الاميركي. ولد في بسكنتا ورحل سنة 1889 م، إلى باريس، فأقام ثلاث سنوات. وانتقل إلى مانشستر فأقام نحو ذلك، وهو يتعاطى تصدير البضائع. وعاد إلى قريته، فمكث أشهرا. وهاجر إلى نيويورك، فكان من شعراء المهجر المجلين. واستمر إلى أن توفي. ودفن في بروكلن. كان ينعت بالشاعر الشاكي، لكثرة ما في نظمه من شكوى عنت الدهر. له (الايوبيات – ط) من نظمه، نشره سنة 1916، و(أغاني الدرويش – ط) نشره سنة 1928 و(هي الدنيا – ط) سنة 1939 (ينظر الي الشعر والشعراء لمحمد صادق عفيفي، ص44)

325 رشيد ايوب ، ديوان الأيوبيات ، ص 86.

326 محمد مندور، في الميزان الجديد ، ص48 .

ما أتت معظم ألآداب الخالدة))[327] . دون تكلُّف، أو ثقل، أو تضخيم للتوافه، أو قل دون حقد ولذعات نزقة.

وقد أجاد محمد مندور في كتابه النقدي " في الميزان الجديد" وهو اتجاه جديد جريء في نظرنا، في إثارة مشاكل مهمَّة وخطرة في الادب العربيّ، كما أن كتابه هذا كان امتدادا .

ً لكتاب ميخائيل نعيمة (ت 1988م)[328] النقديّ " الغربال" إذ كلا الكتابين في نظرة الادباء، أساس للنقد العربي الجديد ، وتوجيه صميم، من ناقدين عربيين كبيرين يتحليان يصفان الناقد الناجح. ومن هنا، نستطيع أن نأمل الأدب العربي الحديث خلودا ً ، فننقده من القحط الروحي ، والضعف العام.

ومن هنا يجب أن يبدأ أدباؤنا مزوّدين بالثقافة العميقة، والحرية المطلقة التي تتجاوز الحدود القائمة بين إنسان وإنسان، وأمَّة وأمَّة، والنقد العميق الصحيح الذي يقدّم لنا الأدب بفهم وإدراك، ويحمله لبنة خالدة، فوق لبنات المجد والخلود، حين يتحد العالم بالتواضع الجليل في بناء ضخم، وحيث القلوب والافكار تنشد نشيد الإنسانية الرائع.

ومن هنا يدرك الأديب العربي أن رسالته هي ((الخلق والإبداع، خلق كيانه المفقود، توطئة للإبداع))[329] ، وتوطئه للوصول إلى ذروات المجد التي لا تقوم إلا على دعائم الإيمان بالعقل والحرية والإنسانية.

---

[327] محمد مندور، في الميزان الجديد، ص 4.

[328] **ميخائيل نعيمة** ولد في جبل صنين في لبنان عام 1889. وأنهى دراسته المدرسية في مدرسة الجمعية الفلسطينية في بسكنتا وتبعها بخمس سنوات جامعية في بولتافيا الأوكرانية بين عامي 1905 و1911 ، ثم أكمل دراسته في الولايات الأمريكية المتحدة (منذ ديسمبر 1911) وحصل على الجنسية الأمريكية . إنضم إلى الرابطة القلمية وكان نائبا لجبران خليل جبران في الرابطة، التي أسسها أدباء العرب في المهجر ، عاد إلى بسكنتا عام 1932 واتسع نشاطه الأدبي . لقّب ب"ناسك الشخروب" ، توفي عام 1988 (ينظر الى تاريخ الادب العربي، عمر فروخ ، بيروت، ص75).

[329] سامي الكيالي ، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، ص 93.

الفصل الثالث

1_ القيم الروحية والإِنسانيّة في المرحلة الاولى للشعر العراقي الحديث

2- القيم الدينية

3_ القيم الإنسانيّة والأخلاقية

1- القيم الروحية والإنسانية في المرحلة الاولى للشعر العراقي الحديث :

لأي جديد، في الفن، قديم سبقة وبالقياس عليه سمي جديداً، ولكل تجديد في الشعر تقليد وطأ له، ولولاه لما عُدَّ تجديداً، ويكتمل الجديد في القديم، والتجديد في التقليد.

ولا نجد مبرراً مقنعاً في أن نطالب شعراء ما قبل الإسلام بالتجديد، إن دعا عنترة في مطلع معلقته إلى ذلك، وآخرون، فالشعر كان أصيلاً، ولا معنى لحركة تجديد تظهر في شعر يواكب عصره ويعبر عنه ويقدم شخصية للشاعر مستقلة وواعية، أو في شعر يمثل بواكير الإبداع لدى أمة من الأمم.

وليس من النقد الحقيقي أن نخضع شعر المتنبي لمقاييس التجديد والتقليد، لأنه بموهبته ورؤيته وثقافته وشخصيته وتجاوز أي تقسيم مماثل[330].

والتقليد : إعادة وتكرار وسَطْو[331] على معاني الآخرين والسير على منوالهم، مبنى ومعنى.

والتجديد : أصالة ابتكار وجُملة شعرية متميزة ومتفردة، وليس في هذا تحديد أو تعريف له لأنه يرفض التقنين والقواعد الثابتة ما دام من صلب الإبداع الذي يختلف فيه الناس طبقاً لأذواقهم ومستوياتهم الفكرية، وتتباين في مفهومه العصور تبعاً للثقافة السائدة والتيارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المؤثرة[332].

إن محاولات التجديد في عالم الشعر العراقي، منذ نهاية العقد الخامس من القرن العشرين، سبقها تقليد امتد إلى قبيل سقوط الدولة العباسية وانتهى، وظلت منه بقايا تحيل الحاضر ماضياً صرفاً، وتلغي المستقبل بعداً زمنياً.

وشهد الشعر العراقي في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إمعاناً إصراراً وتمسكاً بالتقليد، ما عدا قصائد وإتجاهات محدودة، وتشبثاً بالأمثلة السيئة للعصور المتاخرة، ورفضاً لأية محاولة تجديد وإن كانت بسيطة فوطأ ذلك لظهور حركة

---

[330] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث، ص11.

[331] سطو: يعنى سرقات الادبية

[332] نفس المصدر، ص12.

تجديد في الشعر ساعدت عوامل زمنية وسياسية وثقافية واجتماعية على انطلاقها وذيوعها وترسيخها[333].

ناء الشعر العربي، بعد سقوط بغداد، بالتقليد. وتكررت المضامين وضعفت بإزاء تفخيم الأساليب الخطابية القائمة على البراعة اللفظية والمحسنات البديعية، ولم يمثل الشعر بتخلفه سوي ظاهرة من ظواهر الحياة الثقافية القائمة بتأثير عوامل الانحسار الحضاري والاحتلال الأجنبي والفقر والمرض....الخ.

وأوغل معظم شعراء القرن التاسع عشر في التقليد وكان الشعر عندهم، في أكثر أمثلته، لعبة تلهية أو تهنئة أو طريقة مزاح إخوانية، أو وسيلة تقرب ونفع ونفاق، أو كشفاً عن براعة لغوية أو إثباتاً لقدرات في النظم سريعة، او تاريخ ختان وزواج ووفاة، وافتقد الشعر التجربة الحية الأصلية، الخاصة والعامة، ونظم الشعراء قصائد في موضوعات غريبة شتى لا علاقة لها بالشعر[334].

وقد كانت أكثر البلاد العربية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعيش عيشة البداوة والزراعة، وتسير على وتيرة واحدة ساذجة محدودة المطالب، لكن هذه الحياة تطورت بعوامل كثيرة أهمها الطلائع المتحررة التي طهرت في الفكر والعقيدة والتفاعل الشعبي بين الأديب وأمته، فلم يعد الأدب بأساليبه القديمة ومثله الجامدة يستوعب مطالب الحياة الحديثة[335].

فثأر الأديب على "" عرار نجد"" و" النقا"" و"" منعرج اللوى"" و"" عقارب الصدغ"" وغيرها كثير مما كان مألوفا استعماله في القرن التاسع عشر، أعراض عن الوقوف على الديار والطلول لأنها ليست مما يراه في حياته الجديدة، ولا من متطلباتها، وصار يفتش عن معان جديدة باذلاً عنايةً خاصةً في ذلك، مؤثراً إياها على الألفاظ وموسيقاها[336]. بدأت الحياة تتغير ببطء في العراق أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وظهر فريق من الشعراء بلغت قدراتهم الشعرية أقصاها ما بين

---

[333] يوسف عزالدين، الشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية، القاهرة 1977م، ص45

[334] نفس المصدر، ص46

[335] يوسف عزالدين، في الأدب العربي الحديث، ص65

[336] نفس المصدر، ص73

الحربين العالميتين، ومنهم الزهاوي[337] والرصافي[338] والكاظمي[339]، وحمل هولاء الشعراء العبء. وكان الرصافى من أوائل الطليعة الواعية المتحررة التي تفاعلت مع الآراء الجديدة، فترك قديم الألفاظ وعنى بالمعنى وبالفكرة وبالرأى، تاركاً وراءه الأحتذاء بقصائد القدامى من الشعراء ومعرضا عن معارضتها غير مكترث بالقواعد والأساليب البالية التي لم تكن تخرج عن أغراض معنية وإصطلاحات محدودة في القرن التاسع عشر وقبله[340].

واهم انجاز حققه شعراء العراق، الموضوعات الفردية الشخصية السائدة في القرن التاسع عشر إلى الناس والشارع والاجتماعات التي تخلو أبداً من شعراء وقصائد وحماسة وتصفيق، وثاروا على قيم اجتماعية وسياسية وفنية، وطالبوا بالتجديد في الشعر ولم يصدر عنهم جديد فيه.

وإلى جانب هذه الشعراء ظهر شعراء يدعونا إلى تجديد في الشعر وفي موضوعاتها وأغراضها منهم علي الشرقي[341] واحمد الصافي النجفي[342] ومحمد مهدي الجواهري[343] .

---

[337] جميل صدقي الزهاوي ولد في بغداد عام 1863م وتوفي فيها عام 1936م.

[338] معروف الرصافي ولد في بغداد عام 1875م وتوفي فيها عام 1945م، يخترق نهر دجلة بغداد فيقسمها قسمين: الأول يدعى الرصافة وقد نُسب اليها الشاعر، والثاني يدعى الكرخ وقد نسب اليه شاعر عاصر ونظم بالعامية هو الملا عبود الكرخي. وللرصافي مؤلفات منها: على باب سجن أبو العلاء، بغداد 1946م. الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه، بغداد 1956م. رسائل التعليقات، بغداد 1936م.(ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977، ص20) .

[339] عبد المحسن الكاظمي ولد في بغداد عام 1865م عاش في مدينة الكاظمية، حيث تتلمذ هناك على أيدي علمائها وشعرائها. عاش الكاظمي في العراق ثلاثاً وثلاثين سنة ثم هاجر إلى مصر عام 1900م حيث قضى بقية حياته هناك وكتب معظم شعره فيها. لقد عاش الكاظمي في مصر حياة شعرية حافلة إلى أن توفي عام 1935م ودفن في القاهرة.(ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977، ص25).

[340] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث، ص57.

[341] علي الشرقي ولد عام 1890م في مدينة الشطرة، تلقى علومه الدينية والأدبية في مدينة النجف، ناصر الثورة العراقية عام 1920م فيما كتبه من شعر وطني وكذلك كان موقفه عند عقد المعاهدة العراقية الإنكليزية عام 1930م. شغل عدة وظائف هامة في الدولة منها عضو في محكمة التمييز ورئيس لهذا المحكمة، ثم شغل منصب عضو في مجلس الأعيان في عام 1947م ومنصب وزير للدولة منذ بداية الخمسينات. من مؤلفاته: ديوانه (عواصف وعواصف)، الأحلام ،مصر 1963م. العرب والعراق 1963م،. وتوفي في بغداد 1964م.(ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977،ص 33).

[342] أحمد الصافي النجفي ولد عام 1897م في النجف الأشرف وتوفي في بغداد يوم 1977/6/27م.

وكذلك ظهر في القرن العشرين شعراء يطلق عليهم الباحثون مصطلح الرواد حركة الشعر الجديد اي : أوائل من نظموا بالطريقة الجديدة، وهؤلاء الرواد هم بدر شاكر السيّاب[344] ونازك الملائكة[345] وعبدالوهاب البياتي[346] وشاذل طاقة[347] وعلي الحلي[348].

---

[343] محمد مهدي الجواهري ولد في النجف الاشرف عام 1900م في أسرة عرفت بمكانتها الدينية والأدبية. اجتاز عدة مراحل دراسية في معاهد النجف الدينية إضافة إلى مشاركته النشيطة في محافل المدينة الأدبية التي تفتح قابلياته الشعرية وثقافته العامة، حيث بدأت قابليته الشعرية منذ عام 1916م. يعتبر أغزر شاعر عراقي في القرن العشرين وله من اعمال الشعرية: بين الشعور والعاطفة، بغداد 1924م.معرض العواطف، بغداد 1928م.(ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977، ص 44) .

[344] بدر شاكر السيّاب ولد في ((جيكور)) أحدى قرى البصرة عام 1926م، وأتم دراسته في دار المعلمين العالية (قسم اللغة الإنكليزية) في بغداد حيث عمل أثر ذلك مدرساً في ثانويات العراق، بالرغم من أن حياة السيّاب لم تمتد طويلاً، الاّ أنه خلّف ثروة شعرية أحدثت انعطافاً في مسار القصيدة العربية، وبعض من المؤلفاته الشعرية: أزهار ذابلة، أساطير، أنشودة المطر، المعبد الغريق. وتوفي في الكويت يوم 1964/12/24م .(ينظر الى الشعر والشعراء في العراق، لابراهيم السامرائي، بيروت 1957م، ص 66).

[345] نازك الملائكة ولدت في بغداد عام 1923م وتخرجت في دار المعلمين العالية عام 1944م. اشتغلت بالتدريس في كلية التربية ببغداد منذ عام 1957م وخلال عامي 1959–1960 م تركت العراق لتقيم في بيروت وهناك أخذت بنشر نتاجاتها الشعرية والنقدية، ثم عادت إلى العراق لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعة البصرة إلى أن التحقت للعمل في جامعة الكويت. لنازك الملائكة عديد من مجاميع الشعرية منها: عاشقة الليل، شظايا ورماد، قرارة الموجة، شجرة القمر.

[346] عبدالوهاب البياتي ولد عام 1926م في مدينة بغداد. تخرج في دار المعلمين العالية عام 1950م، حيث عمل بعد ذلك مدرساً ولكنه لم يلبث أن فصل من الوظيفة عام 1953م عرض للاعتقال نتيجة لمواقفه الوطنية. ومن مؤلفاته : ملائكة وشياطين ،أباريق مهشمة ،كلمات لا تموت (ينظر الى الشعر والشعراء في العراق، لابراهيم السامرائي، بيروت 1957م، ص 65).

[347] شاذل طاقة ولد عام 1928م في مدينة الموصل. انتقل عام 1947م إلى بغداد بعد أن أكمل دراسته الإعدادية ليلتحق بدار المعلمين العالية التي تخرج منها عام 1950م. بعد اكماله دراسته الجامعية اشتغل في مدينة الموصل مدرساً في ثانويتها وكان خلال تلك الفترة ينشر قصائده ومقالاته في صحف المدينة. ومن مؤلفاته : قصائد غير صالحة للنشر، في تاريخ الأدب العباسي، ثم مات الليل. وفي عام 1974م عين وزيراً للخارجية، وظل في هذا المنصب إلى أن توفي في التاسع عشر من تشرين الأول من ذات العام في مدينة الرباط بمرض نوبة قلبية ،وكان في حينها يرأس الوفد العراقي إلى اجتماعات وزراء الخارجية العرب. (ينظر الى الشعر والشعراء في العراق، لابراهيم السامرائي، بيروت 1957م، ص 55).

[348] علي الحلي ولد عام 1931م في مدينة النجف الاشرف وفيها أنهى دراسته الإعدادية ثم تخرج في كلية الحقوق عام 1951م كما حصل على شهادات تدريبية من جامعات ويسكانسن(Wisconsin) واوهايو(Ohio) ونيفادا(Nevada). ومن مؤلفاته : الشاعر(ملحمة شعرية، طعام المقصلة، غريب على الشاطىء) (ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977، ص 44) .

وقد تأثر الأدب العراقي الحديث بالمدرسة الرومانسية الفرنسية، والإنكليزية وأصبح الشاعر العراقي الحديث ينظر إلى الطبيعة، ليس ينظر إليها الشاعر القديم نظر حسية مادية، بل نظرة روحية حية، فيتحدث إليها، ويرى فيها مصدراً غنياً بالمعاني الخالدة.

وقد خرج الأدب العراقي الحديث أيضاً عن طريقة التقليد، وتحرر من التكلف فظهر في أدبنا تنوع وتفنن في القصة والمقالات الأدبية، وفي الشعر الغنائي وأغراضه، فأصبح الشاعر يتأمل تأملاً عميقاً في النفس البشرية وفي الحياة، باحثاً عن جوهرهما بشوق عظيم. واخذ يعالج مشاكل الإنسانية جمعاء، وقد أصبح الشاعر مسخراً لرغبات نفسه، لا لرغبات قبيلته أو حكامه كما كان قديماً، فآمن بنفسه، وآمن بالقيم الروحية الصادرة من القلوب البشرية، ونظم قصائد فيها وحدة في الموضوع وحرية في الإخراج، وعالج فيها مواضيع روحية، يشعر بها كل انسان في كل مكان فالأدب العراقي إليوم أدب يؤمن بالحياة وقيمتها الروحية.

وقد اتجه الأدب العراقي الحديث اتجاهات جديدة لم تكن معروفة في الأدب القديم بمفهومها هذا، متأثراً بالأحداث الإقليمية والعالمية.

أما التأمل في المواضيع المعنوية الروحية في الشعر العراقي الحديث فموضوع بحثنا هذا. وقد ذكرنا سابقاً أن فهم أُدباء العرب المحدثين للأدب، يتفق وفهم أدباء الغرب، واتضح لنا أن أُدباء العرب قد تأثرو بأدباء الغرب، لا سيما بمذاهبهم الأدبية ومقاييسهم النقدية. فاتفق جمعيهم على أن الأدب الحقيقي هو الأدب الخالد العالمي الذي يعالج مواضيع روحية وانسانية يشعر بها كل إنسان في كل زمان ومكان. وما سواه فهو أدب متغير غير ثابت يتطور بتطور البيئة، وانتقال العصر. فالأدب الذي يحملنا على اَجْنِحتهِ ويرفعنا إلى ما وراء المادة هو الأدب الخالد الصحيح الذي يتغنى دوماً بقلب الإنسانية، فيشارك كل إنسان ذلك الغناء الأزلي .

في الصفحات التالية عرض شامل للقيم الروحية والإنسانية والأخلاقية في الشعر العراقي الحديث. وفي مقدمة هذه القيم القيم الدينية، الله، الروح والنفس، والحياة والوجود، والجمال، والكمال، واالفن، والحقيقة، والإنسانية وغيرها.....

2- القيم الدينية

1.2. الله (جل جلاله)

لم يأت الشاعر القديم على ذكر الله في شعره إلاّ عرضاً، وذلك عندما يرميه الدهر بسهم من سهامه، أو عندما تلم به بلية من البلايا. والله في الشعر العربي القديم هو الله الذي عرفته الكتب الدينية، ناجاه الشاعر القديم مستجيراً، ومادحاً ومصلياً.

ومرت بالإنسان حضارات كثيرة مختلفة حتى بلغت بالإنسان الحديث شأواً بعيداً في حرية التفكير وتقدير قيمة الفرد، فراح الإنسان يتغنى بهذه الحرية الشخصية معبراً عن آرائه، لا عن آراء غيره ممن سبقه من الناس. ومن الطبيعي أن يكون الشعراء في طليعة أصحاب الأراء المستقلة الحرة، لأنهم أبناء الإنسانية الشاملة ينشدون المحبة، والاخاء، هدفهم البلوغ بهذه الإنسانية درجة الهناء الروحية والسعادة الدائمة. لذلك نرى أن الشعر العراقي الحديث أخذ يتغلغل إلى قلب الطبيعة يبحث عن حقيقتيها، ويتأمل في أعماقها ويقرأ خفاياها كأنها ذلك السفر العظيم الذي يروي الروح المتعطشة إلى الحقيقة، والوصول إلى الله جل جلاله[349].

ووقف الشعراء العراقيون المحدثون محدقين إلى آيات هذا الكون كاخوانهم في العالم متسائلين عن إنسجامه البديع، يدهشهم ما فيه من أسرار والغازها وكأنهم يحسون في قرارة نفوسهم بقوة ليست بعيدة عنهم هي الله جل جلاله . فيقول الشاعر أحمد الصَافي النَجَفي :

أَحســــــهُ في حَســـا — تضيق عنه الظَنُون
لو رَحت أَجَّلوه نطقاً — فَالنطق عيّ حرون
لو رحت أَجلوه لفظاً — فَكُل لـــفظٍ سُــكون[350]

[349] داود سلوم، تطور الفكر والأسلوب في الأدب العراقي، ص 45.

[350] أحمد الصافي النجفي، ديوان، دمشق 1949م، ص3.

وطال تأمل الشعراء، وطالت حيرتهم. فهم بين شاكٍّ ومؤمن، وبين مصدق ومكذب، وبين متأكد وحائر.

أما أقرب الناس إلى فهم الله جل جلاله، فهم العلماء((ذلك لأنهم أكثر خلق الله اتصالا بأسرار الطبيعة، وأقربهم إلى لمس غوامضها، وما الطبيعة إلا مظهر من مظاهر الله، أو أقل أنها سر من أسراره))[351]. وما يكون ذلك السر العظيم ؟هل هو الأثير؟ هل هو تلك القوة الخفية التي تمدنا أرواحاً واحاسيس؟ لعل الأثير هو الذي يبصر ما لا تبصره العين، ولعل الأثير هو الإله:

ولَعَــلَّ الأَثير يبصر ما لا تُبصر العين مِنْ وراء السُتور
ولَعَلَّ الأَثير أَصل التروى ولعــل الأَثيرُ أَصــل الشُعور
مَذهبي وحدة الوُجود فلا كَائِن غير الإله القَدِيم القَدير[352]

وبالرغم من أنَّ الشاعر جميل صدقي الزهاوي وقف موقفاً لا أدريا من الذات الإلهية، فانه أقرّ بوجود إله حي لا يبور، وهو الأثير. وعندما سئل أجاب:

قَال : مــا ذَاتهُ ؟ قُــلْتُ مُجِيباً بِلسَان قد خَــانه التَفــكـــير
أَنني لا اَعرف مِــنْ الذات شيئاً فَلَقد أَسْدَلتُ عَليها السُــتُــور
إِنَّــما عــلمي كلــه هــو أَنَّ الله حَـــــــي لا يَـــبُـــور
مــا لــكُل الأَكــوان إِلا أَلــه وأَحد لا يَزول وهو ((الأَثير))
منه هذا الوُجود فَاض حَمِيما وإليــه بَعــد الــبوار يَــصير[353]

[351] جلال الخياط، تطور الفكر والأسلوب في الأدب العراقي، ص89 .

[352] جميل الزهاوي، الأوشال، بغداد 1934م، ص 53.

[353] نفس المصدر ،ص 300.

والله نور، نور الأرض والسماء. والله جل جلاله نبع، نبع الحياة والجمال. ومن لا يرى ذلك النور فهي أعمى ضرير :

الله نُور الأَرض نُور السَماء مَا أَنا .... مَا العَالمُ ؟ لَولاه
أَعمى الور مَن لا يَرَى نُوره أَلم يُشَاهد ؟ .... أَين عَينَاه[354]

وقد يحدث الله جل جلاله الشاعر، فيحس وميضاً من نوره، وقبساً يتغلغل في روحه. ويتكلم الله جل جلاله، فينتشر الضياء، ويجف السنى :

تَـحَـدثني فَـأَحـسُ ومـيضاً
تَفَـجر بِـي نَـبْعَـة الصـيب
وتَرَمـقْني فـيهُـم الـبَياض
ويَغْـمُرني ضَـوءه الأَشْـنَب
. . .
تـكلـم الله فَـخِف الـسُـنى
مِنْ كل صُوب وتَنادى الضياءِ[355]

وقد خلق الله جل جلاله الإنسان، وصاغ له روحاً، فأحس الشاعر في نفسه قلقاً لا يهدأ، والماً لا ينقطع، فليسجد الشاعر أَمام الله جل جلاله. وكذلك خلق الله كل شيء خلق الجمال كله، وأملاه على الشعراء. والله مرشدهم ودليلهم وينشد شاعر ويقول:

الله أُسْتَاذي وكُـلّ الذي خـط يُراعي فهو أَملاه
لا مُبْدعِ إلاّه، لا نَـاقِد سُـواه مَـا يَأْباه آباه[356]

---

[354] أحمد الصافي النجفي، الديوان، ص4.

[355] نعمان ماهر الكنعاني، في يقظة الوجدان، بغداد 1943م، ص85.

[356] أحمد الصافي النجفي، الديوان، ص3.

والله جل جلاله ليس بحاجة إلى من يترجم للناس جمال خلقه، وسمو أبداعه. لقد خلق الكائنات، وخلق الجمال، وجعل الوجود جمالاً رائعاً، ولغزاً عميقاً. كل إنسان شاعر يدرك ذلك الجمال والحسن البديع، ويدرك أن صانعه إله جميل. وهذا الجمال الرائع لا يمكن أن يكون إلاّ من خلقه.

يَخلق الله كل شيءٍ جميلاً   كل حسن مِنْ خالق ديان[357]

وإذا كان الإنسان من روح الله، صادراً عنه، فأن النبات والطير، والأرض وجميع مظاهر الطبيعة تحدث عن قوته وجبروته، و ذلك ينشد الشاعر ضياء الدجيلي:

هـو ذا الله فـي الوُجُـود تَجَـلى   بِـبَـدِيـع الآثَـارِ للـروادي
وفي حَياة النَبَات، في عَشِيشِ الطَير   وفـي نَـغَمة الهَـزارِ الشَـادِي[358]

وان جئنا نتدبر فهم الشعراء المحدثين لفكرة الله وجدناهم يحسون الله احساساً غريباً مبهماً. لقد رأوا أنه لا بد للكون من رب يدير شؤونه، أو من فنان عظيم يخلق ويبدع جماله. وقد ظل الله عندهم شعوراً، غامضاً، غريباً، يهزم، ويحرك أقلامهم وريشهم، وآلاتهم الموسيقية، فهو ذلك الجمال الأسنى الذي يلف الكائنات جميعاً وينفخ فيها روحا من روحه. وهو تلك القوة الخفية التي تحافظ على نظام الكون، على أن من طبيعة الشعراء أن يؤمنوا بهذا القوة، وهذا الحنان الذي يغمرهم، كما يؤمن الطفل الصغيرة البريء أن وراء الوجود أباً، حبيباً أبر :

لآمَنت يا رَب مِثْل الصَغِير   وَرَاء الوُجُـود أَبوه الأَبر[359]

---

[357] جميل الزهاوي، الديوان، ص173.
[358] فائق مصطفى، الأدب العربي الحديث، ص125.
[359] معروف الرصافي ، الديوان، ص385 .

وينشد الزهاوي صدقي الزهاوي بلسان العرب مؤمناً :

كُلنَا مُؤمن يسبح للرحمَن في ظِل عرشه المَحْدُود[360]

والإيمان بوجود الله جل جلاله واجب، فالله جل جلاله هو مصدر الحياة والوجود والحرية والمحبة والعدل والقدرة، ((فلا حياة إلا منه، ولا وجود إلا فيه، ولا حرية إلا في محبته ولا عدل إلا في نظامه، ولا قدرة إلا في معرفته)) [361]. وهذا الإيمان مبني على الإيمان الذي هو من خلق الله، فمن آمن بالإنسان ورقيه فقد آمن بالله.

أما اللغز الكبير في الحياة فهو القضاء والقدر، وهما يلعبان دوراً عظيماً منذ كان الكون، وكان الإنسان. وقد آمن الشعراء بالقضاء والقدر لأنهم لم يعرفوا كنهه فقالوا: ((جئنا إلى الحياة غير مخيرين، ونذهب غير مخيرين، إن طوعاً وإن كرهاً))[362] .

إن شعراء العراق يرون أن القضاء والقدر هما من الله جل جلاله، وأن الإنسان عاجز ذليل أمامهما ويقول باقر الشبيبي (ت1960) [363] :

مَا أَنتُم في قَضاء الله من أَحد سوى هَبَاءٍ على الأَكْوان مُنْتَشِر[364]

وكذلك يقول باقر الشبيبي مخاطباً الله جل جلاله :

قَضَاؤُكَ مَحْتُوم وعَدلكَ وَاحد

وأَمرك أَمــر مُــفرد لا يُعاند[365]

وهكذا نرى ان الشعراء العراق المحدثين قد تحروا من التقاليد في فهم الله جل جلاله، ومظاهر قوته، وأخذوا يبحثون متأملين في الطبيعة عن الله جل جلاله

---

[360] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 210.

[361] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص23.

[362] نفس المصدر، ص89.

[363] باقر الشبيبي، ولد في مدينة النجف عام 1889م، وفيها تلقى علومه الدينية والأدبية، وتوفي في أواسط عام 1960م. (ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977، ص 23).

[364] باقر الشبيبي، في ذمة الخلود، بغداد 1920م، ص75.

[365] نفس المصدر، ص426.

وأسرارها، وعن وجوده وخلقه، فيرونه تارة قوة، وتارة أخرى نوراً وجمالاً، ويحسونه في أنفسهم وفي الطبيعة جمعاء. وقد أصبح لهم نظرة وفهم يختلفان عن الكتب الدينية. فالله عندهم هو الصديق الحميم، والأب الرحيم، والفنان البارع، وهو الذي يمنح جميع الكائنات، من جماد ونبات وحيوان، أرواحاً من روحه، فيتلألأ في النجوم، ويبتسم في الزهور، وقد خص الله الفنان بروح كبيرة، وجعل بينه وبين الإنسان شبهاً واضحاً، فكلاهما خالق مبدع.

وللإنسان قيمة إلهية، ومن يؤمن بالله يؤمن بالإنسان، إنسان اليوم لايحتاج إلى رسول كي يعرف إلى الله، لأن في سفر الطبيعة أخباراً عنه، وفي ضمير الإنسان صومعة له. فضمير الإنسان رسول، والطبيعة معبده[366].

وقد شغل بال الشعراء المفكرين قضاء الله جل جلاله وقدره، فآمن به بعضهم وحسبه بعضهم الآخر ناتجاً عن تصرف الإنسان.

و يظل الشاعر متسائلاً: لم لا يصادف الإنسان القضاء وقدر؟ لم لا يجعل بينه وبينهما محبة وصداقة؟ لم لا يطرح الخوف؟...لم لا يشيع المحبة التي تمحو الخوف وتنشر السلام، وتنمي المعرفة.

[366] مصطفى الرافعي، رسائل الأخوان في فلسفة الجمال والحب، ص 12.

2.2. مدح الرسول الكريم

لو رجعنا إلى تاريخ المدائح النبوية لوجدنا قصيدة الأعشى أقدم قصيدة مدح بها الرسول[367].

وفيها وصف لإنتشار الرسول الكريم في كل مكان، وأنه يفيض على الناس بالعطايا المستمرة التي لا تنفذ ويتطرق في القصيدة إلى المبادئ الإسلامية فيبشر بها.

ثم يمنع أكل الميتة والدم، ويمنع الذبح للأنصاب، ويأمر بترك عبادة الأصنام ويدعو إلى الصلاة ورعاية السائل، إلى غير ذلك من المبادئ الإسلامية التي هزت المجتمع العربي[368]. ولم يكن الأعشى مخلصاً في قوله ولا مؤمناً في عقيدة، لأنه رجع إلى بلده عندما أغراه أبوسفيان بالمال[369]. وقد خلت القصيدة من قدسية إلقائها بين يدي الرسول الكريم ؛ لذلك لم يعرها الشعراء أهمية. ولو قدر لهذا الشاعر أن ينشدها أمام الرسول ويسلم كما أسلم كعب بن زهير، لكان لها في تاريخ المدائح النبوية شأن آخر.

وقد ألف كثير من الكتب في مدح الرسول، ونظمت دواوين جمعة في مدح ذاته الكريم، وكانت للقصائد التي يمدح بها الرسول عناية كبرى سواء أكانت حديثة العهد أم قديمة الأمد، وكانت تكتب بعدة نسخ ويقدم للشاعر التهاني عند نظمها وإخراجها للناس. ولم يكن يطلب الشعراء العراقيون من وراء هذا الفيض الكبير من الشعر في مدح الرسول إلا الأجر والثواب في الآخرة.

فجعلوا الشعر واسطة يتقربون بها إلى النبي العظيم، راجين شفاعته بعد أن يئسوا من الدنيا؛ حين رأوا في هذا العصر المضطرب الذي تغيرت فيه المثل وانصرف الناس يركضون وراء مصالحهم وغاياتهم الفردية البحتة. وقد سجل لنا ذلك عبد الوهاب النقشبندي وقد سمع هاتفاً يقول : ((...هل أدلك على تجارة تنجيك من عذاب أليم؟)) قال: ((فقلت على الفور: اقبس نارك أيها الدليل وأرشدني بنصيحتك كما يرشد

---

[367] يوسف عزالدين، الشعر العراقي، القاهرة 1965م، ص79.

[368] محمد حسين، شرح ديوان الأعشى، القاهرة 1950م، ص 134-137.

[369] يوسف عزالدين، الشعر العراقي، ص 79.

الخليل إلى الخليل.. فقال: إن رمت العافية في الدارين، والفوز برفع البون من البن فعليك بمدح سيد الثقلين..))[370]. وما الهاتف إلا عوامل نفسية يتخيلها الشاعر فتتجسم له تلك العوامل.

إنحصر شعر الرسول الكريم(ص) في شعراء حفزهم العامل الديني للإنشاد والتغني بمآثره الكريمة، وبعلماء أوتوا نصيباً من ملكة القريض فنفسوا عن القلوب الطافحة بالألم الأنين، بانين قصوراً من الأحلام، بعد إخفاقهم في الحياة الدنيا وحرمانهم من التمتع بخيرات العالم المحصورة بالحاكمين وأذنابهم، فبرز في هذا المضمارشعراء العراق امثال، مُلا حَسن البَزاز، ومُحمد شِيت الجومرد (ت1920م) ونُعْمَان الآلوسي، ومَحمُود شُكري الآلوسي.

أما حسن البزاز فقد وقف جل شعره على مدح الرسول ؛ فلا نجده في ديوانه متوسلاً بالرسول الكريم او مناجياً اسمه أو متضرعاً ومتوسلاً بفضله، أو مستعطفاً لكي يشفع له، او راجياً العفو من الله ليغفر له ما فرط في شبابه وما ارتَكبَ من آثام وخطايا:

هل صبَا نَجدِ على سُكان رَاما سِحْراً هَبت فَعَادتْ مُسْتَهاما[371]

وقد ترسم طريقة الشعراء الأولين الذين مدحوا الرسول (ص) فقلدهم في الألفاظ التي جاءوا بها، فذكر في شعره (صبا نجد) و(رامة)، تلك الأماكن التي وردت في الشعر العربي المسلم الذي مدح الرسول.

بأَبِى الهَادِى الذي إِحْسَانه مَـلأَ الأَرضَ وهَاداً وأَكَـامـا
بَحر جُود عمقه لا يَنْتَهـي وغِمَـامُ فَيضـه عـمَّ الأَنَامـا
وحُسَـام دَمَّـر الله بـه عصبة الطَّاغِين والدِيـن أَقَامـا
كَمْ فَقِير من قَـد نَال الغِني وعَنِيد نَـال حَتْـفَـا وانْتِـقَاما[372]

---

[370] يوسف عزالدين، الشعر العراقي ،ص79.

[371] حسن البزاز، الديوان ،القاهرة 1905م، ص36.

[372] حسن البزاز، الديوان، ص36.

فصور الشاعر الرسول (ص) حساماً يدمر، وأنه منتقم ينتقم من الطاغين، وما أحراه أن يقول : إنه هدى الطاغين وأصلح الكافرين وسدد خطا المشركين، لأن الرسول العظيم لم يأت لهذا الأمة إلا رحمة وبشرى، واشتهر بالحلم والعفو ورحابة الصدر لكي ينشر هذا الدين، وقد نشره بحلمه وعفوه وخلقه الكريم وسجاياه الحميدة العالية، فقال فية الباري عز وجل يمدحه ((وإنك لعلى خلق عظيم))، وصاحب الأخلاق العظيمة لا ينتقم ولا يدمر، وإنما يرشد إلى الصواب والهدى، يأمر بالخير والإحسان والمعرفة.

ومن الشعراء العراقيون الذين مدحوا الرسول ولم يختلف في شعره عن شعر حسن البزاز بشيء، هو الحاج شيت الجومرد وهو يقول في مدح الرسول العظيم:

طَابَ مثوانَا ولا نَخْشي الرَدى إنَّ خَـيرُ الرُسل فِيـنَا أَحمد
مِنْ يَروم النَعتَ مِـنْ أَوصَافه لَـمْ تَجِد مِنْ مُنْتَهى أَو مُبتدا
نَطَقْتَ فـي حَمله بِهم الـفَلاَ بِفَصيح القَول مِنْ رَب الهُدى
بِمَـنَامٍ أُمَّـة قَـد بَـشَّـرَت أَنَّ حَـملا مِـنكَ يَبدو سَيدا[373]

ومدح الرسول الشاعر معروف الرصافي :

ولَـد المصُطَفى مُحمد يمنا الف أَهلا بِخَاتِم الأَصْـفِياء
وتـجلى والنُور يَشرق منه بِجَبِينِ كالكَواكب الـوَضَّاء
بـين كَتفيه للنُبُـوة خَـتَم وظُهور للشامة السَـوداء
قد رآه حبر إلى هود فَأَفْضى لِقُرِيش بـأَعظـم اَنْبِـياء
وبحيرا في الدِير بُشر فيه حين وافاه سَيد الـبَطحاء[374]

[373] محمد شيت الجومرد، الديوان، القاهرة 1905م، ص 4.

[374] معروف الرصافي، الديوان، ص21.

3.2. الروح والنفس :

إن الشعر العراقي الحديث عامة في القرن العشرين ينظر إلى الروح والنفس نظرة واحدة. فكلتاهما مجرد عن الجسد، وكلتاهما جوهر واحد لا يفني. فالروح مرادفة للنفس او الفكر أو الضمير، وهي مصد حياة الجسد وحركته وحيويته، تلازم الجسد اذ لا يتم الواحد إلا بالآخر :

فَلا جَسَد يَقُوم بِغير رُوح ولا رُوح بِلا جَسَد تَقُوم
هُما مُتَلازِمَان فَــمَا لَكُلّ بِغِير قَرِينة اَبداً لُــزُوم[375]

غير ان الروح لا ترضى ان تعيش كما يعيش الجسد. كلاهما دوماً في صراع، فالروح من طبيعتها أن تغنى بالحكمة والتأمل، والجسد من طبيعته أن يكون فقيرا خاضعا لسليقته وفي ذلك يقول الرصافي مخاطباً النفس :

اَنْتَ يا نَفسي غَنيــةٌ بِحِكْمَتِك
وهذا الجَــسَد فَــقير بِسَلِيقَته
فلا أَنْتَ تَتَسَاْهلين ولا هو يَتَبع
وهــذا أَقْــصَى الــشــفَــاء[376]

أما الجسد فيموت، وترجع الروح إلى منبعها الأعلى الذي انبثقت منه، على أن هذه النظرية الإستشراقية، تشمل الأدب الحديث عامة، وتجعل منه ادباً مؤمنا، مفكراً فالشاعر يقف باحثاً عن الروح، متسائلا عن أصلها ومصيرها، طوراً يشك وطوراً

[375] معروف الرصافي، الديوان، ص 205.
[376] نفس المصدر، ص301.

آخر يؤمن، تارة يعمل على تهدئة النفوس القلقة، والقلوب الحائرة، وتارة يقف حائراً أمام دنيا الالغاز، فلا يحير جواباً.[377]

ويرى جَمِيل صدقي الزَهَاوي أن الروح بصيص من السنى الأكبر، وانها شعاع باق ونور يضيء الكون :

يا رُوح هذه الـدنى شَـرَارة مِـنكَ أَنـا
قد اِستَطَارت تَـبْتَغي لِنَفْسِـها أَنْ تَـعْلـنا
أَنَّ بَـصِيصي كُـله مِنْ بَعْضِ ذلك السُنى[378]

ويطول بالزَهَاوي التأمل في ماهية الروح، فتتوارد عليه الأضداد، والمناقضات تارة يؤمن بقدسية الروح وبقائها، وتارة أخرى يدعي أن الروح جرثومة حية، توجد في كل جسد ولكنها ترتقي بإرتقاء الحيوان، حتى تصل إلى الإنسان الذي تفرد بين الكائنات بدهائه ورِفْعَتهِ، فيقول

الـرُوح لَـمْ تَـهبط عـلى مِنْ المَحل الأَرفع
بـل اِنها ليسَت سوى جَـرثُومة نَشْـأَت مَعي[379]

ويقول أيضاً

والرُوحُ لَيسَ سُوى الحَيَاة تَشَارَكت زُمراً خَلايا الجِسم فيها أَجْمع
هـي فـي الجَماد خَـفِية لِبَسَاطة فيـها فَـلا تَـبدو ولا تتفرع
أَمـا النَـبَـاتَ فإِنَّـهـا مُنْحَـطة فيه فَـلا يَـرنَو ولا يَتَـسَمّع
وتَـنَـوع الحِـيوَان يَرقى صَاعِدا حَتَّى بَـدا القَرد السوى الفَرع
وتَـفَرُد الإِنْـسَان بَـيـنَّ لـذاته بِدَهَـائِه فَـله الـمَقَامُ الاَرفع[380]

---

[377] ابراهيم السامرائي، الشعر والشعراء في العراق، ص235.

[378] جميل الزهاوي، الديوان، ص 8.

[379] نفس المصدر، ص222.

[380] نفس المصدر، ص78.

لكن معظم شعراء العراق يرون في الروح أو النفس أشعة مثل الشمس، وهي شعلة مقدسة من عند الله جل جلاله عز وجل، ويرى الشاعر العراقي أَبو العَلاء النَجَفي أن الروح نوراً يتجلى، وجوهرا أزلياً لا يفنى. ويقول

فَــالنَفْسُ ذَاكَ النُور ذيــاك المُجَرد لَيْسَ إلاَّ

ولَــو انَّها جِسْم لما وَسَعَ البَسِيط إِليه وصَلا[381]

ويخاطب علي الشَرقي الروح قائلا :

أَنْتَ يا رُوح مِــنْ الــنُور ذَرات

أَضَاءَت في الكَــون فــي عالمية

لَسْتَ مِنْ عَالم التُراب وأَنْ كُنْتَ

تَقَمَّــصَت بِــالتُــراب عــليــة[382]

وفي المعنى نفسه يقول مَعْرُوف الرصافي :

لَمَّا بَدَأَ البَرْق في الــظَلْمَاء مُــلْتَــهِبا

وَرَاحَ يَطــوي فَــــضَاء الله واحْتَجَبا

نَادَيتُ رَبــي وَطَــرْفي يرقب الشَهبــا

رَبــاه يَــا خَــالِق الأَكْــوَان وأَعَــجَبا

كَم تَشَبَّه البَرق هذا أَنْفُــس الشِعْــرا[383]

ويرى عبد الوهاب البياتي في الروح نوراً حقيقياً، هو النور الذي يدرك الحياة، ويحل الغاز الكون وأسراره، وهو((ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان، ويبين سرائر النفس للنفس، ويجعلها فارحة بالحياة، مترنمة بأسم الروح))[384]، وكذلك يخاطب النفس قائلا :

---

[381] داود سلوم، تطور الفكر والأسلوب في الأدب العراقي، ص87.

[382] علي الشرقي، الديوان ، بغداد 1979م، ص14.

[383] معروف الرصافي، االديوان، ص88.

[384] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص99.

((أَنْتَ والجَمَال في النُور))[385]. وقد يدعى بعض الشعراء إدراك الروح دون غيره فيراها كالكهرباء :

ما على غَامِضة الرُوح غيري واقف
أَنـــا وحـــدي بالحَقِيقَة مِنـــها عَارف

* * *

لَيسَت الرُوحُ سُوى كَهرباء في الجَسد
أَنـــه يَـــحْيَـــا بِـــها فـــإِذا زَالت هَـــمد[386]

وعندما يتأمل الشاعر معروف الرصافي في الكهرباء، واختراعة العجيب، يؤمن ان سِرّ الوجود قد بدا، وأن الكهرباء هي الروح الخفية التي تكمن في كل الإنسان، لكنه لا يجزم ببقاء الروح، فطوراً نراه مؤمنا ببقائها، وطوراً آخر متردداً كزميله الزهاوي، حين يقول :

وأَنْـــتَ يا كَـــهرَباء ســـرَّ بَـــدا وما زَال في غَشَاء
عَجَائِب الكون وهي شَتَّى فيكَ انـــطَوَت أَيما اِنْطِواء
فأَنْـــتَ للـــكَائِـــنَات رُوح أَنْ كَانَـــتْ الـــرُوح للبقاء[387]

ويرى أَحمد الصَافي النَجَفي أَنَّ النفس هي لب الكون، وهي الجوهر الأساسي:

ارى الكَون قَشراً، أَرَى النَفس لُباً ازحـــه لِيَـــنْزَاح عَـــنها الـــكَدر[388]

و يحار الشاعر ضِياء الدُجَيلي في وجود جوهر في الإنسان لا يظهر للعيان :

والذي حيَّر العُقول وُجُود جَوهري مُجَرد غِير بَادي[389]

---

[385] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص69.
[386] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، بيروت 1924م، ص168.
[387] معروف الرصافي، الديوان، ص24-25.
[388] أحمد الصافي النجفي، ديوان الأغوار، ص 30.
[389] يوسف عزالدين، الشعر العراقي الاجتماعي، ص122..

وينفي أبو العلاء النَجَفي فلسفة ديمقراط، الذي ينفي التجرّد في الوجود، غير أنه يرى النفس جوهراً مجرداً فيخاطبها :

فَلَكَ التَجَرَّد فـــي الوُجُود وأَنَّـــه الـــقدح الـــمُعَلا[390]

إن الله جل جلاله قد منح الوجود روحاً، هديّة ثمينة. وهي من سناه المبدع، تعود إليه يوماً ما، وفي ذلك يقول الشاعر الجواهري :

لَـــمْ يَمْنَح الله الوُجُود عطية أَغْلى واَثْمَن مِنْ سناك المُبْدِع
هل أَنْتَ إلاَّ في الحَياة غريبة إِنَّ الـــغَريب مَـــصيره للمَرجَع[391]

على أن الشعراء عامة، يؤمنون أن النفس منشقة من النفس الكبرى أو الروح الكبرى أو الذات الآلهية، وأن نفس الإنسان هي جزء منها، وفي ذلك يقول أحمد الصافي النجفي :

فَكُل الوُجود مِنْ النَفس جُـــزءٌ لِـــذَلكَ فِيها الـــوُجود اِسْتَقرَّ
وفي كُلّ صَنَعَ مِنْ النَفس جُزءٌ سَواء أَفيه إِخْتَـــفى أَمْ ظَـــهر[392]

إن الروح من أمر ربنا وما يكشف عنها الحجاب إلا الضمير، أن الروح من ذات الله جل جلاله، وأن إله الآلهة فصل ((عن ذاته نفسا وإبتدع فيها جمالاً))[393].

وأن النفس ((حلقة ذهبية مفرطة من سلسلة إستدارتها، ولكنها لا تحيل ذهبها إلى مادة أخرى بل تزيده لمعاناً))[394]، وأن الله عز وجل بنى ((الأجسام هياكل للأرواح

---

[390] ابو العلاء النجفي، العرفان، مج :22، ج:4، ص 428.

[391] محمد مهدي الجواهري، الديوان، ص69.

[392] أحمد الصافي النجفي، الأغوار، ص29.

[393] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص 28.

[394] نفس المصدر، ص92.

فعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالألوهية التي تحل فيها))[395] وإن الآلهة تقول عن الإنسان ((وقد صنعنا مزماراً نسكب من قلبه الفارغ صوتنا إلى العالم الصامت في جميع أرجائه))[396] .

ويرى الشعراء في الروح أو النفس نشاطاً قوياً، وحركة مستمرّة، حتى إذا حلّت في الجسد حثته على الحركة المستمرّة، ورفعته إلى المُثّل العليا. وهي أبداً قلقة، قويّة، وهي أبداً في صراع مع الجسد، تجذبه إلى جوهرها الأعلى، وهو بدوره يجذبها إلى معدنه الترابيّ. فالروح خالدة في عالم الأزل، والجسد فان يبلغ بفضل صراعه الروحي درجة الإنسانية الأعلى، وهو الإنسان القوي الذي انتصر على الضعف والفساد، ذلك أن من لزوم النفس بلوغ الكمال، وتنمية الإرادة حتى يتسنى للإنسان أن يرقى إلى الدرجة الإنسانية العليا.

وقد أثرت الفلسفة الأوربية والعلوم الحديثة في الفكر العربي، وفي نظرته إلى الإنسان وقيمته الروحية، فآمن الأدب العراقي الحديث بالإنسان وبحيويته وكفاحه في سبيل إبراق الغيوم القائمة، وحلّ الألغاز المستعصية في الكون.

فإذا شاء الإنسان أن يكون عالماً، إستطاع بواسطة نفسه الطموحة أن يبلغ من المعرفة ما يشاء، حيث يقول الزهاوي :

ما في الوُجُود حَقِيقَة غِير النَهى　　　فَاطْمَح بِنَفْسِكَ للذُرَى والـــهَام
والنَفس إما شِئتَ كَانَـــتْ عَالما　　　يَسْعَ الدنَى في طُوله المُتَرامي[397]

ويسمو الشاعر بنفسه إلى العلي ليدرك سرّ الكائنات، فينشد محمد رضا الشبيبي :

سَموتُ بِنَفْسي للعَلي عــلَّ أَبصر　　　وأَدرك ســِرَّ الكَــائنات فيظهر
سَموتُ بِها عن كُلّ ما قد يَشِينَها　　　فَلَمَّا صَفت أَدركْتُ ما كَان يَضمُر[398]

---

[395] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص 82.
[396] نفس المصدر، ص22.
[397] الزهاوي، الديوان، ص 264.
[398] محمد رضا الشبيبي، الديوان، ص55.

والنفس، في نظر ضياء الدجيلي، ظاهرة، تميل دوماً إلى الرقيّ، والمثل العليا وهي "" قابلة لأن تشفي من أمراض الغضب والحقد والحسد، وتصير ينبوعاً غزيراً للمحبة، تعرف كيف تحب العدو كما تحب الصديق"" [399]

والنفس تهدف دوماً إلى الكَمَال وهي تهبط على الأرض لترفع الذين يصبون إلى المعالي، وفي ذلك ينشد الشاعر ضياء الدجيلي:

وكَذَاك الأَرواح تُهــبط للأَرض ليكسى الكَــمَال ذُو اِسْــتِعْداد[400]

ويرى الزهاوي أن الإنسان الأعلى هو الذي تتسع مداركه، وتقوى إرادته ويسير نفسه، ولا يخضع لأحد :

والسُبَرمَان إِذا تَــولَد فَهُو مِــنْ هذا وذَاك فــي الدرَاية أَوسَــع
والسُبَرمَان مُجَــهز بِقوى لــها تَعْنُو الــرقَاب فَليسَ مِنْهَا مُفْزَع
والسُبَرمَان مُــوَفَق في أَمــره والسُــبَرمَان لِغيره لا يَخْضَــع[401]

وقد يتبرم الشاعر علي الشرقي بجموح روحه، وطموحها الملحاح، فهي لا ترضى أن تسكن جسده النحيل، بل تروم الفضاء الواسع :

أَيتها الرُوح : كيف أَطفي غَليلكَ حَرت والله ما الذي أَصطفي لكَ!
وطُــموحاً مِــناه هدَّ كِــياني أَتَــرانــي مَــحَاولا تُــدليلــكَ ؟[402]

---

[399] منذر الجبوري، شعراء العراقيون، ص55.

[400] نفس المصدر، ص132.

[401] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 78.

[402] علي الشرقي، الديوان، ص 621.

فكيف يحاول الشاعر أن يحدّ من رقيّ الروح ومن طموحها؟ وكيف له أن يفعل ذلك وهي التي تتغذى دوماً بالفنون والجمال ؟ حيث يقول الرصافي :

وللأَرواح كــالأَجســاد زَادٌ به تَنْــمُو المَشَاعِر والحُلوم
فأَنَّ الروح تَغْذُوها الأَغَاني ويَجلو هَمُها الصَوت الرَخِيم
ويَصقلها الجَمَــال إِذا رَأته وتَصَــدُّئها القَبَائِح والهُمُوم[403]

لأن الأدب العراقي الحديث عامة، يميل إلى الإيمان بالروح الكبرى، ويؤمن برقي الإنسان عن طريقة تلك الروح القوية الملهمة، التي تقود إلى الكمال فيرجع إلى نبعه وأصله. هذه هي غاية الشاعر، وقد بلغها بروحه وبالشوق الملح إلى عالم الروح الكلي ليصبح عالماً بكل شيء، مدركاً ما غمض عليه. حتى إذا وصل إلى الكمال بعينه، عاد إلى حضن المحيط الأكبر.

ولكن بعض الشعراء يعتقدون أن الأرواح إذا بلغت حد الكمال تلاشت، وانقضى خبرها، وبعضهم يقولون : إِنّ الأرواح تموت بموت الأجساد.

وإن الزهاوي والرصافي ينفيان بقاء الروح أو النفس بعد الجسد، ألم تنم الرّوح بنموّ الجسد ؟ فينبغي أن تموت بموته، والرّوح لا تحس ولا تشعر بلا جسد، يقول في ذلك الزهاوي :

إِنَّ جِسْــمَ المَرءِ للروح الــتــي فــيه تَــقوتُ
فــإِذا مــا مَــاتَ جِسْــم المَرءِ فَالرُوحَ تَــموتُ[404]

* * *

وإِذا تَصَدَّع مِنك جِسمُكَ للرَدى يومــا فَــروحِكَ مِثله تَتَصدَّع

* * *

لا حسَّ عِند النَفس بَعد زُهوقِها والنَفــس إِلاَّ مَــرةً لا تَزهَقُ[405]

---

[403] معروف الرصافي، الديوان، ص205.

[404] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، ص 07.

[405] نفس المصدر، ص 62.

وكذلك يقول الرصافي في زوال الروح :

لــذَلــكَ كَانت الأَرواح منــا　　　بحيث نهي إذا وهَت الجُسُوم
ولَستَ أَظّــن أَنَّ الرُوح تَبقى　　　إذا مُحيت منْ الجَسد الرُسُوم
وربــمــا يــكون لــها دَوام　　　ولكــن غــير شَــاعرة تَدوم
وما هبطت منْ الخَضرَاءِ لكن　　　منْ الغــبراء اَنبَــتها الحَكيم[406]

ورغم ما رأينا من إنكار الزهاوي لبقاء الروح وخلودها، فإنه يستنجد بالسماء يسألها عن مصير الأرواح بعد الموت:

أَبينَي يا سَــماء وخَبَريــنا　　　لما لَــمْ نَــدر دَام لكَ الــعَلاء
ولا زلتَ على مَــر اللَــيَالي　　　نُجُومكَ يَسْتَضيء بها الفَضَاء
هل الأَرواح بَعد المَوت منا　　　لها في جــوّك السَــامي بَقَاء؟
أَمْ الأَرواح تَــابعة جُسُوما　　　لنا تَبلى فَيَلْحَقَــها الــفَــنَاء ؟[407]

أتفنى الروح مع الجسد، أم تبقى الروح خالدة ؟ لم تفنى الروح ؟ إذن فما غايه الوجود ؟ أن المصاب أليم إذا كان مصير الروح كمصير الجسد، ولو خير الزهاوي أن يترك أحدهما، لفضل أن يترك الجسد :

أَأَفْقد جِسْــمِي وحد عِند مَيتتي　　　أَمْ الرُوح مِثْلّ الجِسم يَشْمُله الفَقد ؟

* * *

إَذا كَان رُوحي مِثلَّ جِسمِي يُهلك　　　فإني لأَبــكي في مُصَابي وأَضحَك
ولو خَيَروني بين تَــركي لِواحد　　　فإِني لِجِســمي دُون رُوحي أَتْرك[408]

---

[406] معروف الرصافي، الديوان، ص204.

[407] جميل الزهاوي، الكلم المنظوم، ص 36.

[408] جميل الزهاوي، الديوان، ص27.

وكذلك يتساءل الرصافي، ثم يرحب بالموت إن كانت الروح ترقى إلى الله عز وجل، وتسلم من ذل الأرض وهوانه :

وهل بِالمَوت نَحن إِذا خَرَجْنَا عن الأَجْسَـــاد نَحوك مَرتقونا ؟
فَتَــبقى عنِــدكَ الأَرواح منا تُصان ولا تُـــرى جَنفًا وهَونا ؟
فَاحـــبب بالمـــنون إِذا واجب بـــها إِنْ كَـــان سُلمكَ المَنُونا[409]

ويتضح من هذا الشك في شعر الزهاوي والرصافي أنهما لم يتوصلا إلى حقيقة يركنان إليها في خلود الروح، ومصيرها، فتارة يجزمان بفنائها مع الجسد، وتارة يشكان في ذلك فيتساءلان، وهذا التساؤل صفة تلازم جميع الشعراء الذين يريدون أن يعرفوا، والذين يتأملون بعمق .

وقد ظل شعراء العراق يبحثون دائِماً عن الروح والنفس، وعن ماهيّتهما وعنصرهما ومصدرها ومآلهما، متسائلاً تارة، مجيباً تارة اخرى. ثم بعد هذا التأمل العميق يؤمن، فينطلق بأناشيده مطمئناً مغرّداً، أو يشك في كل شي، فيعلو بأناشيده قلقاً، حائرا. غير أن الشعراء عامة قد آمنو بالروح قبساً من الله جل جلاله، ورسولاً منه إليهم، ترفعهم إذا زلّت بهم القدم، وتنير طريقهم إذا سوَّد الدهر أيامهم .

---

[409] معروف الرصافي، الديوان، ص36.

4.2. الحياة والوجود :

لم يختلف شعراء القرن العشرين في موقفهم من الوجود وسرّه عن موقفهم من الروح والنفس، فهم ذاهلون، حائرون، يتألمون متسائلين، لعلهم يجدون جواباً يروي ظمأهم، فيتحول شكهم إلى يقين، كما إننا نراهم مؤمنين متصوفين، يخاطبون الروح التي تمدّهم بالمعرفة.

ولقد رأينا أن شعراء العرب القدامى لم يسترسلوا في هذا التأمل الإليم، ولم ينظموا إرضاء لرغبات نفوسهم المتعطشة إلى المعرفة، وضميرهم المعذّب في متاهات الوجود، بل كانوا ينشدون لمناسبات ألهتهم عن أنفسهم، على عكس الشاعر العراقي الحديث علي الشرقي، الذي يقول :

لا أَنظِـمُ الشعرَ أَرجُو بـه رضـاء أَمـير
بمَـدحـة أَو رِثـاء تهدى لـرَّبّ السَرير
حَسبي إِذا قُلتُ شِـعرا أَن يَرتَضِيه ضَمِيري[410]

هذا هو إنسان اليوم الذي لا على شعر البلاطات، وشعر المناسبات، إذا ستطاع بفضل عقله النيّر، وإدراكه العميق، وتحرّر نفسه من السيطرة الخارجية، أن يكشف الكثير من أسرار الطبيعة ويستخدمها لراحته .

والحياة في نظر الشاعر الزهاوي صدقي الزهاوي نزاع جهاد دائمان، وهي سعادة وشقاء، يسيطر فيها القوّي على الضعيف :

ليس الحَياة سُوى نِزاع دائم يا للضـعيف به مـن الجبار[411]

علم الذي درس الحياة كفاحص أَن الـحياة تَنَـازع وجهاد
أَنَّ الـحَيـاة سَعَـادة وشَـقَاء يَتَعَاْقَـبان وضَـحكة وبكاء[412]

---

[410] منذر الجبوري، شعراء العراقيون، ص 150.

[411] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 20 .

[412] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، ص 181.

وهو يراها وحدة تامة، قائمة بنفسها، ما هي إلاّ دائرة، الآتي فيها هو ماضي والماضي، يعود، وليس هناك جديد :

ما أَرَى الأَيام بالأَشيَاءِ إلاَّ دَائِـــــــرات
كل آت هــو مَــاضٍ وكُلّ مَاضٍ هو آتي[413]

ويتمنى الشاعر بدر شَاكر السيّاب لو أُعطي أن يعرف في ساعة واحدة من ساعات عمره كل ما غمض، يعرف الوجود كله في ماضيه وحاضره ومستقبله :

آه من لي بِسَاعة أَتَقصَّى كُل مَعــنى فيها وكُــلَ بَيَان
سَاعَةٌ أَجرعُ الحَياةَ رَحِيقاً ثُمَّ أَظمى لسؤر ما في الدنان
ساعة أَجتني الوجود وما كَان وما قد يَكون في الأَكوان[414]

فيجيبه صوت آخر : أنك أعجز من أن تقرأ سفر الحياة، وتفهم جميع صفحاته :

ما الحياة الدُنيا سُوى صَفَحات لكَ مِنَّها السُطُور لا الصَفحات[415]

وقد تسيل دموع الشاعر مُحَمد الجَبار من البحث المرهق عن قصد الوجود، فينشد متألماً :

أَنا بَاحث والدَمعُ يَسأَل صَامتا ما القَصد مِنْ هذا الوُجُود الفَاني ؟
ولَقَد رَأَيتُ الكَون مُتَسِعاً سُوى فَــوضَى الــحَياة بِعَالم الإِنْسَان[416]

ويتساءل الرصافي أيضاً عن الوجود وغايته، فيقول :

---

[413] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، ص 143.
[414] بدر شاكر السياب، الديوان، ص 286.
[415] معروف الرصافي، الديوان، ص 563.
[416] منذر الجبوري، شعراء العراقيون، ص56.

من أَين، من أَين يا ابِتَدائي ثُـمَّ إلـى أَيـن يا انْتَـهائي
أَمَـنَ فَـنَاء إلـى وجـود ومن وجـود إلـى فَـنَاء ؟
أَمْ مِنْ وُجُود لـه اخْـتِفاء إلى وُجُـود بِـلا اخْتِـفَاء ؟
خَرَجتُ مِنْ ظَلمة لأُخـرى فَـمَا أَمَامي ومَـا ورَاْ ئي؟[417]

حتى إذا حاول معروف الرصافي أن يطلع سفر العالم العلوي لعله يحظى بشيء يهدّىء ثورة نفسه المتطلعة إلى المعرفة، رجع خاسراً، لا يعرف شيئاً من معانيه :

كـأَنَّ الـعَالمَ العلـوي سَـفر نُـطَالِعَه ولَـسنَا مُفْصِـحِينا
نحَاول منِـه أَعرب المَـعَـاني بتَأْويـل فَـنَرجَـع مَعْجَمِـينا
فـيا أُم الـنُجُـوم وأَنْـتَ أَمّ اَبُوكَ فـيكَ كـالأَرض البَنُونا
وهـل فيـك الـحَـياة وجـود فيمكن للردى بـك أَنْ يَكـونا
وهل بِكَ مِثل هذه الأَرض أَرض وفيـها مـثْلـنا متـخَالفُونا
وهـل هـم مِـثْلنا خَلقا وخُلقاً هـناك فـيأَكُـلون ويَشْرَبُونا[418]

ويجول أحمد النجفي هنا وهناك، يبحث عن علة الوجود زاويةً، زاوية. حتى إذا أرهقه السفر، رجع إلى عزلته، معترفاً بجهله :

وكم سَائحٍ جَائلٍ في الوجود كَمِـثْلّ أَسِـيرٍ مِـنْ السِجن فر
لقد كان يَبحث عَـن نَـفسه وفي الـبَدو يَنشِـدها والحَضر
فَخَاب وما إِن رَأَى نَـفْسَـه ولا ما اشْتَهت مِنْ مَنى أَو وَطر
سَعى ثُمَّ عَـادَ إِلـى عَـزلة لِـيدرِك بِـالإعْـتزَال الـظَـفر[419]

---

[417] معروف الرصافي، الديوان، ص 23.

[418] نفس المصدر، ص35.

[419] أحمد الصافي النجفي، الديوان، ص 7.

وكذلك تحار نازك الملائكة في معنى الوجود، وفي سرّ " أنا" حتى إذا رجعت إلى صوابها لا تجد الاّ التحرّق والتلاشي :

لَقَبُوني " أَنا " ولَمْ يَفْهَمُوني مَا أَنا، ما وُجُود المُكْفهر ؟
أَنا مَــاذا ؟ تَحرّق ليس يَرتَاح، وظَلَّ سُرعَان ما سيمرَّ[420]

وقد تغنى كثير من الشعراء في العراق بجهلهم معنى الوجود وسرّه اذ راح كل شاعر يتساءل عن الحياة وعلّتها وغايتها محاولاً أن يحل أسرار الكون، إنما لم يستطيع أحد أن يدرك ألف الحياة وياءها، فلم التساؤل؟ ولم العناء؟ ولم إجهاد الفكر؟ :

خَــلَّ الأمــور لــربــها لا شيء في الدُنيا عُــرف
هَيــهَاتَ تُــدرِك يَــاءَها ما زِلتَ تَجْهل مــا الأَلف[421]

وفي المعنى نفسه يقول الشاعر عبد الوهاب البياتي :

مَا الخَلق ؟ هل أَدركتَ فَامضه وأَزحَــت عَنه غِياب الظُلم
أَجــهدتَ فِــكركَ فــي تَــعقله وصَدَرت عَنه وارداً كظمي[422]

على أن التأمل في الوجود والحياة، والبحث في علتهما، وغايتهما، قد شغل الفكر عند شعراء العراق في القرن العشرين، وقد وقفوا عامة موقف اللا أدريين الحياري قلما نجدهم مؤمنين إيماناً راسخاً. فإنسان اليوم لا يرضى ما جاء به القدامى من فلسفة وعلم، بل يحاول أن يفسر ما يراه بنفسه، ويبحث في كلّ ما يحسّ، فهو يصبو

---

[420] نازك الملائكة، شظايا ورماد، بغداد 1949 م، ص143.

[421] نفس المصدر، ص 77.

[422] عبد الوهاب البياتي، الديوان، ص 44.

دائماً إلى إدراك ما غمض، وحلّ ما أشكل عليه، عن طريقة إختباراته الشخصية الروحية، فإن أخفق تألم وبكى، وبات قلقاً، مضطرباً، لا يطمئن إلى شيء.. فمن أستطاع أن يصل إلى أعماق الحياة منذ كانت الحياة ؟ ومن استطاع أن يدرك غاية الوجود والكون ؟ ومن استطاع أن يصرع القضاء والقدر من كان القضاء والقدر ؟ من أستطاع أن يحلّ لغز الفناء منذ كان الفناء والموت ؟ ... هذا ما يقلق الشاعر ويجعله لا يهدأ، فتراه باحثاً، متسائلاً، يصعد طوراً إلى أعماق الفضاء، وطوراً يهوي إلى أغوار الأرض، فيرجع مغموراً بالشك، محاطاً بالجهل، متسائلاً : ما الحياة وما الوجود ؟,

5.2. المَوت :

إن الموت سر لم يتوصل إلى حقيقته انسان منذ كان الإنسان. كل كائن يموت ويفنى، وقد تأمل المفكرون القدماء في روح الإنسان أو نفسه، وفي مصيرها، غير أنهم لم يجزموا جزماً قاطعاً في مصير الإنسان بعد الموت، وكل ما عرف عنه هو أن الجسد يتوارى تحت التراب، ويتلاشى عن وجه الأرض، وقد استمد شعراء العرب القدامى وحيهم عن الموت من تجاربهم الفطرية أو من الأنبياء أو من الفلاسفة المفكرين، فمنهم من قال بالبعث والنشر، ومنهم من قال برجوع الروح إلى الله جل جلاله، منبعها ومصدرها، ومنهم من وقف موقف الشك والحيرة، غير أن شعراء العرب القدامى عامة والعراق خاصة لم يجعلوا الموت موضوعاً لقصائدهم، بل ذكروا عرضاً في الرثاء أو في حالة اليأس.

اما شعراء العرب المحدثون فقد ذكروا الموت في قصائدهم الرثاء وغير الرثاء وجعلوه موضوعاً لقصائدهم، متأملين فيه، باحثين عن سره، ولم تختلف نظرتهم إلى الموت كثيراً عمن سبقوهم، غير أنهم لم يتقيدوا بالتجارب القديمة ولم يستوحوها، بل سعوا بأنفسهم يتأملون ويبحثون، ويطلعون على الفلسفة المادية الأوربية الحديثة التي تقول أن الحياة دائرة، فالإنسان ينحل ذرات في التراب ليكون غذاء للزرع والعشب والزرع ينحل ليكون غذاء للحيوان والإنسان، والحيوان ينحل ليكون غذاء للإنسان وهكذا تدور الدائرة. والشعراء مؤمنون بالروح المبدعة، همهم أن يعرفوا ما مصيرها، لم خص الإنسان بها ومصيرها إلى التراب ؟

يقف شعراء العراقيون متسائلين عن الموت وحقيقته، تارة يؤمنون بخلود الروح وما تنتجه من خلق وإبداع، وتارة أخرى يقفون موقف الشك والحيرة واللاأدرية.

إن الموت يقضي على كل كائن ويتفرد الله بالبقاء والخلود، ويدور على كل إنسان، فلا ينجو منه امرؤ، قوياً كان أم ضعيفاً فينشد الزهاوي فيقول :

هو المَوت لَمْ يُنجَ منه امرؤ ولـــو إنــــه فـــي بُروج تَشَيد
يَـــمُوت القَـــوي كَـــمَا إنه يَمُوت الضَعِيف فَهل منْ مُخَلد
وما المرء إلاَّ رَهين الرَدي فَسُـــبحَان مِـــنْ بِـــالبِقَاء تفَرد[423]

ويطفئ الموت كل ما تضيء الحياة، ويقع الإنسان إلى نومه الأبدي ساكناً، بلا حراك :

يُطفئ المَوت ما تَضيء الحَياة وَوَراء إنْــطفَائه ظُلُــمَات
إنَّ للـــنَازِلين في القَبر نُـــوماً تَنتَهي في سُكُونه الحَرَكَاْت[424]

والموت آفة الحياة، لأنه يفني كل شيء :

ما أَلذَّ الحَياةَ لولا المنَايا على الأَثر
إنَّما المَوت آفة ليس تَبقي ولا تذر[425]

والموت يقضي على العالم والجاهل، وعلى الكبير والصغير، ويقول الرصافي في ذلك :

خَالطَ تُـــرب الأَرض جُثمَانه مَـــطحُونة بِـــهـــا الأَضْـــلـــع
لله در المَـــوت مِـــنْ حَـــظة فيها اِستَوى ذو العَيَّ والمَصقع
ما قدر الـــموت فمن حَوله لَمْ يُنج لا كِـــسرى ولا تَـــبـــع[426]

---

[423] جميل الزهاوي، الكلم المنظوم، ص6.

[424] نفس المصدر، ص 8.

[425] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 119 .

[426] معروف الرصافي، الديوان، ص 33.

وقد نشر الموت حبائله في كل مكان، حتى إن الشاعر عبد الوهاب البياتي يرى مهرباً منه :

أَين المَفرُ وللمَنُون حَبَائِل مَنصُوبة كَيف اتَّجَهنا جِينا[427]

ولكن الشاعر لا يخاف الموت، لأنه يؤمن بأنه من الأرض وإلى الأرض يعود ويقول عدنان الراوي :

مَا بِنَفسي خَشية المَوت ولا مــنه اِرتــهابي

أَنا للأَرض وإِنْ طَــال عن الأَرض إِغْتِرابِي[428]

ويرى الشاعر في الموت راحة، يستريح فيه الإنسان من الأتعاب والأوصاب. ولعل روح أحمد الصافي النجفي لاقت صدى في نفوس شعراء العراق المحدثين الذين يطلبون الكمال عن طريق الجد والكفاح والسعي، حتى إذا تعبوا من النشيد وجدوا أنفسهم في عصر كثرت فيه الإضطرابات والفساد، وحاولت بينهم دون الوصول إلى غايتهم المثلى، فذكر النجفي، الشاعر العراقي الذي لم يستطع أن يبلغ الكمال في الأرض لإنتشار الفساد في عصره، فطلب الموت ليتخلص من البشر وهمهم، ومن التفكير المضني :

إِنْ سَئِمتَ الحياةَ فَارجَع إِلى الأَرض تَنم آمِناً مِنْ الأَوصَاب

تِلكَ أمٌّ أَحن عَلــيك مِــنْ الأَمُّ التـــي خَــلَقَتكَ لــلأَتــعَاب

وحَياة المَرء إِضْطِراب فإِن مَاتَ فَقد عَادَ سَالِــمَاً للــتُراب[429]

ويقول علي الشرقي إن الموت لذة وراحة، فالإنسان يخلص من التعب والعناء :

لا يلذ المَوت إِلاَّ مُــتْعَب سَهر العَيش وفي المَوت رَقد

رَقدة يا طَيبِها مِــنْ رقدةَ بَعد أَنْ عَاش وابــلى وسَهد[430]

---

[427] عبد الوهاب البياتي، الموت في الحياة، بغداد 1968م، ص187.

[428] عدنان الراوي، المشانق والسلام، بغداد 1963م، ص 128 .

[429] أحمد الصافي النجفي، الديوان، ص 476 .

[430] علي الشرقي، الديوان، ص210 .

والموت رحمة، ينقذ الإنسان من القسوة في الحياة الدنيا، ومن الجهل والحقد والخوف والأسى، ومن التفكير المضني، كما أنه عزاء أجمعين، وفي ذلك يقول الشاعر علي الشرقي، مخاطباً الموت :

تَمحُو يَدَاكَ الحِقدَ والخَوُف والأَسى وكُلّ بَــلاء في النُفُوس قَدِيم
وأَنْتَ تــريح الفِكر مِنْ كُلّ مَعضل يَــظَل لــه في حِيرة ووجُوم
عزاء لِبَــعْضِ النَاس أَنكَ قَــادم وإِنَّ شَقَــاء العِيش غير مُقيم[431]

وينشد جميل صدقي الزهاوي الزهاوي في المعنى ذاته إنما يستدرك :

كُلّ كَرب يا أَيها الحَي فَاصبر يَنْتَهي عِنــدما يَجيء المَمَات
إِنَّ في المَوتَ رَاحة غِــير أَنَّ المَرء قد لا تُرضِيه إِلاَّ الحَياة[432]

ويقول أيضاً

للقَاء المَوت قَد جَد مني الطَلَب
إِنَّ مَوتي رَاْحَة وحَيَــاتي تَعب[433]

ويرى الشاعر في الموت عزاء وتسلية، فهو خير ما ورثه عن آبائه :

أَنا بالمَوت وَحــده أَتَسلى عن هُمُوم الحَياةَ والأَدْعاث
إِنَّما المَوت خير ما خَلَقْته لُبنِيها الآبــاء مِــنْ مِيرَاث[434]

---

[431] علي الشرقي، الديوان، ص145.

[432] جميل الزهاوي، الكلم المنظوم، ص 89.

[433] جميل الزهاوي، رباعيات الوهاوي، ص 51.

[434] نفس المصدر ،ص 172.

وقد تأثر بعض الشعراء بالطبيعيين الذين يقولون إن الجسد يفنى وينحل في التراب، ويصبح غذاء للزرع والنبت والأعشاب، فيعطي للكائنات حياة، وهكذا تدور الحياة على عجلة الأزمان، فإذا مات الجسم خمدت الروح وجميع قوى الإنسان، وفي ذلك يقول الزهاوي:

فـــإذا مـــا مَـــاتَ جِسْـــم المَرءِ فَالرُوحَ تَـــموتُ [435]

والنفس دون جسد لا تحس، فلا رجاء للإنسان بعد الموت :

ما للـــحَيَاة وَراء المَوت تَجْدِيد فلا يَـــقُوم مِـــنْ الـــحَداثَ مَلْحُود

القَـــبر آخر بيت لـــلأَلى هَلَكوا والحس في الهالكَ المَلحُود مَفْقُود [436]

وقد حيّر الموت شعراء العراق، فوقفوا بين الجماجم والقبور ،متأملين في الموت، شائلين عن سرها، تارة يؤمنون بخلود الروح، وفناء الجسد، وتارة أخرى يؤمنون بفناء الروح والجسد معاً. وقد يعتبرون الموت ظاهرة طبيعية، كما عبّر عنها العلماء الغربيون والفلاسفة الطبيعيون، غير أنهم يطيلون الوقوف بين الحياة والموت، فيغمرهم الشك والحيرة واللا أدرية .

ومهما يكن فقد كره الشعراء الموت وأصبح شغلهم الشاغل حتى إذا غدرهم الزمان وهمهم تمنّوا أن يموتوا حتى يتخلصوا من أوصابهم وآلامهم، وهم على أكثر من اليقين أنهم سيجدون راحة أبدية، ورحمة واسعة، إذ فالموت يسلبهم إحساسهم المرهف وأعصابهم الثائرة. ومن ناحية اخرى يعزّون أنفسهم بأن الموت لن يستطيع أن يسلبهم شعورهم وأفكارهم التي يتركونها قصائد رائعة، وهم أيضاً على أكثر من اليقين أنهم سيبقون خالدين بشعرهم الرائع .

---

[435] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، 141.

[436] جميل الزهاوي، قصيدة الأوشال، ص 127.

6.2. الدِين :

في الأدب العراقي الحديث، آراء جريئة في ماهية الدين، فالدين الحقيقي ليس إلا شعوراً داخلياً سامياً يهتف بالإنسان إلى الرقي المستمر والمعرفة، حتى يبلغ الكمال الإلهي، ويصبح رسولاً، في قبضته الإنسانية، تنير له طريق الحق.

والدين هو الإيمان الصحيح الذي يلقي- على حد تعبير أحمد النجفي ((على روحك السكينة لأنها متصلة بالله وفي ضميرك المحبة لأنه متصل بالناس))[437] .

والدين هو عبادة الإنسانية والعقل، وهو السعي الخير العالم كله، وما كان ذلاً لهذي الحياة :

والدِين مَا كَــان سُوى سَعْيَكُم للــخِير لا ذلاً لِهذي الحَياه
مَنْ عَاشَ في أَعْــمَى الحَجى لَــمْ يَغْنَم الدُنيا ولا مُنْتَهاه[438]

وقد انبثق الدين من صميم الحياة، وهو فيها ليس خارجاً عنها، لذلك ينبغي عليه أن يساير الحياة بكل ما فيها، حتى يتم السعي المستمر في سبيل تحسين الحياة ورقيها وما الحياة إلا هيكل يدخله الإنسان كل يوم، وفي ذلك يقول الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي :((إن حياتكم اليومية هي هيكلكم، وهي ديانتكم، فخذوا معكم كل ما لكم عند تدخلون هيكلها، فخذوا السكة والكُور، والمطرقة والطَّنبورُ))[439]. على أن الدين الحقيقي هو الذي يساير المدنية بتفاعله المستمر، على حد تعبير ضياء الدين الدجيلي، ((مع حاجات الناس، ومع الحياة، حتى تستطيع البشرية أن تجد منه عوناً دائماً يمكنها من مواجهة مشاكلها المستحدثة، وضروراتها الطارئة. ويبارك محاولتها المستمرة للتقدم والوثوب))[440]. والمدنية الصحيحة بالتإلى تقدس الدين الذي بنى على

---

[437] سالم أحمد الحمداني، الأدب العربي الحديث، ص221.

[438] سامي مهدي، الديوان، بغداد 1979م، ص393.

[439] يوسف عزالدين، شعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية، ص 95.

[440] ضياء الدين الدجيلي، دراسات في الأدب العراقي، بغداد، بدون تاريخ، ص 46.

فضائل الإنسانية، فسما بالقلب والروح فوق جميع الحدود والسدود، وفوق كل جنس ووطن .

والدين بطبعه يساوق الحياة، فهو ((إنساني بطبعه وشرعته.. ديمقراطية النزعة.. لا يعترف بالفوارق المفتعلة))[441]. وهو يؤمن بالعقل ومسعاه لجعل الحياة مشرقة، فان عصر الزهد والموت، على قول سَالم أَحمد ، ((قد إنتهى وتقوض، ونحن اليوم في عصر الحياة، فالدين لم يجيء ليجعل من الحياة البهيجة المشرقة مقبرة نقضي من ايامنا في صوامعها ولحودها، ولكنه جاء يهتف، ويدق أجراس الصباح للنوام صائحاً فيهم : إليكم زينة الله عز وجل، وطيبات الدنيا، ومسرات الحياة))[442].

رسالة الدين الحقيقية هي الحياة، وللحياة فقط، والحياة هي أن نعيش كريماً حراً سعيداً، لا أن نعيش مهاناً، عبداً، محروماً ((فكل دعوة تدعوك إلى الحياة والسير في موكب التطور .... خذها بقوة))[443].

ويطرح الشاعر المفكر التقليد، لأنه ينفر منه بطبعه، ويدعو إلى الحياة المثلى لأنه يحيا بطبعه، فيقول الزهاوي في تحكيم العقل في الدين :

ولكنني مَا كُنْتُ يوماً مُقَلداً يرى أَنَّ حُكم العَقل في الدِين مَأَثم[444]

والدين باقٍ في جوهره لا في عقائده ، وهذا الجوهر هو الذي يؤلف بين الناس جميعاً، وهو الحب ((ذلك الخيط النوراني الوثيق الذي ينظم قلوب الناس، فيجعل من حياتهم أغنية بهيجة ساحرة))[445]، وهو بذلك يسعد الإنسان ويقوده إلى العلى والسلام.

فينشد عبد المحسن الكاظمي :

تَسِيرُ بِنا الدنيا إِلى الحُسن والعلى إِنْ كَان في الوَعد الطَرِيق مَفَاسِد
أَبث جَمَال الحُب في النَاس هَانِئاً فَـذَلكَ دِيـن للسَـعَـادة قـائد[446]

---

[441] ضياء الدين الدخيلي، دراسات في الأدب العراقي، ص87.

[442] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص 61.

[443] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 86.

[444] نفس المصدر، ص 21.

[445] سالم أحمد الحمداني، التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، ص126.

[446] يوسف عزالدين ، في الأدب العربي الحديث ، ص 181.

وإن بعضاً من شعراء العراق المحدثون، قد اعتبروا الدين شعوراً سامياً وإحساساً عميقاً يدعوا إلى الفضائل، وطرح الرذائل، وهو سعي مستمرّ قابل للتطور، في سبيل حياة واعية، مشرقة، تدعو إلى دين واحد، وربه العقل والحب، ورسوله الإنسانية .

وفي أوائل الأربعينات نلاحظ الشاعر العراقي كان يتحدث عن القيم الدينية ويريد بها في نفس الوقت القيم القومية ايضاً.

وكذا نجد الرصافي يقول :

قُــلــن لِــمن رامَّ صــدعنَا بِشَقَــاق   أَنْتَ كَالــوَعْــل نَــاطِح الصَفْوَان

وبــك إنَّ الإسْـــلاَم أَوجَـــد فــينَا   وَحْــدَة مِــثْل وَحْــدَة الرَّحْـــمن

فَاعْـتصَــمــنَا منِها بِحَبل وَثِــيــق   هــو حَــبِـل الاخــاء والإيــمان

لَيْسَ مَــعنى تَوحِــيدنا الله فــي الله   إلا اتِّــحَــادنِــا فــي الــكِــيان[447]

وعندما وقعت مأساة فلسطين، يبكي الشاعر العراقي الزهاوي عمق الازمة..ويتذكر ويذكر بان هذه الأرض المقدسة هي مهبط الأنبياء فيقول :

مَــولد الــرُوح وللــرُوح نُشُــوء وارتِــقَاء

ولَــطَه فــي مواقــيك إحْــتفَال وأَحْــتِفَــاء

مَوطِن الضَــاد بـــه للضَــادِ أَرض وسَمَـــاء

تَخْتَفي فيه الصَحاري البَيض والبَيد والوُضاء[448]

وهكذا استخدم شعراء منابع الدين الإسلامي وقيمه الروحية وتراثه النضالي في التصدي للجاهلية والإنتصار عليها والإنطلاق بالفتوحات العربية الإسلامية كرصيد أساسي في تعزيز الإلتزام القومي بالأرض، والدفاع عنها بوجه الاحتلال الأجنبي .

---

[447] معروف الرصافي، الديوان، ج:3، ص352.

[448] جميل صدقي الزهاوي، الديوان، ص 121.

7.2. الحُب :

لم يتجرّد الحب في الشعر العربي القديم إلا عند الفئة القليلة المتصوفة، التي جعلته ديناً لها، ورأت فيه القوة الإلهية المطلقة التي ترفع الإنسان إلى الله ليتحد به، ويصبح عالماً، عارفاً، محباً لكل كائن. وقد عرف الشاعر العربي القديم الحب العذري ولو مقيداً مغموراً بالإخلاص والصدق والتفاني والمحبة. اما سواد الحب في الشعر العربي القديم فكان محصوراً بالتشبيب، فلم يلتفت إلى الفضائل الروحية.

غير أن الشاعر العربي الحديث وخاصة الشاعر العراقي اهتم بالحب وتجريده وتعزيز روحانيته وألوهيته، وشيوعه بين كل فرد من افراد العالم، منادياً بالحب منشداً:

والحُب في الرُوح لا في الجِسم نَعرفه كَالخَمر للوحي لا للسُكر يَنْعَصِر[449]

وقد ارتفع معنى الحب في نظر الشعراء حتى أصبحوا لا يحبون لغاية بل الحب نفسه. كما اصبح الحب هو رسالة الشاعر القدسية، والحب هو القوة الإلهية التي تحدو بالإنسان إلى البحث عن خفايا الكون :

الحب جَرَّدني فَصِرتُ حَــقِيــقَة تَصْفى لقلب الكَــون في إِمْعان
أَحْبَبتُ أَعْدَائِي بِعَــطف لاهِــف وسموتُ عن حَقد وعن أَضغان
ما الحب خلواً من رِسَالة شَاعر قُدسِــية لرِعَــاية الأَوطَــان [450]

وهذا الحب الذي يقدسه الشعراء هو دينهم، أراد الله عز وجل أن يبعثه رسولاً إليهم، ويقول أحمد الصافي النجفي :

أَنت يا رب أوجــدت فينا الشَاعرينا
وجَعَلتَ الحُبَّ للشَاعر في دُنياه دِينا[451]

---

[449] علي الشرقي، الديوان، ص67.

[450] نفس المصدر، ص73.

[451] أحمد الصافي النجفي، التيار، دمشق 1964م، ص66.

وبإيمان عميق بهذا الدين، الذي هو دين الحب، يحب الشاعر بقلبه الكبير جميع الكائنات كما لو كانت كائناً واحداً ويقول ايضاً.

لقد أَحبَبــتَكُم كَثيراً وَفَــوق الكَــثير
قد أَحبَبْتَكُم جَميعَاً كَما لَو كُنتُم واحداً[452]

والحب وحده هو الكفيل بسيادة الرخاء والهناء والسعادة بين الناس. وهو وحده يعمل على إشاعة النظام والتعاون بين الناس. وهو يزيل بينهم آفات الحقد والحسد فلو ((ساد الحب، لاحترمت الآراء...ولو ساد الحب لعمّ التعليم، وعممت المستشفيات الشعبية، وعممت المنتزهات العامة، وحورب البؤس قبل أن يشجع الترف))[453]. وبالحب يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه، وبالتإلى يعرف الله عز وجل حقيقته، ويقول مصطفى جمال الدين :

إنَّ نَفساً لَمْ يَشرِق الحُب فيها هي نَفس لَمْ تُدر مَا معناها
أَنا بالحب قد وصَلت إِلى نَفسي وبالــحب قــد عَرفتُ الله[454]

والحب هو نور الكون، وهو قبس سماوي وفي ذلك يقول الرصافي :

أَصــلَــحِي الأَوتَــارَ لــتَريني أَنَّ أَصل الحُب نُور
وأَسْمَــعي الأَطــيَارَ إذ تغني فَوق هَامَات الزُهور[455]

والمحبة مثل، ((كلمة من نور، كتبتها يد من نور، على صحيفة من نور))[456]

والحب هو قبس من الله، لا بل هو الله، وهو إكسير الوجود، ومانح الحياة للكائنات جميعاً، وينشد علي الشرقي:

هو الــحُب إِكْسير الوُجُــود بِلا مــرا ولولاه مــا كان الــوجود كــما تَــرى
هو الحَي مَولوداً، وهو المَيت عَــائداً هو النَجم قَد أَسرى هو الصبح والدُجى[457]

---

[452] أحمد الصافي النجفي، التيار، ص 56.

[453] سالم أحمد الحمداني ، الأدب العربي الحديث، ص33.

[454] مصطفى جمال الدين، خيوط النجوم، بغداد 1971م، ص 115.

[455] معروف الرصافي، الديوان، ص 153.

[456] يوسف عزالدين، الشعر العراقي الاجتماعي، 40.

والمحبة هبة من الله عز وجل، وهي التي تزوّد الإنسان بالعلم والمعرفة، وهي، على قول محمد سعيد، ((معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كماتراها الآلهة))[458] . وهي حرية تمنح الحرية ويقول محمد سعيد في ذلك:

رَب هَبْنِي مَحَبة، فيهـــا أَدرك
حُرِيَتي، وأَعْــرف نَفْــسِي[459]

وهناك كثيرين من الأدباء المحدثين الذين يرون أن المحبة هي طريق الوصول إلى الله جل جلاله، وهي الرباط الإلهي الذي يجب أن يرتبط به الإنسان على الأرض حتى يستطيع أن يبني عالماً أعزّ من عالمه، فتأتلف القلوب ويشيع السلام، فيقول أحمد الصافي النجفي :

أوَ لم نبن بالمحبة والرأفة دنيا أعــزّ مــن دنيانا[460]

والمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم، لأنها ترفع النفس إلى مقام سام، لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم، ولا تسود عليه نواميس الطبيعة، وأحكامها، لأن قبلتها المثل العليا، و وطنها العالم، وهي لا تتقيد بقيود، ولا تعرف فرداً دون فرد، ولا وطناً دون وطن[461]. والمحبة الحرة طليقة، تتموّج بين شواطئ النفوس، ولا تعطي إلا نفسها ولا تأخذ إلا من نفسها .. المحبة لا تملك شيئاً، ولا تريد أن يملكها أحد لأنها حرة، طليقة، مندمجة في جميع الكائنات، وهي خالدة لا تفنى فيقول محمد الفراتي:

في النُورِ في البَرقِ في الأَنوَاءِ مُندَمِجاً في الزَهر في العَرف في الأَندَاء في المَاء
في كُــلّ ذَرَّات هــذا الــكَون مُنبــعثاً تُعْــطِي الــحَياة لــها فــي كُلّ حَــوبَاء
فَالخَد أَنْتَ، وأَنْتَ الــخُلدُ مَــا اتَصلتُ منــــك الأَواحــد مــا بَــيــن الأَخــلاء
مــاذا أَقُــول بِمَــعْنَى لا حُــدُود لــه وأَنْــتَ تُــحصِره في الــحَــاءِ والــبَاء[462]

---

[457] علي الشرقي، الديوان، ص30.

[458] داود سلوم، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، ص78.

[459] محمد سعيد ،الديوان، بغداد 1980م، ص 42.

[460] أحمد الصافي النجفي، الديوان، ص69.

[461] يوسف عزالدين، الشعر العراقي الحديث، ص36.

[462] محمد الفراتي، الديوان، بغداد 1946م، ص 40.

وكذلك يرى الشاعر عبدالمحسن الكاظمي في الحب حرية وخلوداً وسعادة :

الـــحُب رُوح الكَون لولاه لما عَاشَت به الأَحيَاء بِضع ثَواني
الحُب أَجنَحة الخُلود تَجَاوزت بِحَفِيفها هــذا الــزَمان الفَاني
الحُــب يَنبُوع الحَياة تَفَجَّرت من رَاحَتِــيه سَعَــادة الأَكوان[463]

وترى نازك الملائكة أن الحب هو نشيد مطلق أزلي خالد، وهو الذي يجرّد الأرواح من أجسادها، ويحملها معه حرة طليقة من قيود المادة :

أَي لَحن مُخَــلد سَــرمَــدي مِــنْ لَــحُون الآزال والآبــاد
أَي لَحن قد صــير الكَــون أُغْــرُودة حُب رَخِيمة الإِنشَاد
يا لهذا النَشِــيد تَنْــطَلق الأ رُواح فــيه مِنْ ربقة الأَجسَاد[464]

والمحبة مجبولة من عناصر القلب، فإذا مزج الكيماوي، الحنان والأحترام والإشتياق والتجلد واللهفة والدهشة والغفران بعضها ببعض، ذلك الجوهر الفرد الذي ندعوه حبا [465].

والحب عاطفة مخلصة صادقة، لا تعرف الغدر ولا الكذب، وفي ذلك ينشد الشاعر الرصافي :

الحُب ! ما الحُب إِلاَّ كُلّ عَاطِفَة لا تُأَلف الغَدرِ ولا تُعرف الكَذبا[466]

كما أن من خصائص الحب الرحمة، لولاها لما ابتهجت الكائنات، ولما جاهدت في الحياة فيقول ايضاً :

لولاهُ... لولا الحب...لا عِيشْنَا يَحلو لنا...ولَيس يَحلُو الجِهاد
ما الحُب في الدُنيا سُوى رَحمة أَرسَــلَــها الله لِــهذي الــعَاد[467]

---

[463] عبد المحسن الكاظمي، ديوان الكاظمي، ص48.
[464] نازك الملائكة، الديوان، ص 55.
[465] يوسف عزالدين، الشعر العراقي الإجتماعي، ص222.
[466] معروف الرصافي، الديوان، ص 76.
[467] نفس المصدر، ص 67.

وهكذا نرى أن المحبة والحب هما من منبع واحد، ومن جوهر مقدّس واحد، وهما من قبس الله، وقد يشتد حنين الشاعر إلى معرفة ذلك الجوهر الأزلي العظيم، ويهيم شوقاً لرؤية الله جل جلاله، والإتحاد به، فيرى الكائنات جميعاً غرقى في الوجد الإلهي، وكذلك السماوات والجبال، ويخفق قلبه بحب الله جل جلاله الذي هو الخير والجمال والكمال، حتى إذا ارتفع عن الأرض دعا ربه أن يضمه إلى صدره إلى الأبد، وفي ذلك تنشد نازك الملائكة :

وإذا الحُب مَلءَ هذا الوُجُــود والرحب يَسْري في رَوعة وإنطلاقِ
وإذا الكَــائِنَات يَــغْرُقــهَــا والوَجْد الإلَهي في سُنــى الإشرَاقِ[468]

هذه الروح الصافيه التي هدفها الوصول إلى الله بواسطة الحب، فالشعر العراقي الحديث يؤمن بالحب الروحاني الإلهي، الذي يخلد ويبقى إلى الأبد، ويرى فيه حباً صحيحاً عميقاً.

إن الحب، هو نتاج عن حالة اللاوعي، والعفوية المفرطة التي لا تخضع لقواعد وصياغات اللغة إنما إلى منظومة القلب منبع الإحساس والعاطفة التي لا تشترط إثبات صدقها من عدم صدقها[469]. إنها تحمل بين طياتها صدق دعواها من خلال التعبير عنها بالحواس الخمسة فنظرة مليئة بالإحساس تكفي للتعبير عن الصدق. ويكشف الشاعر عبد القادر الناصري علاقة الحواس مع الروح في الحب قائلاً :

أحُبك، هل عَلمت، سَلي دُموعي على كَفيكَ لو سئلت تبدح
أحُبك هــل عَلمت، بِــأَنَّ رُوحي على شَــفتيك ذَائِبة تَنُوح[470]

---

[468] نازك الملائكة، الديوان، ص 87.

[469] نفس المصدر، ص 71.

[470] عبد القادر الناصري، الديوان، بغداد 1979م، ص 219.

أما حب الوطن والحنين إلى البلد، فإن محمد مهدي الجواهري هذا الشاعر العراقي الكبير لم يستطيع أن يخفي حنينه إلى ريح بلده والإرتواء من ماء الفرات فوصف حبه في أبيات :

أَقُول وقَــد شَاقَــتنِي الرِيح سَحرة ومَنْ يذكر الأَوطَان والأَهل يَشتَق
ألا هل تَعــود الــدَار بَــعد تَشَتُت ويَجــمَعُ هــذا الشَمل بَعد تَفَرُق؟
وهل نَنْتَشِي رِيح العِراق؟ وهل لنا سَبيل إِلى مَاء الفُرات المُصَفَق؟[471]

وفي قصيدته " بغداد " يناجيها قائلاً :

لا دَرَّ دَرّكَ مِــنْ رُبُــوع دِيــار قُرب الــمَزار بها كَبُعد المَزار
يَعفُو الدَوار بِرَأَس مِنْ يَشتَاقها ويصاب –وصَويخَاتِها– بِدَوار
هوت الحَضَــارة فوقها عَربية وتَفَردت مِــنْ أَشور بِــالآثار [472]

ومهما يكن فقد لمسنا في الشعر العراقي الحديث، إتجاهاً جديداً في معنى الحب وقد أصبحت المحبة مرادفة له. كلاهما روح وخير ونور إلهي وحرية، لهما خصائص الدين الذي يحث على الفضائل، فهما دين الإنسانية .

[471] محمد مهدي الجواهري، الديوان، ص 98.
[472] نفس المصدر، ص 99.

3- القيم الإنسانية والأخلاقية :

تغنَّى الأدب العراقي الحديث بالإنسانية على أنها مجموعة الفضائل، وهي خلاصة الخير والعدل والرحمة والمحبة، ومثل ذلك من حميد الصفات. وهذه الإنسانية هي ولا شك نتيجة للآراء الفلسفية التي انتشر على مرَّ العصور في البيئات العربية المختلفة.

وقد بلغت الإنسانية ذروتها بعد الحربين العالميتين، وقامت الأمم في جميع أنحاء المعمورة، تنادي بحقوق الإنسان، إينما

كان، وتنشر بين الناس شرعة حقوق الإنسانية.

وقد تغلغلت جميع هذه الأمور في الفكر العراقي الحديث، ولقيت صدى عميقاً في قلوب الشعراء الواعية، فهبّوا يطلبون العدل والمساواة والحرية، يحثون قومهم على الاخاء والتعاون، والتجرد من كل تقليد يضع ستاراً بينهم وبين أبناء وطنهم من جهة والعالم كله من جهة اخرى، ذلك إن الإنسانية مطلقة تدعو الى الاخاء والعدل والمساواة والتعاون، إذ لا تعرف حداً ولا فاصلاً.

والإنسانية مطلقة تدعو الى المساواة، فلا تعتبر لوناً، ولا طبقة دون اخرى. وهي عالمية، لا تعترف بالقومية، بل بالناس جميعاً، والحياة هي قلب ينبض بالحب العام للإنسانية كلها، من غير اعتبار لطبقة، ولا لون، ولا حسب ونسب، ولا غنى ولا جهل، ولا ثقافة....إن الإنسانية لا تعترف بالقومية ولكن تعترف بالناس جميعاً[473].

والإنسانية عاطفة سامية ((تربطنا بكل أفراد النوع الإنساني، وتغرس في قلوبنا الحنان على الجميع. ولا فرق فيها بالجنسيات والأديان، لأنها عاطفة الإنسانية. فعندها الأسود والأبيض، والأصفر والأحمر_ سواء، والعالم والجاهل، والغني والفقير والمتمدن والمتوحش، والذكر والانثى..لأن الكل أبناء الإنسانية. فهي تجمع العائلات

[473] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث، ص25.

والأوطان، والممالك والعلوم، والمذاهب تحت جناحها، وتنشر عليهم سحائب الرضوان))[474].

وفي ذلك يقول الشاعر عبد الحُسين الأَزري (ت 1954م) :

لا فَرق مَا بينَّ الخَلائِق رُتبة فَكبيرهُم وصَغيرهُم سِيان

مَا دَامَ كُــلّ عَامــلاً ومتمماً مــا يَستَطيع بهمة وجِنَان[475]

والإنسانية ((جامعة الجامعات، وهي أقرب الجامعات الى قلب الإنسانية، وأعقلها بفؤاده، وألصقها بنفسه، ولانه يبكي لمصاب من لا يعرف وإن كان ذلك المصاب تاريخا من التواريخ أو أسطورة من الأساطير))[476].

والإنسانية جوهر أزلي، لا يتغير، كما يقول داود سلوم ((تسير مع الإنسانية حيث سار في بره وبحره، وسهله وحزنه، وحياته وموته، وتدور معه حيث دار، في إيمانه وكفره، وصلاحه وفساده، وإستقامة اعوجاجه، لا يتغير لونها، ولا يتحول ظلها وتستحيل ماديتها، ولا تبتلي جدتها كرّ الليإلى ومرّ الأيام))[477]. ويقول ايضاً: ((إن الإنسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية.. هذه الفروق التي توحد بين الناس في آرائهم، ومذاهبهم، ومواطن إقامتهم، وألوان أجسادهم، وأطوالهم، وأغراضهم، إنما هي اعتبارات ومصطلحات أو مصادفات، واتفاقات، تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكوينه))[478].

والإنسانية روح مقدس، تؤاخي وتسالم وترفق. وهي الاخاء الذي يزيح بيده الشفيفة الشوك عن الزهرة المتروكة، ويرفع لها جدراناً تقيها ريح السموم الفتاك. هو العين المحبة التي ينفذ نظرها إلى أعماق النفس، فترى أوجاعها. وهو الهمَّة العاملة

---

[474] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، ص209.

[475] نفس المصدر، ص 45.

[476] يوسف عزالدين، في الأدب العربي الحديث، ص 69.

[477] داود سلوم، تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي، ص 69.

[478] نفس المصدر، ص71.

الخير الجميع، بثقة وسرور، لأنه القلب الرفيق الخافق مع قلب الإنسانية الواجف. وهو اللين والرفق والسماح، كما انه الحكم والحكمة والسلام[479].

ويرى الزهاوي إن الإنسانية والحرية لا ينموان إلاّ بالتآخي والمحبة الصحيحة :

الإستِقــلال يَــنْمو بِــالــتَآخي   ويَضْــمَر بالشقاقِ ويَسْتَدِق
وبِالحُب الصَحيح يَشِيدُ صَــرحاً   أَساسَ خُلوده شَرف وصدق[480]

ويرى الشاعر علي الشَرقي (ت1964م) في الإنسانية محبة وحناناً، ينتصران دوماً على أقوى القوي، لأن الإنسانية تدك المظالم، وتقوض العروش، وتهدم الصخور:

مَهَجَ الوَرَى لا تُستَرق بِسَطوة   بَــل تَسْــتَرق بِرِقَةٍ وَحَنَان
وَيَدكَ بِسَــتِيل المظــالم للثَري   ويَشِّــيدُ عَدلاً رَاْسِخٍ الأَركان[481]

الإنسانية قوّة هائلة سلاحها المحبة والعدل والمساواة.

[479] يوسف عزالدين، الشعر العراقي، ص55.
[480] جميل صدقي الزهاوي، الديوان، ص98.
[481] علي الشرقي، الأحلام، ص87.

1.3. الحرية :

كان العرب القدامى من أشد الأمم حرية في أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم، غير أن هذه الحرية كانت فطرية جاهلية، فوضوية، تهب ناهبة مخربة، أو لاذعة مقذعة وبانتشار الفلسفة في العصور العباسية أصبحت الحرية مدركة واعية، غير أنها ما أن أطلّت ببرعمها حتى خنقت في مهدها، وأخذت تضعف بتوالي الجور والظلم. حتى جاء القرن التاسع عشر كان العامة، على حد تعبير الشاعر الرصافي ((يساقون كالأنعام لا إرادة لهم، ولا حرية ولا رأي))[482] . وعندما وصلت الى أذهان الشرق العربي مآثر الثورة الفرنسية، التي حررت العقول، وبددت الظلمات والجهل، قام شعراء العرب يمجدونها، ويدعون إلى التحرر من عبودية الحكام والمستبدين، والتحرر من التقاليد والخرافات التي تسيطر على العقول العربية، وبهذا أصحبت الحرية الشخصية من مميزات النهضة العربية الحديثة، مثل هذه الحرية الشخصية أو الروحية نقصدها في بحثنا هذا، اما الحرية السياسية والحرية الإجتماعية فهما نتيجتان للحرية الشخصية أو الروحية التي تبدأ في أعماق نفس الإنسان. ومثل هذه الحرية الروحية ((لا تعرف قيداً،، ولا رباطاً، لأنها تحرر من جميع القيود.. والروابط المادية))[483].

وقد نادى بها المفكرون والأدباء المحدثون أساساً قوياً وثورة على الفرد اولاً، لكي تخلصه من الجهل والفساد وتطهر قلبه من الحقد والحسد، وبالتالي ثورة على الأمة والعالم بأسره، تكسر الحدود في سبيل إقامة الوطن العالمي الأكبر. فالمرء ((الذي يثور أولاً على نفسه فيصلحها، إنما هو المصلح الحقيقي، المرء الذي يثور على ما ورث من الاجداد، مما كان فاسداً أصلاً، أو مما أفسده الزمان فيصلحه أو ينبذه، هو الذي يحق له أن يثور))[484] ، فهذه الثورة هي مطهر للإنسان، وبالتالي مطهر للأمة، ثم للعالم كله.

---

[482] يوسف عزالدين، الشعر العراقي في القرن العشرين، ص 56.

[483] يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 99.

[484] يوسف عز الدين، الشعر العراق في القرن العشرين، ص331.

والحرية الروحية والإنسانية مدركة واعية، وهي العالم عينه، والمعرفة ذاتها ويكون الإنسان سعيداً إذا تمتع في حياته بالحرية الروحية. وفي ذلك ينشد جميل صدقي الزهاوي :

إنَّ الحَياةَ إذا حَوَت حُريةَ هي نِعْمَةٌ ما أَنْ يُرَاد زَوَالِها[485]

فإذا عاش الإنسان حراً طليقاً ، ""لا يسيطر على جسمه وعقله ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس، كان سعيدا""[486] ، لا عبداً لشرائعه وتقاليده، بل سيداً لنفسه وحريتها ويرى الرصافي أن حرية التفكير هي روح الله عز وجل المبدع، وهي نوره الأزلي يوحي به إلى الإنسان ليخلق ويبدع :

حُرِية التَفكِير رُوح خَالق كَالنُور تُبعث حَوله الأَنوَار

* * *

خَلِّي رِحَابْكَ للنُبُوغِ رَحيبة ما للنُبُوغِ نِــهَاية وقَــرَار[487]

والحرية الروحية هي الحرية المبدعة، التي تخلق الفنون وتمنح الخلود فتندفع النفس معبرة عن رأيها، حرة طليقة، ترسم وتنحت تؤلف الألحان والأشعار، والفن كما يقول سَالم أَحمد الحَمداني ((حرية قبل كل شيء، حرية واسعة إلى أبعد حدود السعة، حرية في نفس المنتج... إن الفن حرية لا رق... فإذا أردت من الشباب أن يذوقوا الفن ويسيغوه ويحاولوه ويبتكروه، فاجعلهم أحراراً، لأن الفن أثر من آثار الأحرار لا من آثار العبيد))[488] ، فالحرية الروحية هي حرية الإنسان في نفسه وفي دمه، وهي الحرية الداخلية، والحرية التي تنتج، وتثمر، وهي حرية الضمير والوجدان والفؤاد واللسان، وفي ذلك يقول الشاعر مصطفى جمال الدين :

الحُر ذو الضَمِير والــوُجدان والطَــاهر الــفُــؤادِ واللــسَان
مَنْ لا يَخَاف في سَبيل الحَق لوماً ولا يَقُــول غِير الصَدَق[489]

---

[485] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 112.

[486] منذر الجبوري، شعراء العراقيون، ص 187.

[487] معروف الرصافي، الديوان، ص 221.

[488] سالم أحمد الحمداني، الأدب العربي الحديث، ص118.

[489] مصطفى جمال الدين، الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة، بغداد 1978م، ص115.

ومن طبيعة الشاعر العراقي أن يدعو إلى الحرية الفكرية، وإلى سيادة النفس للنفس، والتحرر من كل شيء خارجي، كذلك من طبيعة أن يكون حراً، طليقاً في نفسه وفي روحه، فهو يحب الحرية ويعشقها، لأنه يرى فيها المثل العليا، والإنسانية الكبرى، ويرى فيها الوعي الكامل، والعلم والمعرفة، فلم لا يصرخ الزهاوي في الكون ويعلم الناس الحرية والروحية والإنسانية؟ :

بــثوا بِأَلْـــــسِـــنَةَ مِنْ نَـــار   ما في جَمَاْجِمَكُم مِنْ الإِنكَارِ
سِيروا إِلى غَاْيَاتِكُم في جَرأَة   كَـــالسيل هداراً وكالأَعصَارِ
كونوا جَميعاً سَادة لِنُفُوسَكُم   فَالعَصر سَــيد الأَعــصَـــارِ[490]

ويتمنى الشاعر شاذل طاقة لو تحرّر أهل الأرض جميعاً من الدساتير والحكام حتى تستطيع كل نفس أن تنال مناها، وفي ذلك يقول الشاعر :

يا سَائِلي عن هَوى نفسي وبَغيَتِها   مِنْ الحَياة وقد غَصَّت بِتَكدِير هَواي
تَحْرِيرُ أَهــل الأَرض عــن مـــلأ   مِـــنْ الـــهَداة وأَقطَاب الـــدَسَاْتِير
فَــكُلّ نَـــفْسٍ لها مِنْ سَعْـــيِها أَمل   ولا تَـــنَـــالَّ مِـــناها دُون تَـــحَرِير[491]

وقد سرى حب الحرية في قلب جميل الزهاوي، حتى شغله عنت كل شيء، فهام بإسمها، وظل يناجيها كأنها ليلاه حتى طوته الأرض :

سَرى حُب لَيلى في جَمِيع جَوَارِحي   وأَذهَلني عـــن غِيرها أَي إِذهال
وليلى كَقَرص الشَمس يَحمل ضوءه   ويملأَ عيني في غدوي وآصالي[492]

---

[490] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 20.

[491] منذر الجبوّري، شعراء عراقيون، ص198

[492] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 127.

وفي المعنى نفسه يعبر عبد الوهاب البياتي عن عشقه للحرية منشداً :

عَشَقــتُكَ بَــدراً في السَماء مُنوراً يَــطلّ على الدُنيا كعين مُراقب
فَيَنــظر أَبنَــاء الوُجُــود مُحاطــة بِــاســدَال أَظلام كأثوَاب رَاهب
عَشَقْتُكَ دون البَعض رُوحاً تَمردت على كُــلّ غَــدَّار مُحاب وكَاذب[493]

أما الشاعر عدنان الراوي[494] فيحب الفتى الذي لو قيد بالسلاسل، وزج في السجون يظل محافظاً على روحة حرة طليقة، يضحك من بطش الطغاة ويَسْتَهْزِئ بهم ويثور عليهم شامخاً :

أَحب الفَتى والــغَل يُثــقَل عَنقــه وسَيف الأَعادي بينَّ عِينيه مُشَهر
يَصيحُ بأَعلى صَوته يَنــكر الأَذي ويَضْحك مِنْ بَطش الطُغَاة ويَسخر
ويَشمَخُ بِالأَغلال رأَساً وإِنْ غَدت تــحز ومِــنْ أَنيَابــها الدم يَقطر[495]

ويرى الشاعر جميل الزهاوي أن حرية الفكر مفقودة في بلاده، فيتألم ويصمت خوماً من اضطهاد الحاكمين وظلمهم :

شَديد على حُــرية الفِــكر ضَــغْطهُم كَــأَنهُم أَعــداء حُــرية الــفِكــر
وقد لا أَرَى في القُول لي مِنْ سَلامة فأَسكت عنه وهو يَقدحُ في صَدري
وأَعْلَم أَني إِنْ تَــجَــاْهَــرتُ فُرَقُوا أَديمي بانياب التَعــصُّب والظَــفر[496]

---

[493] عبد الوهاب البياتي، الموت في الحياة، ص187.

[494] عدنان الراوي ولد في مدينة الموصل عام 1925م، تخرج في كلية الحقوق عام 1949م، التجأ إلى القاهرة بعد عام 1958م، وتوفي فيها عام 1967م، له عدة أعمال شعرية هي ، هذا الوطن، من العراق، النشيد الحر، الجياع والمطر، أيام النضال. (ينظر الى شعراء عراقيون، لمنذر الجبوري، بغداد 1977، ص 69) .

[495] عدنان الراوي، المشانق والسلام، ص 129.

[496] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 25.

وقد يتهكم الشاعر، ويدعو قومه إلى الصموت، وإلى الركود، والخمول والتأخر لأن من يدعو إلى الحرية الروحية والإنسانية وما فيها من نهوض وتقدم ورقي مصيره العذاب والتشتيت، وفي ذلك يقول الرصافي ساخراً متهكماً، متألماً :

يَاْقَوم لا تَتَــكَلَــموا　　　إنَّ الكَــلامَ مُــحرَّم
نَاموا ولا تَسْتَيقَظوا　　　مـــا فَاز إلاَّ النـــوم
وتَأخروا عن كُلّ ما　　　يُقْضِي بأَنْ تَتَقَدموا
ودعوا التَفهُم جَاْنِباً　　　فَالخِير إنْ لا تَفهموا[497]

وبعد أن يرى شاذل طاقة شعبه خاملاً، كسولاً، جاهلاً، ذليلاً يكره النور، يثور في وجوههم، ويتمنى لو كان حطاباً لهوى بفأسه على رؤوسهم أو سيلاً جارفاً لهدّ بيوتهم، أو عاصفة لأيقظ النفوس من رقدتها، وعلمها معنى الحرية الصحيحة، إنما يشتد به اليأس، لأن قومه لا يسمعون، فيذهب إلى الغاب وحيداً، يتلو على الطيور أناشيده الحزينة فيقول في ذلك :

أَيـــها الْشَعب لَيتَني كُـــنتُ حُطاياً فأَهوي على الجذُوع بِفأَسي
لَيْتَني كُـــنتُ كَالسُـــيُول إِذا سَالت تهدَّ الـــقَبُور رمساً برمسِ
لَـــيتَ لي قُـــوةَ الـــعَواصف يا شَعبي فأَلقي إليكَ ثورةَ نفسي
ها أَنا ذَاهب إِلى الغَاب يا شَعبي لاَقضي الحَياةَ وحدي بيأسي
سَوف أَتلو على الطُيور أَناشِيدي وأَقضي لها بأَحزان نفسي
فهي تَدري مَعْنّى الحَياة وتَدري إنَّ مَجد النُفُوس يَقظة حسي[498]

وإن لم يقدس الامة العربية حرية الفرد قولا ًوعملا في جميع مظاهر الحياة فسيظل عالم مكبلا ً بالعبودّياتً، وسيظل الشعراء والفنانون يعبرون عن آمالهم بسخط وثورة، أو حزن ويأس. إن لم يطلق الامة العربية الحرية بمعناها العميق، فستظل الفنون محدودة، ناقصة، مقصوصة الجانحين، إذ لا تترعرع الفنون إلا في ظل الحرية، التي تثور على الجهل والتقاليد الفاسدة والرواسب الجاهلية.

---

[497] معروف الرصافي، الديوان، ص 426.

[498] منذر الجبوري، شعراء عراقيون، ص 88.

ومع هذا فقد تغنى شعراء العراق بالحرية وحثوا عليها، لأنها العالم والمعرفة والحياة والسعادة والخير، وهي بالتالي الإنطلاق في العالم والإنتصار عليه. ولا بد للفرد العراقي من أن يبدأ بنفسه، فيظهر نفسه بنفسه من جميع الرواسب الجاهلية والتقاليد البالية لكي يتسنى له الإنطلاق في الإبداع، والإسهام في حضارة العالم دون رادع ولا وازع.

2.3. السعَادة :

كان الشعراء القدامى عامة لا يرون السعادة في الحياة الدنيا، بل في الآخرة. ومن سعي اليها أعرض عن الدنيا كل الاعراض، وقد رأى الفلاسفة والمفكرون القدماء أن السعادة في العالم والمعرفة، كما إن الصوفيين القدماء رأوها في الفناء بالله والإتحاد به عن طريقة التأمل العميق. أما الأدب الحديث اليوم فانه يرى السعادة في الحياة الدنيا، ويراها في السعي والجد. قلما نسمع شاعراً ينشد السعادة في الآخرة، إلا إذا تشاءم وبلغ منه اليأس مبلغه، وقدر أثر الفكر الأوروبي في الفكر العربي الحديث وخاصة في الفكر العراقي الحديث، فأصبح للإنسان قيمة، ولسعيه قدر، وأصبحت السعادة مطلب كل إنسان في الحياة الدنيا، وأصبحت حقاً يكتسبه كل إنسان.

فالسعادة هي إنسجام الفرد مع محيطه دون تنافر، وهي العدل والإنسانية جمعاء والسعادة هي العلم، وبلوغ الإنسان الكمال الأعلى.

وقد حسب بعضهم إن السعادة هي التمتع بالحياة المادية في الحياة الدنيا. كما أن البعض الآخر حسبها في الحياة الروحية والانسانية المثلى، وإنما يعتبر شعوراً نفسياً داخلياً، تدفع صاحبها إلى الإيمان بالحياة ومثلها العليا، فيطمئن قلبه[499]

وقد بذل الشاعر العراقي الحديث جهوداً جبارة في البحث عن السعادة، تارة يراها في الثراء والجاه، وتارة أخرى يراها في الحب وبذلك ينشد الشاعر عبد المحسن الكاظمي :

فَتَشْتُ عَنكَ فَقِيل حَمْقَاءِ الهوى فَرَجَعْتُ مَحْسُوراً بِقَلبي الأَحمق[500]

---

[499] داود سلوم، تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي ، ص 56.

[500] عبد المحسن الكاظمي، الديوان، ص93.

غير أن الشاعر ينسج الخيوط ليرتقي إليها ويقول ايضاً :

أَني نَسَجْتُ لكَ الـــخُيوطَ لَعَلني أَدنـــو إِلى سَبَـــبِ إِليكَ وأَرتَقي[501]

ولكنه يرجع خاسراً، ويكسّر أنواله التي نسج عليها آماله، حتى إذا هدأ واقتنع رآها في القناعة :

أَنا بالـــقَنَاْعة سَيّد لِسَعـــادَتي فـــإِذا جَشَعْتُ فأَنْنِّي العبُد الشَقي[502]

أما شاذل طاقة فيبحث عن السعادة في كل مكان، ويسأل كل إنسان :

أَلمَحتُها في صورة، أَشهدتُها في حَالة، أَرَأَيتها في مَوضع ؟
أَني لَذّو نَـــفس تَهيم وإِنّـــها لَـــجَمِيلَة فَوق الجَمال الأَبداع[503]

ثم يسأل عنها الفجر، والدجى، والبحر، ويدخل القصور :

فإِذا الذي في القَصر مِثْلي حَائرٌ وإِذا الذي في الفقرِ مِثلي لا يَعي[504]

وقيل له إن يتورّع، ويتزهد، لأن السعادة في الزهد والورع، فؤاد أفراحة، وطلق مناه، لكنه لم يجدها... وبعد أن قطع عمره في البحث عنها، أدركة المشيب، فبكى وعندما رأى دموعه، أدرك أن السعادة هي شعور في داخل الإنسان وفي نفسه :

عصر الأَسى رُوحي فَسأَلتُ أَدمعا فَلَمَحْتُها ولَمَسْتُها في أَدمُعي
وعَلَمتُ حِين العِلم لا يَجْدِي الفَتى إِنَّ التي ضَيَعْتُها كَانت مَعي![505]

---

[501] عبد المحسن الكاظمي، الديوان، ص64.

[502] نفس المصدر ، ص96.

[503] شاذل طاقة، ثم مات الليل ، ص 19.

[504] نفس المصدر، ص23.

[505] نفس المصدر، ص27.

تبدأ السعادة في النفس، وتنبثق من النفس، وقد وضع الله عز وجل في القلوب بذور السعادة لتنمو وتترعرع، وتغمر الشعور كله، فالسعيد هو السعيد في روحه، هو الذي يحيا حياة روحية راقية، وهو كما يقول جلال الخياط ((الذي جعل فكرة مرآة للطبيعة... السعيد من عاش حياة فكرية روحية حسية شعرية، لا حياة أرضية مادية محضة، هذا هو الرجل السعيد، هذا هو الرجل الغني بالعقل والروح))[506] .

والسعادة هي في سعى الروح أو النفس لغرضها، وهي الطريق إلى ذلك الغرض أو الغاية، وهي لذة الجهد الذي يبذله الإنسان في ذلك الطريق. وفي ذلك يقول يوسف عز الدين ((إنما يسد الإنسان بإستخدام قواه وملكاته، لبلوغ غايته، فإذا بلغها تفتحت له غايات جديدة، وبذل فيها جهوداً جديدة، وظهر في أثناء الطريق صعوبات إستخرجت أقصى الجهد في التغلب عليها، فشعر بلذة الجهد، ولذة الغلبة، ولذة اعتداده بشخصيته واستخدامه ملكاته، واستكماله نفسه، أكثر من لذته بالغاية نفسها))[507] .

أما جميل صدقي الزهاوي فيجد سعادته في إرضاء نفسه، وفي بلوغها غايتها وابتعادها عن الأذى :

إنَّ السَعَــادَةَ فــي أَنْ تَــنَال نَفســي مُناها
وانْ تَــكُــون بِمَــنأى عَــمّــن يــريد إِذاها[508]

ويرى في الخير والسعي في سبيله، لا سبيل الغاية والزهو ويقول ايضاً:

يَبنُونَ لا قَصد زَهو ولا لأَجــل الإِشْــادَة
لَكِنَّ ولُــوعــاً بخير فالخُير أَصل السَعادة[509]

---

[506] جلال الخياط،، الشعر العراقي الحديث، ص 77.

[507] يوسف عز الدين، الشعر العراقي الحديث أثر التيارات السياسية والإجتماعية، ص98.

[508] جميل الزهاوي ، رباعيات الزهاوي، ص155.

[509] نفس المصدر، ص160.

ويخبرنا معروف الرصافي أن نظرته إلى السعادة تطوّرت بتطوّر إدراكه، وقد حسبها في الشباب، وفي النسيان، فطلب السلافة والغناء... وقد رآها في المغامرات والأخطار، فكره الأمن والسلام. ثم حسب أن التعب والسعي هما سعادة العظام حتى تكاملت عواطف النفس، فتاقت إلى نصيبها من المجاوبة الناضجة، والمقابلة المستوفاة، وايقنت أن السعادة مشهود لا يرى بعينين اثنتين، بل أربع أعين، وعاطفة لا يحسها قلب واحد بل قلبان متفقان :

إنَّ السَعَادةَ لـــن تَراهـــا فـــي الــحَياةَ بمقْلَتَين
خُلقــتَ لأَربــع أعــيُن تَخْلو بـــها ولِمُهجَتَيْن
لكَ مُـــقْلَتَـــان ومُـــهجَة أَتَرى السَعَادةَ شَطْرين[510]

يدعو الشاعر علي الحِلّي (1930م) إلى اللذة في الحياة الدنيا لأنها في نظره سعادة.

إليكَ عَنـــي إنّـــما سَعَــادَتي فـــي لَـــذَتي
أَيتها النَفس خُذي الحِكْمَةَ عَن قَلْبِي النقي
يُلهَمُكَ مَـــا أَخْــطَأه قدماً ضَلال المَنْطقِ[511]

ويقول الشاعر علي الشرقي ، إذا مل الإنسان من الحياة، فليذهب إلى الغاب وحيداً لعله يجد السعادة في انفراده وانعزاله :

فَأَترك إلـــى دُنيَتـــاهُم وضَجَّـــتهُم وما بَنوا لِنظَامِ العَيش أَو رَسَمُوا
وأَجْعَل حَيَاتِكَ دُوحاً مُزهراً نُضراً فـــي عِزلةٍ الغَاب يَنْمُو ثُمَّ يَنْعَدِم[512]

---

[510] معروف الرصافي، الديوان، ص28.

[511] علي الحلي، من أغاني الحرية، بغداد 1965م، ص36.

[512] علي الشرقي، الديوان، ص 66.

ويرى صفي الدين الحلي السعادة في حياة الغاب البعيدة عن الناس :

لَيْسَ في الغَاب رَجــاء لا ولا فــيه الــمَلل

كيف يَرجُو الغَابَ جَزء وعلى الكُلّ حَــصَل[513]

وكذلك يرى الشاعر العراقي محمد رضا الشبيبي أن السعادة في العزل والوحدة ،

في حَــمى الوَحدةَ بين المَاءِ والظَل الظَلِيل

سَــاعة العَزلة فيــها كُلّ ما النَفس تَروم

مــن بَقَاءِ دَائِــم بَعدَ بَــقَــاءِ لا يَــدوم[514]

أما الشاعر علي الشرقي فقد رأى أن الناس قد جاهدوا وأسرفوا في التفتيش عن السعادة، فذهب سعيهم سدى، لأن السعادة في نظره وهم، يخلقه كل إنسان كما يشاء، فيقول متشائماً :

قد سَعوا جُهدَهُم ومَا وَجدِكَ

إِنَّهُم مِنْ خَيَالــهُم خَــلقَوكَ[515]

وقد يتعب الشاعر من الحياة، ويتمنى الرقدة الأخيرة، ففيها سعادته الكبرى وسروره، وفي ذلك ينشد الشاعر مصطفى جمال الدين :

وسُروري بَــعده أَفْــضَل مِنْ هذا السُرور

رَونَق العُــمر شَــبَابٌ وجَــمَالْ وغَــرَام

وهي تُعْطِي لي جَمِيعَاً بعد تَقْويضِ الخَيام

عِنــدما يــُصبَح هــذا الطِين بالنَومِ زهور[516]

وقد رأى معظم شعراء العراق المحدثين أن السعادة كامنة في النفس أو الروح، وهي شعور مدرك، تدفع الروح المتعطشة إلى البحث المستمرة وإلى

---

[513] منذر الجبوري، شعراء عراقيون، ص 58.

[514] محمد رضا الشبيبي، الديوان، ص125.

[515] منذر الجبوري، شعراء عراقيون، ص 120.

[516] نفس المصدر، ص 166.

المعرفة. وهي تأمل عميق في أسرار الطبيعة والإنسان، وجهد متواصل في السيطرة على مصاعب الحياة. وكذلك رأوا أن السعادة موجودة في الحياة الدنيا، يستطيع كل فرد أن يكتسبها بكده وجهده، كما إنها حق لكل إنسان، وهي ترضي الضمير وتطمئن الروح. على إن الشعر العراقي الحديث لم يخل من إعتبار الملل والحب والقناعة واللذة والإنعزال منابع السعادة. وفي جميع هذه الأمور تبدو السعادة نوراً يضيء جوانب النفس فتبعث فيها شعوراً غريباً يعبر عنه كل إنسان بطريقته الخاصة.

3.3. الحَقِيقَة :

أصبح الإنسان الحديث، شغوفاً بالبحث عن حقيقة كل ما في الوجود، مشوقاً إلى أن يجد حقيقة نفسه وما حوله، حتى إذا تأمل، رأى أن الله عز وجل هو الحقيقة الكبرى، ووهو الكمال والجمال والمعرفة، كما رآها من قبله الفلاسفة الشعراء والصوفيون القدماء.

وعندما تأمل في ظواهر الوجود والحياة، احاطه الشك والحيرة واللاأدرية فقام يبحث عن حقيقتها، واحدة، واحدة، دون أن يدرك أَن الحقيقة لا تتجزأ، فهي في جوهرها واحدة، إنما أكتسب ألواناً كثيرة، وظهرت بمظاهر عديدة. وقد أخذ الشاعر أحمد الصافي النجفي على الذين يبحثون عن الحقيقة في هذه الألوان دون الالتفات إلى جوهرها الأسمى قائلاً :

لَيسَ الحَقَائِق ما أَكْتَست لَوناً فَما شُغل الوَرى عَنها سُوى الالون
تأَبى السُفور فما كَشَفتَ حِـجَابِها إِلاَّ تَبَـدت في حِجَاب ثَـــانـــي[517]

والحقيقة جوهر أزلي، لا يتغير، ولا يصيبه الفناء. كل مظهر من مظاهر الطبيعة يتغير((فللبحر مدّ وجزر، وللقمر نقص وكمال، وللزمن صيف وشتاء، أما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير))[518]، صامد أمام قوى الطبيعة الجبارة، فلا الموت يدنيه، ولا النكباء تزعزعه، لأن حقيقة الإنسان في جوهره الخالد المنبثق عن الله جَلَّ جَلالهُ:

نَبْكي على عرض الإِنسان أَعْجَبي والجَوهر الحَق ليس المَوتُ يَفْنِيه[519]

---

[517] أحمد الصافي النجفي، أشعة ملونة، بيروت بدون تاريخ، ص53.

[518] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، ص 297.

[519] محمد سعيد الحبوبي، الديوان، بغداد 1980م، ص43.

وبعد أن يبحث الشاعر عن الحق سائلا الرياح والسماء، راجياً أن يجده، أما أن يحمل اليه الصباح وجهاً منه، أو تبيّن له الأحلام ضياء منه، يعود إلى نفسه مؤكداً أن الحقيقة هي العقل، ذلك الجوهر الإلهي الواعي وينشد الرصافي فيقول :

طَالَمَا خَابَ نَــاشِدُ الــحَقَ لَكِنَّ رَجَائِي كَما عَــهِدتُ رَجَــائِي
قَد يَجِيءُ الصَــبَاحِ مــنه بُوجه طَالما كَان مُضْمَرا في الخَفَاءِ
أَو تَبيَّن الأَحْــلامُ مــنه ضِــياء في سَمَاءِ الآمال مِثْلّ ذَكَــاءِ
مَا في الوجود حَقِيقَة غير النَهي فَاطْمَح بِنَفْسِكَ للذرى والهَام[520]

وكذلك ينشد الشاعر معروف الرصافي على لسان الحق انه عقل من الله عز وجل، وروح منه:

أَنا الحَق فَما يَجــدي إلى الــقُوَةَ سُلْطَــان
سِلاحي حِجَةٌ تغــني عن السِــيف وبرهَان
وروح من لُــدن رَبَّ عليه فَاخترق السُدود[521]

والحق قوي، هو والقوة صنوان. وفي ذلك يقول أيضا على لسان الحق مخاطباً القوة :

يَقُولُ النَــاس خَصْــمَان وبَــعْض القَولُ بُهتَان
هُم الجَــهَّال مَا عَرّفــوا وأَهــل الجَهل عميان
أَنا أَنــتَ، وأَنــتَ أَنــا وذا للــناس إِعــلان[522]

---

[520] باقر الشبيبي ، قصيدة هي النفس، بغداد 1920م، ص75.
[521] معروف الرصافي، الديوان، ص 55.
[522] نفس المصدر، ص 58.

وكذلك يعبّر باقر الشبيبي عن المعنى نفسه، حتى إذا سخط الحق حطّم الأصنام، وصعق الجبارة :

هو الحَقُ يَبْقَى سَاْكِناً فإذا طَغى بأَعمَاقه السُخطَ القُصُوف يُدَمدَم
ويُنحَطَ كَالصَخر الأَصم إذا هوى على هــام أَصــنَام العَتوَّ فَيُحطَّم
إِذا صَعِقَ الجَبارُ تَحــتَ قُــيُوده سَيَــعْلَمُ أَوجَــاع الحَــيَاة ويُفهم[523]

ويرى الشاعر أن الحق شعاع وهّاج، يعمي الأبصار، غير إنه ينير القلوب :

يا شعضاع الحَق فماذا الفِرارَ أَتَرى لِقيَاكَ تُعْمَى بَصَري
أَنتَ للقــَلبَ مــلاذٌ ومنــار فَأَنِر قَلْبِي وأَطفىء نَظَري[524]

والحق حرّ مطلق، وهو الصوت الصارخ، والضوء النافذ، والسهم الخارق، وفي ذلك يقول الشاعر عبد الحسين الأزري :

الحَــقُّ حُــر مُطلَــق مَــهمَا تَعَثر في القُيود
الحَــقُّ صَوتٌ صَائِح في صَرخَةٍ أَو في همُود
مهما تَعَــدَّدت السُدود عليه فــأَختَرقَ السُدود[525]

ويرى الشاعر محمد مهدي الجواهري أن الحقيقة مطلقة، لا تحدّ، وهي تأبى التعصب لأي مبدأ، وهي مخلصة :

وأَرَى الحَقِيقَة لا تَحدّ فما لنا نَهوى التَعَصُّب في غُرورِ جَان؟
لما لا نُفَتش في شُعُور مُخْلِصٍ للحَــقِّ دون تَخرَّب وهَــوان[526]

---

[523] باقر الشبيبي، قصيدة هي النفس، ص 115.
[524] نفس المصدر، ص 118.
[525] منذر الجبوري ، شعراء عراقيون، ص 85.
[526] محمد مهدي الجواهري، بين الشعور والعاطفة، بغداد 1924م، ص38.

ويعبّر الجواهري عن معنى الحقيقة ومخاطباً الإنسان : فإذا ((أرتفعت عن التعصب لجنسك أو بلادك أو ذاتك ذراعاً واحدة، صرت بالحقيقة مثل ربك))[527] لأنَّ الحقيقة من طبيعتها أن تكون عاطفة إنسانية عالمية، وهي ((تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا، وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس))[528]

اما الإنسان الذي يؤمن بالحقيقة، ولا يهاب غضب الناس وثورتهم عليه، فهو إنسان حر، جريء، مخلص وفي ذلك يقول الزهاوي :

هي اَلْحَقيقَةَ أَرضَاها وإِنْ غَضَبوا　　وأَدَّعيها وإِنْ صَاخَوا وإِنْ جَلَبُوا
أَقُولها غير هَـــياب وإِنْ حَنَـــقوا　　وإِنْ أَهانوا وإِنْ سَبَّوا وإِنْ ثَلَبوا[529]

وكذلك يقول مخاطباً الذين يؤمنون بالحقيقة :

قُولوا الحَقِيقَة جَاهَرِين وأَعلنوا　　للناسِ ما فيها مِنْ الأَسْرَار[530]

وقد يشتاق الشعراء إلى معرفة سرّ الحقيقة، وإلى لمسها ورؤيتها، سافرة، ناظرة لأنهم يؤمنون بها، ويعظمونها، بعد الإله وفي ذلك يقول الشاعر عبد القادر رشيد الناصري (ت1962م) :

عَظَــمتُ بَــعد الله كُلّ حَقِيقَةَ　　زَهراءٌ لَمْ تُحَجّب وَراء سُتُورها
أَرَبي مِنْ الدُنيا بُلوغَ رِحَابِها　　ومَنَال سَــدّتها ولَمَسَ سَرِيرِها
آليتَ أَلقَاها بَــحرّ صَحــيفَتي　　وأَرُودها فـــي عَرِيها وسُفورها[531]

---

[527] ابراهيم السامرائي ، الشعر والشعراء في العراق، بيروت 1957م، ص 117.

[528] نفس المصدر، ص 119.

[529] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، ص 135.

[530] جميل الزهاوي، الأوشال، ص 65.

[531] منذ الجبوري، شعراء عراقيون، ص 109.

ويتألم جميل الزهاوي من الناس، فيصرخ في وجوههم، ويتألم من الذين يكفّرون من يفكر ويتأمل، في سبيل الحقيقة. ويفضل الشاعر أن يكون ملحداً على أن يخفي الحقيقة :

إِنْ كَان مِنْ يبدي الحَقِيقَة مُلحِداً فَلْيَشْهَد الثقلان أَني مُلحد[532]

ثم يعود ويؤكد للناس بأنه متيَّم، مغرم بالحقيقة، لذلك يفكر في الطبيعة ويتأمل فيها من الإتهامات التي توجد اليه :

أَني اَفَكر في الطَبِيعَة فــاحصاً فَيَــعد تَــفْــكِيري مِنْ الأَلحاد
ما حَيلَتي وأَنا اَمــرؤ مَتَنَــكر جم الشُكُوكَ إلى الحَقِيقَة صَاد
أَنا في حَيَاتي بالــحَقِيقَة مُغرم وأَقُولها جَهراً على الأَشــهَاد[533]

وكذلك ينطق شاعر بدر شاكر السياب في المعنى نفسه :

إِذا أَنا قُلتُ الحَقَّ والحَق غَايتي فما ضَرَّني ظنَّ الوَرى أَنه الكفر[534]

وقس على هذا كثيراً من الشعر العراقي الحديث الذي إن دلّ على شيء فإنما يدل على أَن شعراء اليوم يمؤمنون بالحقيقة، لأنها النور الذي يبدّد الظلام، والسهم الذي يخرق الصخور والركام، والعقل الذي يفحم بالبرهان، والقوة الجبارة التي تحطّم الأقزام. وهي قبس من الحقيقة الكبرى، وروح أزلية منها، يتساوى أمامها الغني والفقير، وينحني قدَّامها الملك والصعلوك.

---

[532] جميل الزهاوي، الأوشال، ص65.

[533] نفس المصدر، ص 103.

[534] بدرشاكر السياب، ديوان السياب، ص 45.

4.3. الكَمَال

هل يستطيع الإنسان أن يصبح في حياته الدنيا كاملاً ؟ هل أعطى الإنسان عقلاً وارادة يسيران به في معارج الرقيّ والكمال؟ لقد استطاع الإنسان أن يكتشف بعض أسرار الطبيعة، فسخرها لخدمته، بذلك تطور الفكر الغربي في نظرته إلى العقل والإرادة، فأكد أن الإنسان يستطيع أن يسعى في هذه الحياة الدنيا ليصبح كاملاً، بينما كان الأقدمون، ومنهم الشعراء، يعتقدون أنهم بؤساء، أشقياء في هذه الدنيا الزائلة، لا يرون مجالاً للسعي للوصول إلى الكمال، إذا الكمال من فضائل الآخرة، أما شعراء العراق المحدثون، فقد تأثروا بالفكر الغربي عامة وبما أنتجه من علم وفلسفة.

كما أن الكمال أصبح في نظر شعراء العراق هدف الإنسان الأول، وهو وحده محجة الحياة، والأتحاد بالمبدع نهاية سبيلها[535]. والإنسان يسير نحو الكمال، وفي نفسه الكوان جميعاً، فيشعر أنه الفضاء ولا حد له، وهو البحر والنار والنور والأرياح، وهو السحب والجداول والأشجار في ربيعها وفي خريفها، وهو الجبال في علوها، والوديان في انخفاضها وهو الحقول في خصبها وجديها[536].

فما هي طريق الكمال؟ وكيف يصل اليه الإنسان في حياته الدنيوية؟ وفي الإنسان عقل نير، وإرادة قوية مدهشة، فإذا اجتمعا معاً في قلب الإنسان، جد في طلب العلى وطمع إلى بلوغ الكمال، مكافحاً كل عثرة في طريق تقدمه ورقيه.

ولا يرقي أحد إلاّ بالجد والكدّ، وبذل كل غالٍ وثمين، وفي ذلك يقول الشاعر العراقي شاذل طاقة :

لَيسَ يَرقي بِغِــير جــدّ وكَــد　　　لاقــتِنَاص الــكَوَاكِب الزَهراء[537]

[535] توفيق حسن، من حي إلى ميت، بيروت 1931م، ص31.

[536] سامي كيالي، الفكر العربي بين ماضيه وحاضرة، القاهرة 1943م، ص47.

[537] منذر الجبوّري، شعراء عراقيون، ص 197.

وكذلك يقول الزهاوي إن الإنسان يرقي بعزمه وإرادته، وإنه يستطيع أن يقهر الطبيعة والقدر معاً.

بِالعَزْم، بِالعَزْمِ يَلقى المرء في عَمَل نَــجَاْحَه أَنــه بِالعَزْم مُقتَدر
إِنْ كــان للــمرء عَزْم في إِرَادتــه فلا الطبيعة تُثــنِيه ولا القَدر[538]

أما الرصافي فينشد الكمال عن طريقة الجهاد والقوة، وأقتحام المخاطر فيقول :

ربَّ درّ فــيه لا تــأمــــلــه إِنَّ مَنْ غَاصَ على الدرّ وَجَد
أَحــمَق الناس جهول خَائِــف كُــلما لاحَ لــه بَــرق ورَعد[539]

وإن آمن الشاعر بالكمال فعليه أن يسعى دون أن يأبه للقضاء والقدر، وعليه أن يكافح في الحياة حتى ينال العلى ويقول ايضاً :

حَان أَنْ تَطلبوا الحَياة وتَمْشُوا بِحَــبُورٍ إلى الــعُلا آملينا
قد كَفَاكُم على القَضَاءِ إِتِّكَــالا وكَفَاْكُم مِنْ الجُمُود قرونا[540]

وقد استطاع الإنسان بسعيه هذا أن يكسو الأرض بهجة وحبورا، واستطاع بعزمه وقوة ابداعه أن يسكو الأرض مجداً وخلوداً، وفي ذلك يقول الزهاوي :

الأَرض بالإنسان تَكسبُ بَــهجَة وتَــنَالَ سَــعدا
يا أَرض لــولا سَــعِيه لم تُدرِكي يا أَرض مَجداً
هو ذلكَ الــسرَّ الــذي اَفشاه مُــبدعه واَبــدى
لا تَــحتَــقِره لِــكَونه في أَصْلِــه قَد كَان قِردا[541]

---

[538] جميل الزهاوي، رباعيات الزهاوي، ص89.

[539] معروف الرصافي، الديوان، ص 52.

[540] نفس المصدر، ص 66.

[541] جميل الزهاوي، الديوان، ص101

واستطاع كذلك أن يرقي بعقله إلى الأعالي، واستطاع بعلمه ومعرفته أن يبلغ ذروة الكمال، فيتساءل الشاعر: لماذا يتعلق الإنسان بالتوافه والترهات، ويترك عظائم الأمور، وقد تسلح الإنسان بالعقل والفكر وينشد عبد المحسن الكاظمي :

مَا في الوُجود حَقِيقَة غير النَهى فَأطْـمَع بِنَفسك للذرى والهام
والعَيشَ إِنْ لَمْ تَـبغَه لِعَظَـيمِه فَالـعَيشُ حُلم طَوَارِق الأَعْوَام
والنَفس إِمّا شَـئتَ كَانت عَالما يَسع الدنى في طُوله المُتَرامي[542]

والعقل هو الرائد، هو خير هادٍ إلى الرقيّ والتجديد المستمر، فينشد الشاعر أحمد الصافي النجفي :

رَائِد العَـقل خَـير هَـادٍ فَـسرّ في اثره فـهو للفَـلاحِ يَـقُـود
إِنـما الكَـون آخـذ فـي الـتَرقّي والـوَرى يَـنْمُو عِلْمَهُم ويَزِيد
بينَّ حَال الأَسْلاف في الزَمن الخَالي وحَـال اِبـن العَـصر بَـعِيد
فَلْـنَسِر مِـثْلمـا يَـسِـيرُ سِوَانا نَسْـتَفِد مِـثْلَما الوَرى يَسْتَفِيد
وليـكن فـي الـعَادَات والـفِكر والآداب هذا الـسِلاح والتَجدِيد[543]

ويتابع الشاعر الجواهري الدعوة إلى طلب العقل والعلم، فيخاطب أبنائها قائلاً :

يا بني الشَرق أَينَّ أَنْتُم أَفِيقُوا واد أبوا فـي طلابة العلياء
وأَنْيروا بالـعلم ليل عُقـول علنا نَرتَـجي بَصيص ضياء
أينَّ أَهل العُقُول أَهل المَضاء أَينَّ دَاعي النَشَاط وارتِقَاء؟[544]

[542] عبدالمحسن الكاظمي، الديوان، ص289.

[543] أحمد الصافي النجفي، اشعة ملونة، ص 60.

[544] محمد مهدي الجواهري، الديوان، ص199.

ويرى الشاعر محمد السعيد الحبوي (ت1915م) في إنسان الغرب إنسانا مفكراً استطاع أن يبلغ الشمس، وأقصى الكون بعقله النير، واستطاع أن يبدع، ويسخر لإرادته ما شاء من الطبيعة الجبارة فيخاطبه متعجباً :

بِرَبِّكَ أَيّها الإِنسان لــم أَصْبَــحتَ إِنســانا
بِعَقل يَبــلغ الشَمْسَ، وأَقْصَى الكَون عِرفانا
وَجَدتَ لِــكُلّ مَــا كان مِــنْ الأَكْوُان مِيزانا[545]

إن الإنسان، بقدرته العقلية، وبرقيّه المستمر، تتجلى سافرة في الشعر العربي في القرن العشرين. والشعر العراقي الحديث مؤمن بالإنسان وقيمته، وهو يرى أن الكمال ينشد في الحياة الدنيا عن طريقة الكفاح والكدّ والعزم، وعن طريق العقل والعلم والمعرفة.

والإنسان قادر على أن يرتقي حتى يصل إلى أعلى درجة، درجة الكمال، فتمتليء نفسه محبة وعدلاً، وخيراً وجمالاً.

هذه نظرة لشعراء العراق المحدثين إلى الكمال.

[545] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث، ص 43

5.3. الجَمَال :

يستند أدباء العرب المحدثون في بحوثهم الفنية عن الجمال، على أقوال الأدباء الغربين، وعلى المذاهب الفلسفية الغربية، ويبدو هذا التأثر واضحاً .

ويتفرع من فلسفة الجمال عند الغربين، مذهبان رئيسيان : الأول : مذهب يعتبر الجمال قائماً في نفس الإنسان المدرك، وفي تعبيره الفني الرائع، والثاني : مذهب يعتبر الجمال قائماً على الاشياء نفسها، الخارجة عن نفس الإنسان. فالأول هو الجمال المعنوي أو الشعور الفني الأستتيكي (Esthetique) الذي يبحث عن الخير والحق والمعرفة، ويصل صاحبة إلى الكمال، والثاني يبحث عن إشراق الفكرة الروحية وإشعاعها من خلال المادة، على أن كلا المذهبين يستمد الجمال من الجمال المطلق، وبالتالي هما مظهران من مظاهر ذلك الجمال الكمال[546].

فالجمال ذاتي وموضوعي، وهو هزّات وإنفعالات تحرك مشاعر الإنسان الحساس، فتعتريه رجفة الفرح والألم معاً. على أننا نلاحظ هنا أن الجمال إتخذ طريقاً جديداً، فلم يبق محصوراً، محدوداً في عيون النساء، وقدودهن وفي المرئيات، كما فعل شعراء العرب القدامى عامة، لكنه أصبح شعاعاً سماوياً يهبط في النفوس، ويكسوها روعة ويجعلها سحراً وفتنة للناس[547].

والجمال عند شعراء العراق عامة هو الجمال السماويّ الذي يصدر عن الجمال المطلق، غير أننا لا ننسى أن هناك شعراء في هذا القرن مقلّدين، يستوحون الشعر القديم في وصف جمال المرأة، والتفنن في محاسنها، أو يستوحون المرئيات، فيبذلون قصارى جهدهم في الوصف المادي، غير آبهين للروح. ومهما يكن من الأمر فهؤلاء الشعراء لا يرقون بشعرهم عن قيود المادة، ولا ينطلقون في عالم الخلق والأبداع.

---

[546] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص279.

[547] نفس المصدر، ص129.

والجمال عند شاعر حُسين مَردَان، موجود في كل مكان، وفي كل شيء، على الإنسان إذا شاء، أن يحسه ويدركه :

كُلّ شيء جَميل أَنَّ وَعْيِنا الجَمَال
فَشُحوب الأَصيل شَهــوة للــخَيال
ووُجُــوم النَخِيل مُــخدع للــظَلال
والدُجى إِذ يَميل مَــعــبد للــيّــال

* * *

وجَمَــال الحَياة
شَاطىء لا نَراه
سَاقَ فــيه الإله
كُلّ سِــحر طواه[548]

ويغتبط عبد الوهاب البياتي بالطبيعة التي تحمل له الجمال :

السّما مُصحَف ســني والربى متحــف غَنيّ
والمَسّا والنَسِيم عرق جَال فيه هــوى نقيّ
والغُصُون التي تَــميل كُلــها الــسَن تَقُول
كُلّ ما حَولنا جَمَيل[549]

حتى إذا عاش الإنسان للجمال رآه منتشراً حيثما كان، وهو سرّ في النفس :

عِش للجَمَال تَراه هَــهُنا وهَنا وعِش له وهو سِرّ جدّ مَكنُون
خير وأَفْضَل ممن لا حَنين لهم إلى الجَمَال، تَمَاْثِيلُ مِنْ الطِين[550]

---

[548] حسين مردان، طراز خاص، بيروت بدون تاريخ، ص14.

[549] عبد الوهاب البياتي، كتاب البحر، بغداد 1973م، ص 187.

[550] نفس المصدر، ص 190.

والجمال هو تعبير نفساني، يرى الإنسان ما حوله من كائنات، فيحبها، لأنه يرى فيها بعض نواحي نفسه، فيخلع عليها من النفس، وليس الشيء الخارج عن النفس البشرية، فالله جل جلاله، هو مصدر الجمال الأعلى، وقد إنعكس بعض هذا الجمال على النفس الإنسانية التي شعّ بعضها على مظاهر الكون، فأحبها الإنسان، وقد أحب الله، وأحب نفسه على غير علم منه[551] . وكذلك يرى جلال الخياط الجمال في نفس الإنسانية والأخلاقية، فالجمال إلفة بين الحزن والفرح، هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولاً وتسمعه صامتاً، هو قوة تبتدئ في قدس أقداس ذاتك، تنتهي في ما وراء تخيّلاتك[552].

وقد يبلغ الجمال حدّ الكمال، من الأزلية. والجمال الحقيقي هو الجمال الأزلي المطلق الكامل. والجمال المطلق هو جمال العقل والروح والقلب، وما تعانيها من خيرات. ويرى الشاعر أن الجمال المطلق هو الذي يستمدّ منه كل نبي وفنّان وحيهما كما يستمد منه الزهر شذاه، والحسن نوره، وهو جوهر لا يفنى مدى الأدهار حيث يقول الشاعر عبدالوهاب البياتي :

سِرّ الجَـمَال الأَزلـي الذي يَرَى، ولكـن ليس بالأَبصَار
منه استمدّ الوحي كـل نبيّ مـنه جَـرَت بَدائع الأشعار
مِنه يَنَالْ الزهر نَشَـر الشَّذا والحُبَ بـأَس القَاهر الجَبّار[553]

والجمال قوة سماوية، وفي الجمال جاذبية قوية، فكأن الله عز وجل حين يبدع الجميل يرسل في دمه مع الذرة الإنسانية ذرة من مادة الكواكب هي سرّ عشقه وجاذبيته، والجمال قوة الأستمرار والتجديد [554].

---

[551] عزالدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 33.

[552] جلال الخياط، الشعر العراقي الجديث، ص 65.

[553] عبد الوهاب البياتي، كتاب البحر، ص 76.

[554] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 123.

إن الجمال المطلق، يحرر الإنسان من الحدود والسدود، فهو الوطن والدين، وهو اللغة والإنسانية. وفي ذلك يقول مهدي الجواهري ((إن الجمال العظيم يأسرني ولكن الجمال الأعظم يحرّرني من أسر ذاته))[555] . ويدعو الإنسانَ إلى اتخاذ الجمال ديناً ورباً، فيقول ((اتخذوا الجمال ديناً، واتقوه رباً، فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتائج المعقولات))[556].

أن شعراء العراق في القرن العشرين يميلون إلى الإيمان بالجمال المعنوي المجرد الذي يسمو بالإنسان إلى المثل العليا، ويرتفع به من أوهاق المادة، وهم يؤمنون أن النفس الإنسانية قيمة كبيرة في إدراك الجمال والإحساس به، والتعبير عنه، بل يذهبون إلى أبعد من هذا ويقولون إن النفس الإنسانية هي قبس من الجمال المطلق الأزلي الذي منه يستمد كل شيء، والذي خص الإنسان بنفس واعية مدركة، تحس الجمال والاخلاق في ذاتها، فتعبر عنه تعبيراً فنياً خالداً، كما أن الجمال تناسب وحرية وقوة وتعبير، وهو كذلك دين الإنسانية جمعاء.

[555] يونس أحمد السامرائي، أبحاث في الشعر العربي، ص 71.

[556] نفس المصدر، ص 35.

6.3. الفن :

إن الشعر العربي القديم لم يحفل بالفن ولم يتغنّ به، ولم تكن هذه الكلمة تدل مدلوها اليوم. وقد ذكرنا سابقاً أن الشاعر العربي والعراقي خاصة كان مستسلماً للقضاء والقدر، وكان آلة في أيدي الأمراء والولاة، لذلك ذابت شخصيته، ولم يشعر بذاته، وأصبح مقيداً، غير حرّ في إنتاجه وعبقريته. والفن، كما نعلم، شخصي، حرّ بطبيعته، لا يترعرع ولابقوى إلاّ إذا تحرر الإنسان من كل قيد، وآمن بذاته، وقدرته على الإبداع.

وبفضل العلوم وتطور الفكر والاوضاع السياسية التي تألبت على العالم، وبالتالي على البلدان العربية كافة، وبفضل تغلغل الفلسفة الأوربية في الفكر العربي، فقد استطاع شعراء العراق أن يتحرروا من نير الملوك والأمراء والحكام، وبالتالي استطاعوا أن يتحرروا من عبودية التقاليد، فراحوا يكبّون على الخلق الفني، يعملون ضمن نطاقهم الضيق، منطلقين، مؤمنين بنفوسهم.

وقد كثر حديث عن الفن والفنانين في الأدب العراقي الحديث، وأخذ بعض الأدباء يكتبون متأثرين بالتيارات الفنية الأجنبية، ومذاهبها العديدة، فكتبوا في ماهية الفن وواجب الفنانين، كما أنهم اهتموا بغاية الفن، فقال بعضهم إن للفن غاية يجب أن يسعى اليها، وقال البعض الآخر بنظرية الفن للفن[557] . وقد اتفق جمعيهم أن الفن هو الوعي الفردي، والتعبير الإنساني السامي الصادر عن ذلك الوعي الذي يخفق له كل قلب، ويهتز له كل حسّ.

[557] احمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، ص 89.

والفن هو الحرية، الفكر والشعور، ولا منبع له إلا فكر الفنان وقلبه، وهما وحدهما الهاديان له، إن الوعي الفردي هو روح الفن [558] .

والصدق من طبيعة الفن، فالفن ((تعبير صادق، ولا يكون التعبير الفني جميلاً إلا إذا كان صادقاً، ولا يمكن تذوق الآية الفنية الجميلة إلا إذا كانت بطريقة ما يعبر عن جانب من جوانب أنفسنا))[559] . كما أن الحق أيضاً هو من طبيعة الفن، لأنه هو الإنتاج الروحي السامي، والفن لا يحيد عن الحق[560]، وهو مورد النور والحب والصفاء .

وهو الأيكة[561] التي يعيش فيها بلبل القلب الغرد، وهو دوحة تجتني منها ما تشاء وفي ذلك ينشد الشاعر صالح التميمي :

إِنَّما الفَن مَورد الحُب والنُور، شَهي الأَمواءِ، عَذَاب الورود
إِنَّما الفَن أَيكة عَــاشَ فــيها بُــلبُل القَلب بين نَاي، وعود
إِنَّما الفن دوحة في ذراها كل ما شِــئتَ مِنْ جنى وورود [562]

والفن طائر حرّ، لا يتقيد، وهو روح سام، وفي ذلك ((الفن طائر حر يسبح محلقاً عندما يشاء، ويهبط إلى الأرض عندما يشاء، وليس من قوة في هذا العالم تسنطيع تقييده أو تغييره. الفن روح سام، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة))[563] . وكذلك يقول ان الفن هو مظهر من خفايا الفرد ومظاهر الطبيعة على إيجاد أشكال جديدة[564].

---

[558] محمد مهدي الجواهري، بين الشعور والعاطفة، ص 72.

[559] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق، ص 55.

[560] نفس المصدر، ص 89.

[561] ايكة: هي الاشجار المتشابكة مع بعضها.

[562] صالح التميمي، الديوان، النجف 1948م، 157.

[563] داود سلوم، تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي، ص165.

[564] نفس المصدر، ص56.

ويرى الشاعر حيدر الحلي أن الفن الخالد هو في النفس، ويبقى ببقاء النفس، وإن الله عز وجل هو الذي صاغ ذلك الفن البديع :

هو بَاقٍ بَقَاءُها أَتَــرى الــنَفس سُوى فَــنٌ خَــالد وجَمَال

كُلّ مَا في ذا الكون مِنْ مُبْدِعات صَاغَه فَنَّ المُبْدع المُتَعَالْي[565]

ويري معروف الرصافي في الفن محبة، وإيماناً بهدف الإنسان الاسمى. والفن هو في ((حياة موحدة الغاية والإرادة، في قلبها إيمان لا يتزعزع بهدف الإنسان الأسمى وفي إيمانها محب ولا تنضب لكل من شاركها وما شاركها في ذلك الهدف))[566]. لذلك يرى أن الفن الأكبر هو في نفس الإنسان، وفي حياته المثلى التي تتجلى في أخلاقه العالية، فالفن الأكبر هو ((ضمير لا يسخر، وجبين لا يعفر، ولسان حليم شكور، وقلب عفيف غفور، وعين لا تبصر القذى، ويد لا تنزل الأذى، فكر يرى في البلية عطية، وخيال يربط الأزلية بالأبدية))[567] .

ويرى عبد الوهاب البياتي في الفن غاية، وليس الفن للفن كما يقول البعض، وليس هو((أن تحاكي الطبيعة محاكاة الصدى، وتمثلها المرآة، وتنقلها نقل الآلة، تلك هي التبعية التي تنفي الذكاء، والعبودية التي تسلب القوة، إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة))[568] ، ويطفو عليها الإنسان من إنسانيته، لتهذيب النفوس، وتلطيفها، فيبعدها عن مزالق الشرّ، ويرفعها إلى جو يعبق بالفضيلة، والخير والصلاح، لأن غاية الفن الأرتفاع بالروح إلى المكان الأسمى[569] . وغاية الفن " حياة وحركة نحو مثل أعلى" وغاية الفنان أيضاً، أن يسعى نحو المثل العليا لتطهر"" الحياة من اقذارها، وبث روح الجمال والقوة فيها، وفرض مبادئ عليها وتذكيتها، وإيقاظ القوة النائمة""[570] .

---

[565] عباس توفيق، نقد الشعر العربي الحديث في العراق ، ص89.

[566] جلال الخياط، ، الشعر والزمن، بغداد 1975م، ص 77.

[567] نفس المصدر، ص 91.

[568] جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث، ص 178.

[569] نفس المصدر، ص 123.

[570] يوسف عزالدين، الشعر العراقي الاجتماعي، ص88.

ومن طبيعة الفنان، التمرد والثورة، والإحساس العميق، والسير دوماً إلى محبة المثل العليا، هي طبيعة الفنان وهدفه، والفنان ينفذ دوماً إلى أعماق الأعماق، ويشعر دوماً بمحبة اكيدة لكل ما في الطبيعة والوجود، فيحميها من الأذى، ويحويها كلها في قلبه لتحيا خالدة، والفنان في حالة تأمله العميق، ينتهي إلى محبة كل ذرة في هذا الوجود، ومتى عشق وأحب لا يمكن أن يسيء إلى أي ذرة، ويستطيع بقوّته الروحية ومحبته المخلصة، أن يبدع ويمحو كل ظلمة من مطاويها، ويشيع السلام في الأكوان وفي ذلك ينشد الشاعر أحمد الصافي النجفي :

واَمْحَت كُلّ ظَلمَة مِنْ مَطَاويها ومدَّ الوَلاء روح السَــلام
وغَدا المرء نِصف رَبّ ووشَى بِشَعاع الكَمَال ثُوب الرغام[571]

ويرى الفنان الله عز وجل في كل ذرة في الوجود، فيدين بدين الحب والجمال وينشد علي الشرقي قائلا:

يَرى في الأَصيّل، وفي الليل وفي بَسمَة الصبَاح الوَلِيد
دِينه الحُب والجَمَال، ودُنياه مَزيجٌ مِنْ المنَى والوَعود[572]

وقد خص الله عز وجل الفنان ببراعة يكشف به سرّ الوجود، وبنور يرى فيه كل ذرة في الوجود، فيرسم الصفاء، وينبثق من أنامله روح الخلود، وفي ذلك ينشد الشاعر عبد المحسن الكاظمي مخاطباً الفنان :

يا صَدِيقي الفَنّان... هذا يُراع خَصة الله بَعض سِرّ الوُجود
بَارع يَرسُــم الصَــفاء إذا مــرَّ على ثَــغر غَــادة امــلود
وتَرَاه يُصَــور الــرِيح والنُور، ولَمعَ السنا وقَصْف الرُعُود
هو إنَّ رَقّ صَدحَة للقَمَاري وإذا ثَــار صَــرخة للأُسُود
تِلكَ آثــاره... كــأَن عَليها نَفثَةُ الرُوح مِنْ يَمين الخُلود[573]

---

[571] أحمد الصافي النجفي ، الديوان، ص 98.

[572] علي الشرقي، الديوان، ص122.

[573] عبد المحسن الكاظمي، الديوان، ص 35.

والفنان يسبح دوماً في دنيا الجمال، لديه كل شيء جميل، إذا يعبّر عن إحساسه بألوان جميلة من خياله الخصب وفي ذلك يقول الشاعر احمد الصافي النجفي :

تَمزِجُ الحسَّ بِأَلوان الخَيال مِثْلَما يَــمزِج بِالمَاء الرَحِيق
أَنْتَ للــفَنّ نَــبي مُــرسل شهدت عيناي مِنكَ المُعْجِزَات[574]

والفنان هو جمال الأرض، وسحره، وهو الحب والشوق، ونور الشمس وحياته.

إِن يكن في الأَرض سِحر أَو جَمال فهو للفَنّان في الدُنيــا سَنــاه
أَو يكن في الحُب شَوق أَو مَــلال فهــو للــفَنان للــحب صَداه [575]

جميع هذه الافكار، ومثلها كثير في الأدب العراقي الحديث، تدل على أن رجال الفكر وفي مقدمتهم الشعراء والأدباء، أخذوا يبدّلون نظرتهم القديمة إلى الإنسان وأصبحوا مؤمنين بهذا الإنسان وقيمته الروحية، وإنتاجه الفني، وقدرته على الخلق والإبداع.

كما اننا نجد أن هذا الأدب تأثر بالتيارات الأجنبية تأثراً كبيراً لاسيما وإن الكثيرين من شعراء العراق قد استطاعوا أن يتعمقوا في دراسة الآداب الغربية بلغاتها الأصلية، وأن يقرأوا ما ينتجه أدباء وعلماء الغرب في كل حقل من حقول الفنون والعلوم.

---

[574] أحمد الصافي النجفي، الديوان، ص 56.

[575] حسين مراد، الحياة واالشعر، بغداد 1948م، ص89.

الخـــاتمـــة

إنَّ الأدب قيمة، تَتَفاوت معاييرها، فقد تكون قيمة جَمَالية بحتة، كالإحساس بجمال الطبيعة والكون، والجمال ليس قيمة سلبية لمجرد الزينة، كما أنه ليس تشكلا ماديّا فحسب، ولكنه بمعنى الصحيح حقيقة مركبة في مداخلها وعناصرها وتأثيراتها المادية والروحية، وموجاته الظاهرة والخفية، وفي إنعكاساته على الكائن الحي، ذلك لأن أثره يخالط الروح والنفس والعقل، فتنطلق ردود أفعال متباينة، بعضها يبدو جليّاً وبعضها الآخر يفعل فعله داخلياً، لكن محصلة ذلك كله ما يتحقق للإنسان من سعادة ومتعة، وما ينبثق عن ذلك من منفعة، تتجلى فيما يأتي أو يدع من أفعال وأقوال.

وقد تكون قيمة الأدب، قيمة أخلاقية من ناحية تصويرها للفضائل، والمثل العليا وقد كان للعرب القدامى مقاييس في أنماط الفضلية والمثل العليا، فهي في الخير والعدل، والتواضع، والصدق، والتقوى والشرف أو العطاء، والشجاعة والمشاركة في المنشط والمكره.

وقد تكون قيمة الأدب، قيمة روحية، لأن الإنسان بروحه ترجمان عن الذات الإلهية، وهي خليفة بالتوحيد والعبادة، والسجود والتمجيد، والإنسان المفكر، أو الإنسان الواعي برسالته في الحياة، المؤمن بكينونته ويفتح عيونه على مَلَكُوت الله جل جلاله، لأن في سفر الطبيعة أخباراً، وفي قلب كل إنسان صومعة له. والأدب الحقيقي تغلغل قي القيم الروحية، يمجدها وينشدها، ليرفع النفس البشرية إلى المثل العليا، والشاعر الحقيقي يقف متأملاً في الكون، وفي النفس الإنسانية.

وقد تكون قيمة الأدب، قيمة الإنسانية في أبعادها وإتجاهاتها، وهذه القيمة الإنسانية ولا شك ثمرة من ثمرات الإديان السماوية، وما تولد عنها من فلسفات لا تعرف حدوداً، ولا تقف الأجناس ولا الألوان ولا الأوطان حائلا دون إشراقها وتوهجها فهي في أعمق أبعادها شجرة (المبادئ أو الحقوق الإنسانية) والتجرد من الأثرة والأنانية، تلك الشجرة تسقي بماء العدل والمساوة والحرية والإخاء والتعاون، فتجدد معالم الحياة وأوضاعها، وتقوي أواصر الخير والمحبة.

إذا فإن الأدب العراقي الحديث قد تأثر بهذه القيمة الأدبية، واصبح الشعراء المحدثون ينظرون إلى الطبيعة، بنظرة روحية حية فيتحدثون إليها، ويرون في القيم الروحية والإنسانية مصدراً غنياً بالمعاني الخالدة.

وقد خرج الأدب العراقي الحديث أيضا عن الطريقة التقليدية، وتحرر من التكلف فظهر في الأدب العراقي تنوع وتفنن في القصة والمقالات الأدبية، ففي الشعر الغنائي، والشعر الديني، والشعر التعليمي، وأغراضه، فأصبح الشاعر العراقي يتأمل تأملاً عميقا في النفس البشرية وفي الحياة، باحثاً عن جوهرها بشوق عظيم. وأخذ الشاعر يعالج المشاكل الإنسانية جمعاء، وقد أصبح الشاعر مسخراً لرغبات نفسه، لا لرغبات قبيلته أو حكامه كما كان قديماً، فآمن بنفسه، وآمن بالقيم الروحية والإنسانية الصادرة من القلوب البشرية، ونظم قصائد فيها وحدة في الموضوع، وحرية الإخراج، وعالج فيها مواضيع روحية، ويشعر بها كل إنسان في كل مكان، فالأدب العراقي الحديث اليوم أدب يؤمن بالحياة وقيمتها الروحية والإنسانية والأخلاقية.

وبعد : فقد بذلت ما استطعت ولم أدخر وسعا في التدقيق والبحث والتنقيب ومع ذلك فانا واثق انه قد فاتني الكثير، ومعترف بأنه فوق كل ذي علم عليم، وما أنا إلاّ طالب علم، أسأل المولى القدير أن يأخذ بيدي انه نعم المولى ونعم النصير... واستغفر الله مما أدري وما أجهل من شر النفس وأصلي وأسلم على محمد رسول الله وآله وصحبه.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أبحاث في الشعر العربي، يونس أحمد السامرائي، القاهرة، المؤسسة العربية، 1980م.
- الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس الخوري المقدسي، بيروت، دار الكتب، ط1. ، 1952.
- إتجاهات الأدب الإنكليزي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، جميل سعيد، القاهرة، مطبعة دار المعارف، 1949م.
- الإتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، رؤوف الواعظ، دار الحرية للطباعة، بيروت، 1974م.
- الإتجاهات الوطنية في الشعر الليبي، محمد صادق عفيفي، بيروت، دار الكشاف، 1969م.
- الإتجاهات الوطنية في الشعر الحديث، محمد صادق عفيفي، بيروت، دار العلم، 1971م.
- الأخلاق، سعيد عبدالعظيم، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1989م.
- الأدب العربي الحديث، سالم أحمد الحمداني، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1987م.
- الآداب العربية في القرن التاسع عشر، لويس شيخوا، بيروت، مطبعة القاموس، 1926م.
- الأدب العربي الحديث، فائق مصطفى أحمد، بغداد، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، 1987م.

- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، لبنان، المطبعة البولسيَّة، 1937م.
- أسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني، مصر، مطبعة الترقي، 1320هـ.
- الأسس الجمالية في النقد العربي، عزالدين إسماعيل، القاهرة، دار الفكر العربي، 1974م.
- الأوشال، جميل الزهاوي،العراق، مطبعة بغداد، 1934م.
- أشعة ملونة، أحمد الصافي النجفي، بيروت لا.ت.
- أغاني الحياة، أبو القاسم الشابي، تونس، دار التونسية، 1966م.
- الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1929م.
- أغاني الدرويش، رشيد أيوب، نيويورك، المطبعة السورية الاميركية، 1928م.
- الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة، مصطفى جمال الدين، بغداد، دار الحريو للطباعة، 1978م.
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق حسن السندوسي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1956م،ج1.
- بين الشعور والعاطفة، محمد مهدي الجواهري، بغداد، دار الكتاب للطباعة، 1924، م.
- تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، أحمد لطفي السيّد، القاهرة، مطبعة دار المعارف، 1946م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة لجنة التألف والترجمة والنشر، القاهرة 1936م.
- تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بغداد، مطبعة دار الحرية، 1955م.

- تاريخ العرب، فيليب حتي، ترجمة اِدورد جرجي وجبرائيل جبور ، بيروت، مطبعة دار الكشاف، 1950م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مصر، مطبعة الهلال، 1914م.
- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ ، بيروت، مطبعة دار الأحد، 1972م.
- تحت شمس الفكر، توفيق الحكيم، مصر، مطبعة دار المعارف، 1945م.
- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بدوي، مصر، مطبعة الاعتماد، 1940م.
- تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق، داود الأنطاكي، القاهرة، مطبعة بولاق، 1291هـ.
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق، علي عباس علون، بغداد، مطبعة الفرات، 1975م.
- تطور الفكر والأسلوب في الأدب العراقي، داود سلوم، بيروت، مطبعة المعارف، 1959م.
- التفسير النفسي للأدب، عزالدين إسماعيل، دار المعارف بيروت، 1966م.
- التيارات القومية في الشعر العراقي الحديث، ماجد أحمد السامرائي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1983م.
- التيار الديني في الشعر العراقي الحديث، سالم أحمد الحمداني، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1985م.
- ثم مات الليل، شاذل طاقة، بغداد، مطبعة الجامعة، 1936م.
- جمهرة أشعار العرب، محمد بن الخطاب القرشي، القاهرة، مطبعة دار المعارف، 1926م.
- جامع الصحيح، البخاري، مطبعة دار المعارف، مصر، 1341هـ.
- خيوط النجوم، مصطفى جمال الدين، بغداد، مطبعة دار الكتب، 1971م.
- الحرية، يوسف الخال، بيروت، مطبعة جمعية الفنون، 1947م.

- حديث الأربعاء، طه حسين، ، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1937م .
- حديث العشيّة، بولس سلامة، لبنان، مطبعة دير المخلص، 1940م.
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى عبداللطيف جياووك، بغداد، مطبعة دار الحرية للطباعة، 1977م.
- الحياة واالشعر، حسين مراد، بغداد، مطبعة الفرات، 1948م.
- دراسات في الشعر الحديث، عبده بدوي، كويت، مطبعة دار الخليج، 1987م.
- دراسات في الأدب العراقي، ضياء الدين الدخيلي، بغداد، مطبعة دار الحرية، لا ت.
- دراسات في الشعر الحديث، ميخائيل أمطانيوس، بيروت، مطبعة القاموس، 1968م.
- دفاع عن الأدب، جورج ديهاميل، ترجمة محمد مندور، القاهرة، مطبعة الهلال، 1942م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المنار ، القاهر 1953م.
- دمعة وابتسامة، جبران خليل جبران، مصر، المطبعة التجارية الحديثة، 1914م.
- ديوان ابن الرومي، تحقيق كمال الكيلاني، مصر، مطبعة التوفيق الأدبية، 1924م.
- ديوان ابن الفارض، ابن الفارض، بيروت، المطبعة الأدبية، 1886م.
- ديوان، بدر شاكر السياب، قدم له ناجي علوش، بيروت، مطبعة دار العودة، 1971م.
- ديوان التميمي، صالح التميمي، النجف، لا مطبعة، 1948م.
- ديوان الجليس الأنيس، سليم دي بسترس، بيروت، المطبعة الأدبية، 1887م.
- ديوان الحماسة، أبو تمام، شرح التبريزي، مصر، مطبعة السعادة، 1927م.

- الديوان، حسن البزاز، القاهرة، المطبعة المنيرية، 1905م.
- ديوان الحان اللهيب، أحمد الصافي النجفي، دمشق، مطبعة المعارف، 1949م.
- ديوان الحبوبي، محمد سعيد الحبوب، بغداد، مطبعة الحرية، 1980م.
- رسائل الأحزان، مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، مطبعة دار الهلال 1924م.
- ديوان الدموع، مؤيد إبراهيم، حيفا، لا مطبعة، 1931م.
- ديوان الرصافي، معروف عبد الغني الرصافي، بغداد، مطبعة دار الحرية، 1947م.
- الديوان، سامي مهدي، بغداد، مطبعة بغداد، 1979م.
- ديوان شكري، عبد الرحمن الشكري، القاهرة، مطبعة دار الرسالة، 1978م.
- ديوان الشرقي، علي الشرقي، بغداد، مطبعة دار الحرية، 1979م.
- ديوان الشبيبي، محمد رضا الشبيبي، القاهرة، مطبعة المعارف ، 1940م.
- ديوان، ضياء الدجيلي، بيروت، مطبعة المعارف، 1945م.
- ديوان علي بن أبي طالب، بيروت، المطبعة الأهلية، 1327هـ .
- ديوان العقاد، عباس محمود العقاد، القاهرة، مطبعة الأنجلو، 1967م.
- ديوان العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، شرح ناصيف اليازجي، بيروت، المطبعة الأدبية، 1305هـ.
- ديوان عروة، عروة بن الورد، بيروت ، مطبعة دار الصادر، بلا تاريخ.
- ديوان العبرات الملتهبة، إلياس قنصل، بيروت، مطبعة العلم، 1931م.
- ديوان الأغوار، أحمد الصافي النجفي، بيروت، مطبعة الكشاف، 1944م.
- ديوان الأكبر، محي الدين ابن عربي، تحقيق نواف جراح، بيروت، مطبعة دار المعارف، 1980م.
- الديوان الكاظمي، عبد المحسن الكاظمي، دمشق، مطبعة اليقظة العربية، 1936م.
-

- ديوان المبتكر، أمين شميّل، بيروت، لا ط . 1869م.
- الديوان، محمد شيت الجومرد، القاهرة، مطبعة المقتطف، 1905م.
- الديوان، محمد سعيد، بغداد، مطبعة دار الكتاب العامة، 1980م.
- ديوان النفحات، محمد الفراتي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1946م.
- الديوان، محمد مهدي الجواهري، بغداد، طبعة وزارة الإعلام، 1973م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت، أمية بن أبي الصلت، جمع بشير يموت، بيروت، المطبعة الوطنية، 1934م
- ديوان المعلم، نقولا الترك، ضبط فؤاد أفرام البستاني، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1949م.
- ديوان (أنفاس الربيع) ، راشد الزّبير، بيروت، المطبعة الأدبية، 1968م.
- ديوان الأيوبيات، رشيد أيوب، نيويورك، المطبعة السورية الاميركية، 1916م.
- الذكر لتنسون، أنيس المقدسي، بيروت، المطبعة الأميركانية، 1925م.
- رباعيات الزهاوي، جميل الزهاوي، بيروت، مطبعة القاموس، 1924م.
- رسالة الأديب إلى الحياة العربية، ميّ زيادة، بيروت، مطبعة الكشاف، 1938م.
- الرسالة القشيرية في عالم التصوف، أبو القاسم عبدالكريم القشيري، القاهرة، المطبعة المنيرية، 1330هـ.
- رسائل الأحزان، مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، مطبعة دار الهلال 1924م.
- رسائل أخوان في فلسفة الجمال والحب، مصطفى الرافعي، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1924م.
- رمل وزبد، جبران خليل جبران، ترجمة أنطونيوس بشير، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1927م.
- سحر الشعر، روفائيل بطي، مصر، المطبعة الرحمانية، 1922م.
- السلام الاجتماعي والتربية على القيم الروحية، محمد سليم، القاهرة، مطبعة الجامعة العربية، 1922م.

- شرح القصائد العشر، يَحْيى بن علي التبريزي، القاهرة، المطبعة المنيرية، 1342هـ.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، زهير بن ابي سلمى، شرح الشيباني القاهرة، الدار القومية، 1944م.
- شرح التنوير على سقط الزند، أبو العَلاء المَعَرّي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1947م.
- شرح المعلقات السبع، الزورني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، مطبعة مصر، 1964م.
- شرح ديوان الأعشى، محمد حسين، القاهرة، مطبعة دار العلم، 1950م.
- شرح ديوان ابى نواس، محمد واصف، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية،1898م.
- شظايا ورماد، نازك الملائكة، بغداد، مطبعة المعرف، 1949م
-
- الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، يوسف عزالدين، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م،
- الشعر الحر في العراق، يوسف الصائغ، مطبعة وزارة الثقافة، بغداد، 1978م.
- الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور، جلال خياط، بيروت، دار الرائد العربي، 1987م،
- شعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والإجتماعية، يوسف عزالدين، القاهرة، مطبعة دار المعارف، 1977م.
- الشعر والشعراء في العراق 1900 1958 م، أحمد ابو السعد، لبنان، دار المعارف، 1959م.
- الشعر العربي المعاصر، عزالدين إسماعيل، بيروت، المطبعة العلمية، 1974م..
- الشعر العراقي في القرن السادس الهجري، مزهر عبد السوداني، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1946م.

- شعراء النصرانية بعد الإسلام، لويس شيخو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1924م.
- الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث، مصطفى السحرتي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1948م.
- الشعر والشعراء في ليبيا، محمد صادق عفيفي، ليبيا، مطبعة الأنجلو، 1955م.
- الشعر العراقي الاجتماعي، يوسف عزاليدن، بغداد، مطبعة الحرية، 1962م.
- الشعر العراقي في القرن العشرين، يوسف عزالدين، بغداد، دار المعارف، 1968م.
- شعراء عراقيون، منذر الجبوّري، بغداد، طبع في مطبعة وزارة الإعلام، 1977م.
- الشعر والشعراء في العراق، إبراهيم السامرائي، بيروت، مطبعة الكشاف، 1957م.
- شهيدة العشق الإلهي، عبد الرحمن بدوي، القاهرة، مطبعة مصر، بلا تاريخ.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946م.
- صوت العالم، ميخائيل نعيمة، مصر، مطبعة مصر، بلا تاريخ.
- طراز خاص، حسين مراد، بيروت، مطبعة الاتحاد، بلا.تاريخ.
- طبقات فحول الشعراء، محمد ابن سلام الجمحي، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المعارف، 1952م.
- الظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، محسن أطيمش، بغداد، دار الحرية، 1982م.
- العمدة، ابن رشيق القيرواني، شرح محمد محيي الدين، مصر، مطبعة السعادة، 1907م.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1928م،
- الغربال، ميخائيل نعيمة، القاهرة، المطبعة العصرية، 1923م.

- الفكر العربي الحديث، رؤوف خوري، بيروت، مطبعة الكشاف، 1943م.
- الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، سامي الكيالي، القاهرة، دار المعارف، 1943م.
- الفكر العربي، أنيس فريحة ، بيروت، بلا مطبعة، 1950م.
- فلسفة اللذة والألم، إسماعيل مظهر، مصر، مطبعة النهضة المصرية، 1937م.
- فلسفة النشوء والارتقاء، شبلي الشميّل، القاهرة، مطبعة المقتطف، 1910م.
- في الأدب العربي الحديث، يوسف عزالدين، القاهرة، مطبعة الهيئة المصرية العامة، 1973م.
- في النقد والأدب، أيليا الحاوي، بيروت، دار الكتاب، 1979م.
- فيض الخاطر، أحمد أمين ، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940م.
- في أصول الأدب، أحمد حسن الزيات، القاهرة، مطبعة الرسالة، 1946م.
- في الميزان الجديد، محمد مندور، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1944م.
- في الأدب الجاهلي، طه حسين، مصر، مطبعة فاروق، 1933م.
- في يقظة الوجدان، نعمان ماهر الكنعاني، بغداد، لا مطبعة. 1943م.
- في ذمة الخلود، باقر الشبيبي، بغداد، مطبعة الجامعة 1920م.
- قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1935م.
- قصيدة هي النفس، باقر الشبيبي، بغداد، مطبعة دار الحرية للطباعة والنشر، 1920م.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب، محمد علي المكي، القاهرة، مطبعة دار المعارف، 1310هـ.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، الأستانة، مطبعة محمود بك، 1320هـ.
- الكتاب، عمر بهاء الأميري، القاهرة، مطبعة المقتطف، 1945م.

- كتاب البحر، عبد الوهاب البياتي، بغداد، مطبعة وزارة الإعلام، 1973م.
- لغة الشعر بين جيلين، إبراهيم السامرائي، بيروت، مطبعة المؤسسة العربية، 1980م.
- الكلم المنظوم، جميل الزهاوي، بيروت، مطبعة الاهلية، 1909م.
- الكلمات، جبران خليل جبران، جمع أنطونيوس بشير، مصر، المطبعة العربية، لات.
- اللمع في التصوف، أبو نصر عبدالله الطومسي، القاهرة، مطبعة الهلال، 1914م.
- لزوم ما لا يلزم، أبو العَلاء المَعَرّي، اعتناء كامل الكيلاني، القاهرة، مطبعة التوفيق الدبية، 1924م.
- ما هو الأدب، رشاد رشدي، بيروت، المطبعة العلمية، 1960م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، القاهرة، مطبعة بولاق، 1935م.
- مجمع البحرين، ناصيف اليازيجي، بيروت، دار المعارف، 1913م.
- مجلة الكتاب، القاهرة 1967م.
- مجلة الأديب ، مجلة لبنانية ، السنة 19 , العدد 7.
- مجلة الرسالة ، السنة 1978م، العدد 380،.
- محاضرات عن الشعر العراقي الحديث، عبد الكريم الدجيلي، القاهرة، مطبعة الهلال، 1959م.
- محاولات في فهم الأدب ، لطفي حيدر، بيروت، بلا مطبعة، 1943م.
- المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، محمد غلاب، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1948م
- مرآة الضمير الحديث، طه حسين، بيروت، مطبعة الكشاف، 1965م.
- المساكين، إسماعيل مظهر، مصر، مطبعة دار العصور، 1929م.
- مسائل فلسفة الفن، جان ماري جويو، بيروت، مطبعة المناهل، 1965م.

- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، مصر، مطبعة المعارف، 1938م.
- المشانق والسلام، عدنان الراوي، بغداد، مطبعة دار الحرية، 1963م.
- المفضليات، المفضل بن محمد الضبي، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1926م
- مفهوم الشعر، جابر عصفوري، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1978م.
- مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، القاهرة، مطبعة عبد الحميد مصطفى محمد، بلا تاريخ.
- من هنا نبدأ، خالد محمد خالد، القاهرة، مطبعة دار النيل، 1950م.
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، القاهرة، مطبعة دار المعارف، 1948م.
- المنهل ، حسين عرب، بيروت ، مطبعة صادر الريحاني، بلا تاريخ.
- من أغاني الحرية، علي الحلي، بغداد، مطبعة وزارة الإعلام، 1965م.
- من حي إلى ميت، توفيق حسن، بيروت، مطبعة القاموس، 1931م.
- المواكب، جبران خليل جبران، بيروت، مطبعة الكشاف، بلا تاريخ.
- الموت في الحياة، عبد الوهاب البياتي، بغداد، مطبعة الجمهورية، 1968م.
- المورد الصافي، أنيس المقدسي، بيروت، المطبعة الاميركانية، 1925م.
- النبي، جبران خليل جبران، ترجمة أنطونيوس بشير، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1926م.
- نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق، جميل سعيد ، القاهرة، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، 1954م.
- النظرات، مصطفى المنفلوطي، القاهرة ، المطبعة الرحمانية، 1925م.
- نفثات من أقلام الشباب الحجازي، علي حسن، القاهرة، مطبعة المقتطف، 1943م.
- نقد الشعر العربي الحديث في العراق، عباس توفيق، بيروت، مطبعة دار الرسالة، 1978م،
- نقد الشعر العربي الحديث في العراق، عباس توفيق، بيروت 1978م.
- النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، القاهرة 1978م.

- نقد الشعر، قدامة بن جعفر (تحقيق طه حسين والعبادي)، القاهرة، مطبعة مكتبة الخانجي، 1948م.
- نقد الشعر العربي الحديث في العراق، عباس توفيق، دار الرسالة، بغداد 1987م.
- نقد الشعر الأدب العربي، نسيب عازار، مطبعة دار الرسالة، بيروت، 1939م.
- وثبة الشرق، إسماعيل مظهر، القاهرة، مطبعة دار العصور، 1929م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن الجرجاني، بيروت، مطبعة العرفان، 1331هـ.
- الوعي القومي، قسطنطين زريق، بيروت، مطبعة الاتحاد، 1940م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، القاهرة، مطبعة المنيرية، 1275هـ.
- يتيمة الدهر، الثعالبي، دمشق، مطبعة الحنفية، 1303هـ.

مـــحتـــويـــات

- مقدمة 1-3
- تمهيد 4-16
- الفصل الأول 17
- ماهية القيم الروحية 18-23
- القيم الروحية في الشعر 24-31
- القيم الروحية والإنسانية في الشعر العربي القديم 32-50
- الفصل الثاني 51
- القيم الدينية 52-63
- القيم الإنسانية 64-75
- القيم الأخلاقية 76-84
- العوامل التي أضعفت القيم الروحية والإنسانية 85
- 1. البيئة ونظام القصيدة 86-89
- 2. فقدان الحرية 90-91
- 3. عدم الإيمان بقيمة الإنسانية 92-93
- 4. ضعف النقد الأدبي 94-98
- العوامل التي تقوى القيم الروحية والإنسانية 99
- 1. الثقافة 99-101
- 2. الحرية 102-104
- 3. النقد 105-106
- 4. التواضع 107-108
- الفصل الثالث 109
- 1. القيم الروحية والإنسانية في المرحلة الأولى للشعر العراقي الحديث 110 -114

- 2. القيم الدينية 115
- 1.2. الله(جل جلاله) 115-120
- 2.2. مدح رسول الله 121-123
- 3.2. الروح والنفس 124-133
- 4.2. الحياة والوجود 134-138
- 5.2. الموت 139-143
- 6.2. الدين 144- 146
- 7.2. الحب 147-152
- 3. القيم الإنسانية والأخلاقية 153-155
- 1.3. الحرية 156-161
- 2.3. السعادة 162-167
- 3.3. الحقيقة 168-172
- 4.3. الكمال 173-176
- 5.3.الجمال 177-180
- 6.3. الفن 181-185
- الخاتمة 186-187
- المصادر والمراجع 188-199
- المحتويات 200-201

ÖNSÖZ

Edebiyat, bütün dünya milletlerinde yükselme ve medeniyeti yönlendiren düşünce hayatının en güçlü desteği ve en önemli kalkınma vasıtasıdır. Topluma hizmet eden ve hayatı geliştiren sosyal, siyasi ve iktisadi hayatın gelişmesi, edebiyat sayesinde mümkündür.

Tüm dünya milletlerinin edebiyatlarında şiir, hayatın gerçeklerinin bir yansımasıdır; şiir, hayatın gerçeklerini, üzüntü ve sevinçlerini anlatır.

Şiir, manevî ve insanî değerleri kesin olarak zenginleştiren bir erdemdir. Eğer şiir insandaki ilahî şuuru harekete geçirmezse ve aklı derin bir düşünceye itmezse güçsüz kalır. Şiirin insandaki samimi bir tecrübe olduğunu kabul ederek, Irak şiirinde yer alan manevî değerleri araştırmak isteğiyle böyle bir çalışmaya ihtiyaç duyuldu.

İlk dönem yeni Irak şiirindeki manevî değerleri araştırmaya; ayrıca Arapların bilhassa insani ve toplumsal değer anlayışlarının ve geçmişten gelen şiirlerinin gelişimini göstermek için eski Arap şiirindeki bu değerleri incelemeye çalıştım.

Doktora tezi olarak hazırladığımız bu çalışma; giriş, üç bölüm sonuç ve kaynakçadan oluşmaktadır.

Giriş bölümünde, Irak halkının hayatı, modern Arap ve modern Irak şiiri, siyasî ve fikri yönleriyle, Irak edebiyatında şiir, şiir konuları ve manevî değerler hakkında genel bilgiler verildi.

Birinci bölümde; genel olarak manevî değerler, şiirde manevî değerler, eski Arap şiirinde manevî değerler incelendi.

İkinci bölümde Modern Arap şiirindeki, dinle ilgili manevî değerlerden (Allah, din, ruh, ahiret..), insanî ve ahlaki manevî değerlerden (akıl, fazilet, sanat, özgürlük, iyilik…) insanî ve manevî değerleri etkileyen faktörlerden bahsedildi.

Üçüncü bölümde ise ilk dönem yeni Irak şiirindeki manevî değerler ve dinle ilgili manevî değerler (Allah, din, ruh, ahiret…); insanî ve ahlakla ilgili manevî değerler (akıl, fazilet, sanat, özgürlük, sevgilik….) ele alındı.

Kuşkusuz böyle bir çalışma, o dönemdeki yaşamı değişik yönlerden, kapsamlı bir şekilde inceleme zorunluluğunu da beraberinde getirmektedir. Bu sebeple birçok konunun tam olarak anlaşılabilmesi için tarihî seyirlerini de incelemek gerekti.

Konunun kapsamlı bir şekilde araştırılıp incelenmesi için birçok kaynak ve eser gözden geçirilmiştir. Örnek olarak alınan metinlerin kaynaklarına ulaşılabilmesi ve tahkikinin yapılabilmesi için büyük çaba harcanmıştır.

Araştırmamızı yaparken manevî değerler hakkında pek çok kaynak olmasına rağmen bu konuyla alakalı kaynakların çok kısıtlı olması sebebiyle bazı sıkıntılarla karşılaşıldı. Mevcut kaynakların da hemen hemen hepsi aynı bilgileri içermekteydi. Ancak mevcut imkanlar çerçevesinde en iyisini yapmaya çalışıldı.

İncelemiş olduğum konuya ve Irak edebiyatına az da olsa katkıda bulunabilmişsem kendimi bahtiyar sayacağım.

Bu çalışmamın kusursuz ve yararlı bir hale gelmesi için benden hiçbir yardımını, desteğini ve yapıcı eleştirilerini esirgemeyen sayın danışman hocam Prof. Dr. Tacettin UZUN' a, ayrıca değerli hocalarım Yrd. Doç. Dr. Fikret ARSLAN ve Yrd. Doç. Dr. Seyit BAHÇIVAN' a şükranlarımı sunarım.

Serkut Mustafa AZIZ
Konya 2007

T.C.
SELÇUK ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ
TEMEL İSLAM BİLİMLER ANABİLİM DALI
ARAP DİLİ VE BELAGATI BİLİM DALI

İLK DÖNEM YENİ IRAK ŞİİRİNDE MANEVÎ DEĞERLER

(DOKTORA TEZİ)

DANIŞMAN
Prof . Dr. Tacettin UZUN

HAZIRLAYAN
Serkut Mustafa AZİZ

KONYA - 2007